مطبوعات المجمع العلمي العراقي

بغداد في الشعر العربي

من تاريخها وأخبارها الحضارية

تصنيف

جمال الدين الآلوسي

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

بغـداد في الشعر العربي

مطبوعات المجمع العلمي العراقي

بغداد في الشعر العربي
من تاريخها وأخبارها الحضارية

تصنيف

جمال الدين الآلوسي

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

تقــديم

بغداد .. مدينة السلام

عن يونس بن عبد الأعلى، قال :
قال لي محمد بن ادريس الشافعي ، رضي الله
عنه : يا يونسُ ، أدخلتَ بغداد ؟ فقلتُ :
لا . فقال : يا يونسُ ، ما رأيتَ الدُّنيا ،
ولا النّاس .

طاولت ناصيةَ الشمسِ عَنانا ... وتَشاءَتْ قاصةَ النَّجمِ عِنانا
ضاهَتِ الشمسَ ، ولكنْ شأنُها ... كان أعلى من عُلَى الشمسِ مكانا
يعتري الشمسَ أُفولٌ وَهْيَ في ... أُفقِها طالعةٌ آناً فآنا

*

يا لها جوهرةً ! شَفَّتْ سَناً ... من نَواحيها ، وراعت لَمَعانا
أبداً تُبصِرُها فاتنةً ، ... يَهرَمُ الدَّهرُ وتعلو عُنفُوانا
كلّما جئتَ عليها قِدَمٌ ، ... نَضَرَتْ وجهاً ، وزادت لَمَعانا

تنتحي أُفقاً فأُفقاً صُعُداً ... وتَرودُ المطمحَ الأرفعَ شانا

كَبُرتْ مأرَبَ نفسٍ وهوى ... وسمتْ مَطرحَ لحظٍ ورِهانا

دونَ أدنى بُغيةٍ من عزمها ... تَسلِسُ الشمسُ لِكفّيها لِيانا

*

لم يَرَ الدُّنيا امرؤٌ لم تَرَها ... عينُهُ يوماً، ولا الحُسنَ افتتانا

مُشتهى طرفٍ، ومَهوى خافقٍ ... يَعشقُ الحُسنَ ويعلو خَفَقانا

ومُنى نفسٍ تَصبّاها الهوى ... رأَتِ الأُنسَ لديها والأمانا

*

وَرِثتْ ما أثّلتْهُ (طيبةٌ) ... و(دِمشقُ)، وأجدّتهُ زِيانا

كلُّ ما استكرمَ من مُستحدَثٍ ... تصطفي أغلاهُ ماساً وجُمانا

ورِثتْ غرسَ المعالي طيّباً ... وسقتْهُ دِرّةَ الحبِّ لُبانا

أترفتْ غُدرانَها، فازدهرتْ ... وزكتْ مَجنىً وآثاراً حِسانا

كانبلاجِ الفجرِ عقلاً نيّراً … وآعتدالِ الغُصْنِ أخلاقاً لِدانا
رَحِمَ (المنصورُ)! هل شادَتْ بها … يدُهُ إلّا حياةً وكيانا !

*

سُدّةُ المُلْكِ.. ومِن أطرافِها … لَمّتِ الدُّنيا فِجاجاً ورِعانا !
جَمَعَتْ تيجانَها في واحدٍ … جَمَعَ المجدَ مكاناً وزمانا !
دُوِّرَتْ كالأرضِ وآنداحَ آسمُها … وغدا أعظمَ منها دَوَرانا !
رَنَّ في الدُّنيا صداهُ، وحلا … يُطْرِبُ الدُّنيا على الدهرِ جَنانا
مِثلَ سَجْعِ الطَّيرِ في كلِّ فمٍ … ومذاقِ الشَّهدِ قد مَسَّ اللسانا
أسمعتْ مَنْ لم يكنْ ذا مِسْمَعٍ … وأعارتْهُ لساناً وبيانا
دانَ شرقُ الأرضِ بالحُبِّ لها … مِثلما المغربُ بالطاعةِ دانا
رَحِمُ (الإسلامِ) من أوشاجِها … عطفتْ بعضاً على بعضٍ حَنانا

*

(الحضاراتُ) الّتي ألوَتْ بها … غِيَرُ الأيّامِ، أحيتها عِيانا

قد تلاقَيْنَ على باحاتِها، وتمازجْنَ انصهاراً وافتِنانا
كانتِ (الفُصحى) لها أوعيةً كشفيفِ الضوءِ زادتْها افتِتانا
رُبَّ لونٍ ناصلٍ، عادَ بها من سَنا الإبريزِ أبهى لمعانا
وعُلًى قد كادَ يعروها البِلى، كلأتْها من عواديهِ صِيانا
وعِصاميٍّ، كستْهُ مُعلَماً من بُرودِ المجدِ موشيّاً حِسانا
ومَساعٍ حُرَّةٍ مُهذَّبةٍ في سبيلِ المجدِ أولتْها الضَّمانا

*

نَهَضتْ زَهراءُ شمّاءُ الذُّرا كَمنارِ اليَمِّ يذكو ومَضانا
حَفَلتْ بالعلمِ والسيفِ معاً فغدتْ للعلمِ والسيفِ صِوانا
قُرِنا في قَرَنٍ، واستحصدا: صاحبَ العلمِ لديْها الصَّولجانا
تحتَها (دجلةُ) يجري ضاحكاً بجميلِ الخِصبِ ويستنبِتُ الجِنانا
مُمتِعاً مِن كُلِّ نُعمى غَضّةٍ بالبواكيرِ رِطاباً وسِمانا

أَلِقَ الأوضاحِ لمّاحَ السَّنا ... يدفقُ البِشرُ عليهِ هَيَمانا

كَنَديها .. رِقّةً رَقْراقةً ... ومِراحاً، وانشراحاً وحَنانا

مَن ترى رقرقَ في صاحبِهِ ... خُلُقَ الأزهرِ واللونَ الهِجانا ؟

*

بأبي "بغدادُ"، قلبي، وأنا ... وأبي قلَّ لِـ "بغدادَ" فِدانا !

محمد بهجة الأثري

١/١٣٩٥ هـ

١/١٩٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بغداد هي « مدينة المنصور » ، وتسمى « المدينة المُدَوَّرة »

دُوِّرتْ في الأرض وانداح اسمُها
وغدا أعظمَ منها دَوَرانا (١) .

وتُسَمَّى « مدينة السلام » . ومن أسمائها « الزوراء » . شرع في بنائها المنصور الخليفة الثاني للدولة العباسية سنة ١٤٥ هـ ، وانتقلت اليها الدولة سنة ١٤٨ هـ .

قال الخطيب البغدادي : « بلغني عن « أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » ، قال : قد رأيت المدن العظام المذكورة بالإتقان والإحكام ، بالشّامات . وبلاد الروم ، وفي غيرها من البلدان ، فلم أرَ مدينةً قطُّ أرفعَ سَمْكاً ، ولا أجودَ استدارةً ، ولا أنبلَ نُبْلاً ، ولا أوسعَ أبواباً ، ولا أجودَ فصيلاً من « الزّوراء » . كأنما صُبَّتْ في قالب ، وكأنما أفرغت إفراغاً » .

وقال : « الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والخير ببغداد » .

وقال علي بن المحسن التَّنُوخي : « أخبرني أبي ، قال أبو القاسم ابن الحسن الديلمي ، قال : « سافرت في الآفاق ، ودخلت البلدان من حد سمرقندَ الى القيروان ، ومن سرنديب الى بلد الروم ، فما وجدت بلداً أفضل ولا أطيب من بغداد » .

وقال لسبكتكين حاجب معزّ الدولةّ المعروف بالحاجب الكبير ، وقد سأله ، قال : قد سافرتَ الأسفار الطويلة ، فأي بلد وجدت أطيبَ وأفضلَ ؟ فقلت : أيّها الحاجب اذا خرجت من « بغداد » ، فالدّنيا كُلُّها رُسْتاق » .

وقال أبو القاسم عبيدالله بن علي الرَّقّي ، وكان أحد أدبائها ، وممن ألِفَه المَعرّي في سفره الى بغداد ، قال : « أخذ أبو العلاء المَعَرّيّ ، وهو

---

(١) من قصيدة الأستاذ محمد بهجة الأثري .

ببغـــداد يوماً يدي فغمزها ، ثم قال لي : يا آبا القاسم ، هذا بلد عظيم لا يأتي عليك يوم وأنت به الا رأيت فيه من أهل الفضل من لم تره فيما تقدم » .

وكان بعضهم إذا ذكر بغداد ، قرأ قوله تعالى : (بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفورٌ) .

ونقل الخطيب البغـــدادي ، قال : « من مناقبها التي أفردها الله بها دون سائر الدّنيا شرقاً وغرباً ، الأخلاقُ الكريمة ، والسجايا المرضيّة ، والمياه العَذْبة الغَـدِقة ، والفواكه الكثيرة الدَّمِثة ، والأحوال الجميلة ، والحِذق في كل صفة ، والجمع لكل حاجة ، والأمن من ظهور البدع ، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين ، والفقهاء والمتفقهين ، ورؤساء المتكلمين ، وسادة الحساب والنحو ، ومُجِيدي الشعراء ، ورواة الأخبار والأنساب وفنون الآداب ، وحضور كل طُرْفة ، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحدٍ ، لا يوجد ذلك في بلدٍ من مدن الدنيا إلا بها ، ولاسيما زمنَ الخريف . ثم إن ضاق مسكن بساكن وجَدَ خيراً منه . وإنْ لاحَ له مكان أحب اليه من مكانه ، لم يتعذر عليه النقلة اليـــه ، من أيّ جانب من جانبيه أراده ، ومن أي طرف من أطرافه خَفَّ عليه . ومتى هرب أحد من خصمه وجَدَ من يستُرُه في قرب أو بُعدٍ ، وإن آثر أن يستبدل داراً بدارٍ ، أو سِكّةً بسكة ، أو شارعاً بشارعٍ ، أو زُقاقاً بزقاق ، فغير ذلك من التبديل اتّسع له الإمكان في ذلك [على] حَسَب الحالة والوقت . ثم عيون التجار المجهزين ، والسلاطين المعظمين ، وأهـــل البيوتات المبجليـن ، في ناحية ، تنبعث الخيرات لهـــم الى الذين هم في الحال دونهم ، غير منقطع ذلك ولا مفقود . فهي من خزائن الله العظام التي لا يقف على حقيقتها الا هو وحدَه ، ثم هي مع ذلك منصورة محبورة ، كلما ظنّ عدوٌّ الإسلام أنه فائز باستئصال أهلها ، كَبَتَه اللهُ ، وكَبَّهُ لمنخريه ، واستؤصلت قدرته بما ليس في تقدير الخلق أجمعين ، فضلاً من الله ونعمة ، والله ذو الفضل العظيم » .

وقال الخطيب :

« وأهل بغداد موصوفون بحسن المعرفة والتثبت في أخـــذ الحديث وآدابه ، وشدة الورع في روايته ، اشتهر ذلك عنهم ، وعُرِفوا به » .

وقال ابن عُلَيَّة المحدث : « ما رأيت أحسنَ رغبة في طلب الحديث من أهل بغداد » .

ووصف أحد كبار المؤرخين شَعب العراق فقال : « إن العراق ، الذي بُنيت فيه بغداد ، هو صفوة الأرض ، ووسطها . يحيط به ستة أقاليم ، هي : الترك ، والهند ، والصين ، والشام ، والحجاز ، ومصر ، لذلك اعتدلت ألوان أهله ، وامتدت أجسامهم ، وسَلِمُوا من شقرة الروم والصقالبة ، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان ، وجفاء أهل الجبال وخراسان ، ودمامة أهل الصين ، ومن جالسهم وشاكل خلقهم ، فسلموا من ذلك كله ، واجتمع في أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار ، بلطف من العزيز القهار ، وكما اعتدلوا في الخلقة كذلك لطفوا في الفطنة ، والتمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور »[١] .

وإنما هذا الوصف أراد به أهل بغداد وحدهم ، ولا ينطبق على كل القطر لاختلافهم في اللون والجنس . وبغداد حينذاك عروس الدنيا ، وعاصمة أكبر إنبراطورّية فيها ، ومستودع أضخم بيت للمال ، وقبلة للطامحين الى الثراء السهل والبذخ والترف ، فقصدها النوابغ والعباقرة والصناع والحذاق من سائر تلك الشعوب التي ورثت مدنّيات فارس والهند والصين والفراعنة والفينيقيين ، حتى اليونان والرومان ، واختلطوا في شعبها الأصيل ، وانصهروا شيئاً فشيئاً في بوتقة اجتماعية واحدة ، فكوّنوا كُتلة شعبية ذات لون خاص ، وغلب عليهم طابع الأكثرية العربي ، وسادت فيهم لغة الحاكمين العرب ، ودخل معظمهم في الإسلام . وكانت بغداد حين بناها « المنصور » منقسمة داخل أسوارها الى أربع وعشرين محلة . ثم اتسعت رقعتها بعد زمن قصير الى أضعاف ما كانت عليه ، فشملت جانبي « الرصافة » و « الكرخ » ، وتفرعت شوارعها العريضة الى فروع كثيرة ، وتناثرت قصورها الى مسافات شاسعة ، وبنى سكّانها في كل حيّ من أحيائها عدداً من المساجد على غاية

(١) تاريخ بغداد ج ١ / ص ٢٢ .

من الأناقة ودقة الهندسة وجمال الذوق ، ففرشوا بعضها بالمرمر المسنون أو الحجارة السوداء اللامعة ، وغطّوا جدرانها بالفسيفساء على صور حدائق مورقة بأزهارها وأثمارها الملونة بالألوان الطبيعية ، ونصبوا في أفنيتها الأحواض والفوّارات ، وأقاموا منائرها العالية حول القباب المزدانة بالخزف المدهون بالأخضر والأبيض والأزرق والأحمر ، فبدت لناظرها عن بُعد أشبه بغابة كثيفة من تلك المنائر ، وقد انعكست أشعة الشمس فوق أهلّتها المذهبة ، وشيدّوا قرب كل مسجد حمامات أنيقة للاستحمام والنظافة ، حتى بلغ عددها الآلاف ، وغرسوا الحدائق العامة ، وتفننوا في جلب أنواع الورْد والزهر من البلاد النائية ، وأكثروا من المُتَنَزَّهات الشعبية ، عند تقاطع الشوارع ، وحول الأحواض المائية ، وقد اشتهر منها « بِرْكَة زلزل » ، والجسور الثلاثة القائمة على نهر دجلة ، وفيها الكثير من الممرات على ضفاف الجداول والقنوات المتصلة داخل المدينة ، وقد بلغ مجموعها مئة وخمسين قنطرة . وفي ضواحيها كثير من المُتَنَزَّهات (أمثال : قُطْرَبُّل ، وطيرناباذ ، ومتنزه الكرخ) التي كان يقصدها الناس في أيام عطلهم وأعيادهم ، ويرتادها الشعراء والمُجّان وعشاق اللهو والطرب والتبذّل . وعدد كبير من الأديرة المبثوثة في المواقع الجميلة . وعُني البغداديون ببناء قصورهم ومساكنهم وتشييدها على طراز هندسي جميل ، وكل هذه القصور محاطة بحدائق غناء ، وعليها تماثيل البرنز والمرمر على شكل حيوانات وطيور يخرج من أفواهها الماء بأصوات مختلفة .

و « دار القرار » قصر « زبيدة » من أعظم قصورهم . قال كاتب في وصفه : « إنّه كان محاطاً بحديقة عظيمة ، جمع فيها جُلُّ ما في الدنيا من أنواع الطيور والوحوش والحيوانات النادرة ، وإن بهو الاستقبال ، وطوله ثمانون ذراعاً ، مفروش ببساط واحد مرصع بالأحجار الكريمة ، ويقوم سقفه على أسطوانات من الأبنوس المزيّن بالعاج والذهب ، وقد كتبت على جدرانها آيات من التنزيل الحكيم ، بخطوط ذهبية زاهية . وليس فيها مسمارٌ واحد إلا من الذهب . وقصر جعفر البرمكي في

«الشمّاسيّة» تناهى في الإبداع والبذخ. وأمعن البغداديون في التظاهر بالنعمة، وأسرفوا بالترف واللذائذ، وتفننوا فيها فزينوا بيوتهم بالألوان والأصباغ، وأثثوها بالوشي والديباج والستائر الذهبية والبسط الثمينة[1]». وابتاعوا الخيل الجياد والبغال البيض، وطهموها بالسروج المزخرفة واللجم المفضضة، وحملوا عليها في مواكبهم السلاح المحلى بالذهب والجوهر. واقتنوا العبيد والخصيان والجواري الفاتنات من مختلف الشعوب. وفي بغداد سوق لتجارة الرقيق. وعُنُوا بتحضير الأطعمة الطيبة، وسخوا في الإنفاق عليها، وتفننوا في صنع الحلوى كالفالوذج المغموس بدهن الفستق. واستعملوا أواني الذهب والفضة، وشربوا بالزجاج الملون المنقوش بأبدع التصاوير، وفي ذلك يقول أبو نواس الحسن بن هانئ:

تدار علينا الراح في عَسْجَدِيَّةٍ
حَبَتْها بأنواع التَّصاويرِ فارسُ
قَرارَتُها كِسرى، وفي جَنَباتِها
مَهاً تَدَّريها بالقِسِيِّ الفوارسُ

وكانت المنازل في الصيف تبرّد بالثلج، أو بالخَيْش المبلل بالماء وبالمراوح المرشوشة. وتعاطى الناس الشراب ألواناً، واتخذوا للشراب لباساً خاصاً، ورياحين ونُدْماناً. وكانوا يعطرون أنديتهم بالنَّدّ والبخور، ويقدمون العطر بعد الانتهاء من الأكل. وكانت ألبستهم في غاية من الإتقان، فمنها المقصّبة، ومنها الموشاة والحرير الملون. وكانت بغداد مصدراً لأزياء النساء، لوجود نساء الأمراء والخلفاء والموسرين والقادة. وكانت المُلاءة الطويلة مستعملة لستر الجسم واخفاء مفاتنه عن الأنظار وأهل الفضول. وكانت العصابات قد انتشرت، يعصب بها الرأس، ويشدّ مؤخرها حول الرقبة، وكثيراً ما كانت العصابات تكلل بالجوهر، وترصع بالأحجار الثمينة. وعرفت نساء بغداد التجميل، فزججن الحواجب، وعقصن الشعر على شكل

---

(١) انظر كتاب هارون الرشيد، لجومرد.

التاج ، أو تركنه خُصَلاً قصيرة وقذائل على الظهر . ومنهن من كنّ يقصرن شعرهن ، ويعرفن بالغلاميّات على طراز الرجال والغلمان . ولم يكن الحجاب معروفاً في بغداد الا في عهودها البويهية والسلجوقية .

وللبغداديين أفراح يقيمونها بالمناسبات . أما النيروز فلا يحتفل به الا الفُرس والكرد والأكّارون .

★

قال محمد بن سلام : سمعت أبا الوليد يقول : قال لي شعبة : أدخلت بغداد ؟ قلت : لا ، قال : فكأنك لم ترَ الدنيا .

وسأل الإمام الشافعي صاحبه يونس : « يا يونس : أدخلتَ بغداد ؟ قال : لا ، قال : يا يونس : ما رأيت الدنيا ، ولا رأيت الناس » .

وقال بعضهم : « الأرض كلها باديةٌ ، وبغداد حاضرتها » .

ونقل ياقوت الحموي في معجم البلدان ، قال :

« من عجيب ذلك ما ذكره أبو سهل بن نوبخت ، قال : أمرني « المنصور » لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ، ففعلت ، فاذا الطالع في الشمس ، وهي في القوس ، فخبرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها وفقر الناس الى ما فيها ، ثم قلت : وأخبرك خطة أخرى أسُرُّك بها يا أمير المؤمنين . قال : وما هي ؟ قلت : نجد في أدلة النجوم أنه لا يموت بها خليفة أبداً حتفَ أنفه . قال : فتبسم ، وقال : الحمد لله على ذلك ، هذا من فضل ربي ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وكان من أعجب العجب أن « المنصور » مات وهو حاجّ ، و « المهدي » مات بماسبَذان ، و « الهادي » مات بـ « عيساباذ » والرشيد مات بـ « طُوس » ، و « الأمين » قتل بالجانب الشرقي ، و « المأمون » مات بالبذندون قرب طرسوس ، والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقي الخلفاء ماتوا بسامراء ، ثم انتقل الخلفاء الى « التاج » من شرقي بغداد (يريد الرصافة) .

البَابُ الأَوَّل

بغــداد في الشعر العبـاسي

أفاضل الأدباء والشعراء في مدح بغداد وذكر محاسنها فأطنبوا ، ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا .

من ذلك قول عُمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخَطفَى الشاعر عند تحوّل الخلفاء من بغداد :

أعاينتَ في طول من الأرض والعَرْضِ
كبغـداد من دارٍ بها مسكَنُ الخَفْضِ ؟
صفا العيش في بغدادَ ، واخضرَّ عوده
وعيشُ سِواها غيرُ خَفْضٍ ولا غَضِّ
تطولُ بها الأعمار ، إنَّ غذاءها
مَرِيءٌ ، وبعضُ الأرضِ أمْرأُ من بعضِ
قضى ربُّها أن لا يموت خليفةٌ
بهـا ، إنه ما شاء في خَلْقه يَقْضي
تنامُ بها عينُ الغريب ، ولا ترى
غريباً بأرضِ الشام يطمع في الغَمْضِ
فإن جُزيت بغدادُ عنهم بقرضها
فما أسلفَتْ الا الجميـل من القَرْضِ
وإن رُميت بالهجر منهم وبالقِلى
فما أصبحت أهـلاً لهجـرٍ ولا بُغضِ

بغداد جنة الأرض :

قال أحد الفضلاء : « بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، ومجمع الوافدين ، وغرة البـلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف واللطائف ، وبها أرباب الغايات في كل فنٍ وآحاد الدهر في كل نوع » .

وقال أبو إسحاق الزجاج : « بغداد حاضرة الدنيا ، وما عداها بادية » .

وقال أبو الفرج الببغا : « هي مدينة السلام ، بل مدينة الإسلام . الخلافةُ الإسلامية بها عششت ، وفرّخت ، وضربت بعروقها ، وبسقت بفروعها ، وإن هواءها أعذى من كل هواء ، وماءها أعذب من كل ماء ، وإن نسيمها أرقّ من كل نسيم » .

وكان اذا طرأ على (ابن العميد) أحد من منتحلي العلوم والآداب ، وأراد امتحان عقله ، سأله عن بغداد . فإن فطِن بخواصها ، وتنبَّه على محاسنها ، وأثنَى عليها ، جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله .

ولما رجع الصاحب من بغداد ، سأله ابن العميد عنها ، فقال : « بغداد في البلاد ، كالأستاذ في العباد » ، فجعلها مثلاً في الغاية في الفضل :

★

ووصف المقدسي البشّاري بغداد وأهلها ، قال :

« بغداد لأهلها الخصائص والظرافة ، والقرائح واللطافة . هواء رقيق ، وعلم دقيق ، كل جيِّدٍ بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها ، وكل قلب إليها ، وكل حرب عليها . وهي أشهر من أن توصف ، وأحسن من أن تنعت ، وأعلى من أن تمدح » .

تحيا النفوس برياها :

قال في وصفها عُمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطَفَى :

ما مثلُ بـغـداد في الدنيا ولا الدينِ
على تقلُّبها في كلِّ ما حينِ
ما بين قُطرَبُّل فالكرخ نَرجسةٌ
تَنْدَى ، ومَنبِتُ خيريٍّ ونسرينِ
سَقْياً لتلك القصور الشاهقات وما
تُخفي من البقر الإنْسيّة العِينِ

تحيـا النفـوسُ بِريّاهـا إذا نَفحت
وحـرست بيـن أوراق الـريـاحيـنِ
تَسْتَـنُّ « دِجلةُ » فيما بينها فترى
دُهْمَ السَّفين تعَالى كالبـراذيـنِ
مناظر ذاتُ أبـوابٍ مفتّحـةٍ
أنيقـةٌ بـزخـاريف وتزييـن
فيها القصور التي تهـوي بأجنحـةٍ
بالزائريـن الى القـوم المـزورين
من كل حرّاقـةٍ يعلـو فَقَارتَها
قصرٌ مـن الساج عالٍ ذو أساطينِ

★

الدنيا بأجمعها بغـداد :

قال ابن زريق الكاتب :
سافرتُ أبغي « لبغداد » وساكِنها
مِثلاً ، قد اخترتُ شيئاً دُونَهُ الياسُ
هيهاتَ ! « بغدادٌ » الدنيا بأجمعها
عندي ، وسُكّانُ « بغدادٍ » همُ النّاسُ

★

بغداد منبسط الآمال :

قال بعضهم :
أبغـداد يا دار المـلوك ، ومجتنى
صنوف المُنَى يـا مستقرّ المنابـر
ويا جنّةَ الدنيا ، ويا مجتنى الغنـى
ومنبسطَ الآمـال عندَ المتاجـر

★

هي البلدة الحسناء :

وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن يصف بغداد :

سقى الله صوبَ الغاديات محلــةً
ببغداد بين الخُلْد والكرخ والجَسْرِ
هي البلدة الحسناء حُفَّت لأهلهــا
بأشياء لا يُجْـتَمعْنَ مُذْ كُنَّ في مصرِ
هواءٌ رقيــق في اعتــدالٍ وصحةٍ
وماءٌ له طعمٌ ألَذُّ مــن الخمرِ
ودجلتها شَطّانِ قد نُظما لنــا
بتاجٍ الى تاج وقصرٍ الى قصرِ
ثَراهــا كمسكٍ والمياه كفضّــةٍ
وحَصْباؤها مثل اليواقيت والدُّرِّ

★

فارق بغداد ففارق الجنة :

لعليّ بن جبلة الأنصاري ، المعروف بـ « العَكَوَّك » ، وقد ارتحل من بغـداد :

لهفي على « بغــدادَ » من بلــدة
كانت من الأســقام لي جُنَّــهْ
كأنّني ، عنَد فِراقي لهــا ،
« آدمُ » لمّــا فارَقَ « الْجَنَّـهْ »

★

لذات بغـداد :

قال أبو نواس الحسن بن هانئ الحَكَمي :

وقائلٍ : هل تُريدُ الحجّ ؟ قلت له :
نعم ؟ إذا فَنِيتْ لــذّاتُ « بغدادِ »

أمّا و« قُطْرَبُّلٌ » منها بحيثُ أرى ،

فـ « قبة الفِرك » من أكناف « كلواذِ »

فـ « الصالحيّة » فـ « الكرخ » التي جمعت

شذّاذ « بغداد » ما هُمْ لي بشذّاذِ

فكيف بالحجِّ لي ما دمتُ منغمساً

في بيت قوّادة أو بيت نبّاذِ !!

وهَبْكَ من قصف « بغداد » تخلّصني

كيف التخلُّصُ لي من « طيرنا باذِ » ؟

★

السفن والحرّاقات في بغداد :

تفنن البغداديون في صنع الحرّاقات والسفن للتنزه في دجلة ، منها على شكل الذهبيات والقباب ، ومنها على شكل العِقبان والأُسُود ، ومنها على شكل الدُّلْفين . وروي أنه أحصيت السُّمَيْرِيّات المعبرانيات بدجلة ، فكانت ثلاثين ألفاً ، لكثرة من يغدو ويروح بين الكرخ والرُّصافة من أهل المصالح .

وكان للأمين عدد من هذه السفن ، قال أبو نُواس الحسن بن هانيء الحَكَمي يصف هذه الحرّاقات :

سخّر الله للأمين مطايا

لم تُسَخَّرْ لصاحب المحرابِ

فإذا ما رِكابُه سِرْنَ برّاً

سار في الماء راكباً ليثَ غابِ

أسَداً باسطاً ذراعَيْهِ يهوي

أهرتَ الشِدْق كالِحَ الأنيابِ

لايعـاليـه باللـجـام ، ولا السـو
ط ، ولا غمـر دجلـة في الركابِ
عَجِـبَ النـاس إذْ رأوك على صَو
رة ليثٍ تَمُرُّ مَـرَّ الـسحـابِ
سَبَّحـوا إذْ رأوك سرتَ عليـه
كيف لـو أبصروك فـوق العُـقابِ؟
ذات زَوْرٍ ومنسرٍ وجَنـا حيـْ
ـنٍ تشقّ العُبـابَ بعـد العُبابِ
تسبِـق الطيـر في السّماء اذا ما اسْ
تعجَلوهـا بجَيْـئـةٍ وذَهـابَ
بـارك اللــه للأميـن وأبقـا
ه ، وأبقى له رِداء الشـبـابِ
ملك تـقـصر المـدائـح عـنـه
هـاشميٌّ مـوفَّـقٌ للصّوابِ

★

جسر بغداد :

قدم عبدالملك بن صالح بن علي العباسي الى بغداد ، فرأى كثرة الناس فيها ، فقال :

« ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة إلا ظننت أنّ الناس قد نُودي فيهم » ! ولاغرو فقد ازدحمت بغداد بسكانها ، واتسعت حتى شملت مساحة واسعة من الأرض على جانبي دجلة ، وقامت فيها حارات هي أشبه بمدن متلاصقة . وكان يربط مدينة المنصور بمدينة المهدي جسران ، تغنّى الشعراء بجمالهما ، وإنهما نزهة وسلوة لمن أضناه الوجد وهاج به الشوق .

قال علي بن الفرج الفقيه في أحد هذين الجسرين :

أيا حبّذا جَسرٌ على متنِ دجلةٍ
بإتقانِ تأسيسٍ وحسـنٍ ورونقِ

جمال وفخر للعــراق ونزهـة
وسلوة من أضناه فرط التشـوّق
تراه اذا ما جئته متأمّـــلاً
كسطرِ عبيرٍ خُطَّ في وسط مُهْرَقِ
أو العاج فيه الآبَنوُس مُرقّش
مثال فُيُولٍ تحتها أرض زِئبـقِ

★

وقال علي بن المحسن التَّنُوخيّ : أنشدني أبي لنفسه :

يومٌ سرقنا العيش فيه خلسـةً
في مجلس بفناء دجلــة مفــردِ
رَقَّ الهــواء برقّــة قُدّامَــه
فغــدوتُ رقّــاً للزمــان المسعدِ
فكأَنّ دجــلةَ طيلسانٌ أبيض
والجِسْرُ فيها كالطّراز الأســودِ

★

من دخل بغــداد :

يقول الزاهد أبو إسحاق ابراهيــم بن يوسف الفيروزآبادي : « مَنْ دخل بغداد ، وهو ذو عقل صحيح وطبع معتدلٍ ، مات بها أو بحسرتها » .

والشعراء الذين تسعّر في صدورهم الشوق اليها بعد براحها ، كثيرون . منهم : القاضي أبو محمد عبدالوهاب بن علي بن نصر المالكي ، وقد نبابه المقام ببغداد ، فرحل الى مصر ، فخرج البغداديون يودعونه ، وجعلوا يتوجعون لفراقه ، فقال : والله لو وجدت عندكم في كل يوم مُدّاً من الباقِلّى ما فارقتكم . وقال في رحلته هذه مقطوعة عَــبَّــرَ فيها عن حنينه ووجده الى بغداد ومغانيها ، قال :

سلامٌ على بغدادَ من كل منزلٍ
وحـقّ لها مني السلامُ المضاعَفُ

فو اللهِ ما فارقتها عن قِلىً لهـا
وإنّي بشَـطّيْ جانِبَيْهـا لَعارِفُ

ولكنّها ضاقت عليّ بِرُحْبِهـا
ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كَخِـلٍّ كنتُ أهوى دُنُوَّهُ
وأخلاقُه تَنْأى بـه وتخالف

وقال فيها أيضاً :

طيب الهـواء ببغـداد يشوّقني
قرباً اليها ، وإن عاقت مقاديرُ

وكيف أرحل عنها اليوم اذْ جمعت
طيبَ الهواءَيْن : ممدودٌ ومقصورُ

★

بغداد معدن كل طيب :

قال أبو بكر الخطيب البغدادي :

على « بغداد » معدِنِ كـلّ طيبِ
ومَغْنَى نزهـةِ المُتَنَزِّهينـا

سلامٌ كلّمـا جرحت بلحـظ
عيونُ المشتَهين المُشْـتهينـا !

دخلنـا كارهين لهـا ، فلمـا
ألفـناهـا خرجنـا مكرهينـا

وما حُبُّ الديـارِ بنا ، ولكنْ
أمَـرُّ العيشِ فُرقـةُ من هَـويِنـا[1]

★

أيرحل آلفٌ ؟

قُلِّدَ عبيدالله بن عبدالله بن طاهر اليمنَ ، فجزع لخروجه ، فقال :

أيَرْحَلُ آلِفٌ ، ويقيمُ إلفُ ،
وتَحْيا لوعةٌ ، ويموت قصفُ ؟
على بغدادَ دارِ اللهو منّي
سلامٌ ما سجا للعين طَرْفُ
وما فارقتُها لِقِلىً ، ولكن
تناولني من الحدثان صَرْفُ
ألا جارٌ ؟ ألا فَرَجٌ قريبٌ ؟
ألا جارٍ من الحدثان كهفُ ؟
لعلَّ زمانَنا سيعود يوماً
فيرجِعَ آلِفٌ ويُسَرَّ إلْفُ

فبلغ الوزير هذا الشعر ، فأعفاه .

★

وقال أبو سعد محمد بن علي بن خلف النيرماني (وفي تأريخ بغداد للهمذاني : نيرمان من قرى الجبل بالقرب من همذان ، فمرة ينسب الى همذان ، وتارة ينسب الى نيرمان) وبقية الأبيات مروية كلها في « فوات الوفيات » . قال متشوقاً :

خليليَّ في بغداد هل أنتما ليا
على العهد مثلي ، أم غدا العهد باليا ؟
وهل ذَرَفَت يومَ النوى مُقْلَتاكما
عليَّ كما أمسي وأُصبِحُ باكيا ؟
وهل أنا مذكورٌ بخير لديكما
اذا ما جرى ذكرٌ لمن كان نائيا ؟

فِدىً لكِ يا بغداد كلُّ مدينــة
من الأَرض حتى خُطَّتي ودِياريا
فقد طُفْتُ في شرق البلاد وغربها
وسيَّرت خيلي بَيْنَـها وركابيـا
فلم أرَ فيها مثلَ بغداد منزلاً ،
ولم أرَ فيها مثلَ دِجلةَ واديا
ولا مثلَ أهليها أرَقَّ شمائلاً ،
وأعذبَ ألفاظــاً ، وأحلى معانيا
وكم قائلٍ : لو كان ودُّكَ صادقاً
لبغداد ، لم ترحلٍ ، فقلت : جوابيا
يقيم الرجــال الموسرون بأرضهم
وتَرْمي النَّوى بالمُقْتِرين المراميا

★

لهف نفسي :

قال أبو اسحاق الصابي ، وكان يقيم في البصرة :

لَهْفَ نفسي على المُقام ببغدا
دَ ، وشربي من مــاء كُوزٍ بِثَلْجٍ
نحن بالبصرة الذّميمــة نســقى
شَرَّ سُقيــا من مائها الأُتْرُجّــي
كيف نرضى بشربهِ ، وبخيــر
منه في كنف أرضنــا نستنجي !

★

وقال آخرُ :

سقى أربُعَ « الكرخ » الغَوادي بديمة
وكلّ مُلِثٍّ دائم الهطل مُسْبِلِ

منازل فيهـا كل حسنٍ وبهجة
وتلك لهـا فضلٌ على كلِّ منزلِ

★

وقال البياضّي :

ولنا بزوراء العِراق مـواسمٌ
كانت تُقـام لطيبهـا أسـواقُ
فَلَئِنْ بكت عيني دمـاً شوقاً الى
ذاك الزمـان ، فمثلُهُ يُشتـاقُ

★

ابن الرومي يحن إلى بغداد :

بَلَدٌ صحِبت به الشبيبة والصّبا
ولبِست ثوب العِزّ وهْوَ جديدُ
وإذا تمثـلَ في الضمير رأيتُه
وعـليه أغصـانُ الشباب تميـدُ

★

يوم ببغـداد :

قال مطيع بن إياس :

ويوم ببغداد نعمنـا صبـاحـه
عـلى وجه حوراء المدامع نَطْرَبُ
ببيتٍ تـرى فيـه الزجـاج كأنّـه
نجـومُ الدّجى بينَ النّدامى تقلّبُ
يـصَـرّف ساقينا ، ويقطب تارةً
فياطيبَهـا مقطـوبـةً حين تقطبُ
علينا سحيق الزّعفران وفوقَنـا
أكاليـل فيهـا الياسميـن المُذَهَّبُ

فما زلت أسقى بين صَنْج ومِزْهرَ
من الراح حتى كادت الشمس تغربُ

★

أنست بالعراق :

وقال القاضي أبو الحسن علي بن النبيه :

آنستْ بالعِراق بدراً منيرا ،
فَطوت غَيْهَباً ، وخاضت هجيرا

واستطابت رُبا نسائم بغدا
د ، فكادت لولا البُرَى أن تَطِيرا

ذكرت من مسارح « الكرخ » روضاً
لم يزل ناضراً وماءً نميرا

واجتنت من رُبا « المحوَّلِ » نَوْراً
واجتلت من مطالع « التاج » نُورا

★

آهاً على بغداد :

ولبعض نساء بغداد :

آهاً على بغدادِها وعراقها
وظِبائها والِسرّ في أحداقها

ومجالها عند الفرات بأوجهٍ
تبدو أهلّتها على أطواقها

متبخترات ٍ في النعيم كأنما
خُلِق الهوى العُذْرِيّ من أخلاقها

نفسي الفداء لها ، فأيُّ محاسنٍ
في الدهر تشرق من سنا إشراقها !

★

محلة باب الطـاق :

كانت بغداد مقسمة الى مَحالّ ، كُلّ محلّة كأنها مدينة قائمة بنفسها بأسواقها ومساجدها ومدارسها وحماماتها وأرباضها وحدائقها . وأوسع هذه المحالّ « القُرَيّة » ، و « باب الطاق » . وفي « باب الطاق » قال القزويني صاحب كتاب آثار البلاد وأخبار العباد : « كان بها سوق الطير ، فاعتقدوا أن من تعسّر عليه شيءٌ من الأمور فاشترى طيراً من « باب الطــاق » وأرسله ، سهل عليه ذلك الأمر . وكان عبدالله بن طاهر قد طال مُقامه ببغداد ، ولم يحصل له إِذن الخليفة ، فاجتاز يوماً بباب الطاق ، فرأى قُمرية تنوح ، فأمر بشرائها وإطلاقها . فامتنع صاحبها أن يبيعَها الا بخمس مئة درهم ، فاشتراها وأطلقها ، وقال :

ناحَتْ مطوَّقةٌ بباب الطّـــاقِ
فجرت سوابِقُ دمعيَ المُهْراقِ
كانت تغرّد بالأَراك ، وربّما
كانت تغرّد في فروع السّـــاقِ
فرمى الفِراقُ بها العِراقَ ، فأصْبَحَتْ
بعد الأَراك تنوح في الأســواقِ
فُجِعت بأفراخٍ ، فأسبل دمعهــا
إن الدمــوع تبــوحُ بالمشــتاقِ
تَعِسَ الفراق وبُتَّ حبلُ وَتِينِهِ
وسقاه من سُمّ الأساوِدِ ساقِ
مـاذا أراد بقصده قُمْــرِيَّةً
لم تدرِ مـــا « بغدادُ » في الآفاق ؟
بي مثْلُ ما بكِ يا حمامةُ ، فاسألي   من فكَّ أَسْرَكَ أن يَحُلَّ وَثاقي

★

أتبكي على بغداد :

صحب إسحاق الموصلي الخليفة الواثق في سفرٍ ، فقال يتغنى متشوقاً الى بغداد :

أتبكي على بغدادَ وهي قريبــةٌ ؟
فكيف اذا ما ازددتَ منها غداً بعُدا ؟!
لَعَمْرُكَ ما فارقت بغدادَ عن قِلىً
لوآنّا وَجَدنا عن فِراقٍ لهــا بُدّا
اذا ذَكَرَتْ بغدادَ نفسي ، تقطّعتْ
من الشوق ، أو كادت تموت بها وَجْدا
كفى حزناً إن رُمتُ لم أستطع لها
وداعاً ، ولم أُحْدِث بساكنها عهــدا

★

معجز أن تُرى لبغداد مثلا :

قال علي بن الحسين الواسطي :

ألِدار السلام في الأرض شِبــهٌ ؟
مُعجز أن ترى لبغــداد مِثــلا ؟
مربع للقــلوب فيــه ربيـعٌ
متــوالٍ إذا الربيـــع تــولّى
بلدةٌ تستفـــاد فيهـــا المعـــالي
والمعـــاني شُمـوسُـــها تتجـلّى

★

أراجعـــة تـلك الليـالي :

قال القاضي أبو الحسن عبدالعزيز الجُرْجانيّ :

أراجعةٌ تلك الليــالي كعهدهــا
إلى الوصل ، أم لا يرتجى لي رجوعُها ؟

وصحبةُ أقوامٍ لَبِسْتُ لفقدهم
ثيابَ حِدادٍ يستجدُّ خَلِيعُها
اذا لاح لي من نحو « بغداد » بارق
تجافت جنوبي واستُطير هجوعُها
وإن أخلفتها الغاداتُ وعودَها
تكلَّفَ تصديق الغمام دموعُها
سقى جانِبَيْ « بغدادَ » كلُّ غمامة
يحاكي دموعَ المُسْتَهام هُموعُها
معاهد من غزلان إِنْسٍ تحالفت
لواحظها أن لا يداوى صريعُها
بها تسكن النّفس النفور ويغتدي
بآنَسَ من قلب المقيم نَزوعُها
يَحِنُّ إليها كُلُّ قلبٍ ، كأنّما
تشاد بحبّات القلوب ربوعُها
فكُلُّ ليالي عيشها زمنُ الصبا
وكُلُّ فصول الدهر فيها ربيعُها

★

سأغفر للأيام :

وقال القاضي الجرجاني أيضاً :
سقى جانبي بغداد أخلافُ مُزْنةٍ
تُحاكي دموعي صوبَها وانحدارَها
فلي فيهما قلب شجاني اشتياقُه
ومهجته حَرَّى أقلّ ادّكارَها
سأغفر للأيام كلّ عظيمة
إذا قَرَّبَتْ بعد البعاد مزارها

★

مرأى بغداد من دجلة :

ولبغداد منظر حسن لمن يراها من دجلة . تكاد أخذ بمجامع القلوب ، ولاسيما في الفصول الطيبة الهواء ، وفي ليالي القمر . وقد تغنى بمنظرها الشعراء . ومن ذلك قول السَّلاميّ ، وقد رِكبَ زورقاً في دجلة :

وميدانٍ تجول به خيُول
تقود الدّارعين ولا تُقادُ
ركبتُ به الى اللذات طِرْفاً
له جِسمٌ وليس له فؤادُ
جرى فحسِبت أن الأرضَ وَجْهٌ
ودجلةُ ناظرٌ وَهْوَ السَّوادُ

★

دجلة والقمر :

وقال القاضي التَّنُوخي ، يصف دجلة والقمر يلمع عليها :

أحِسنْ بدجلَة َوالدُّجى مُتصَوِبُ
والبدرُ في أُفُق السَّماء مُغَرِّبُ
فكأنّها فيه بِساطٌ أزرقٌ
وكأنّه فيها طِرازٌ مُذْهَبُ

★

وقال منصور :

كم ليلةٍ سامرتُ فيها بدرَها
من فوق دجلة قَبل أنْ يتغيَّبا
والبدرُ يَجْنَحُ للأُفول كأنّه
قد سَلّ فوق الماءِ سيفاً مُذْهَبا

★

في ذم بغداد :

وجرى ذمها على لسان جماعة من أهل الوَرَع والصلاح ، ولاسيما الزهاد والنسّاك . وما حملهم على ذلك الا ما عاينوه فيها من الترف واللهو ، واندفاع مترفيها وراء اللذة ،وانغماس شبابها في المجون واللهو ، وعزوفهم عن الذكر والقرآن ، وتهاونهم بأوامر الدين ، كما شاع ذمّها على لسان المفاليك والمعسرين من الشعراء . ومن ذلك قول بعض الصالحين :

قل لمن أظهر التنسك في النا
س ، وأمسى يُعَدُّ في الزُهّادِ :
إلزَمِ الثَّغْرَ والتواضع فيه
ليس « بغدادُ » منزلَ العُبّادِ !
إنّ « بغدادَ » للملوك محلٌّ
ومُناخٌ للفارس الصَّيّادِ

★

وللمفاليس دار الضنك والضيق :

ومن شائع الشعر في ذلك قول أحد القاضي أبي محمد عبد الوهاب المالكي :

بغدادُ دارٌ لأهل المال طيبةٌ
والمفاليس دارُ الضَّنْكِ والضّيقِ
أصبحتُ فيها مُضاعاً بين أَظْهُرِهم
كأنّني مُصْحَفٌ في بيتِ زِنْدِيقِ

★

بلدة تمطر الغبار :

قال مطيع بن إياس :

زادَ هذا الزمان شَرّاً وعسراً
عندَنا اذْ أَحَلَّنا بغداذا

بلــدةٌ تمُـطِـر الغُــبــار عــلى النّــا
س كـمـا تمطــر السّمـاء الرّذاذا
خربت عاجــلاً كما خَرب اللّـــ
ـهُ بأعـمالِ أهـِـلـهـا « كلواذى »

★

أعرابي يفضل سكنى الحَزْن على « كرخ بغـداد » :

لَرَوْضَــةٌ من رياض الحَــزْن أو طَرَفٌ
من « القريـة » جَـرْدٌ غيــرُ محــروثِ
أشهى وأحــلى لعيني إن مررت به
مِـــن كـرخ بغداد ذي الرمان والتُّوثِ

★

وكتب عبد الله بن المعتز الى صديق له يمدح سامراء ويصف خرابها ، ويذم بغـــداد :

«كتبت من بلدة قد أنهض الله سكانها ، وأقعد حيطانها ، فشاهدُ اليأس فيها ينطِق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأنّ عمرانها يُطوَى ، وخرابها ينشر . وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقُّ جِوار ، فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير الى ذمّ الدنيا . على أنها وإن جُـفيتْ معشوقَــة السكنى ، رَجيـيَّـةُ المثوى . كوكبها يقظان ، وجوهرها عُـرْيان ، وحصباؤها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها أذفر ، ويومها غَداة ، وليلهـــا سَحَر ، وطعامها هنيٌ ، وشرابها مريٌ . لا كبلدتكم (يريد بغداد) الوسخة السماء ، الومدة الماء والهواء ، جوّها غُـبـار ، وأرضها خَبَار ، وماؤها طين ، وتُرابها سرجين ، وحيطانها نزوز ، وتشرينها تموز . فكم من شمسها من محترِق ، وفي ظلّها من عَـرِق . ضَـيقة الديار ، وسيئة الجوار . أهلهــا ذئاب ، وكلامهم سِباب ، وسائلهم محروم ، ومالُهم مكتــوم ، ولا يجوز إنفاقه ،

ولا يُحَلّ خِناقه . حُشوشهم مسابل ، وطرقهم مزابل ، وحيطانهم أخصاص ، وبيوتهم أقفاص ، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُوَل ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم » .

★

و قال من قصيدة :

كيف نومي وقد حللتُ ببغدا
دَ مقيماً في أرضها لاأريمُ ؟
ببلادٍ فيها الركايا عليهـ
ـنّ أكاليلُ من بعوضٍ تحومُ
جوّها في الشتاء والصيف دُخا
ن كثيف ، وماؤها يحمومُ
وَيْحَ دارِ الملكِ التي تنفحُ المسـ
ـك إذا ما جرى عليه النسيم
كيف قد أقفرت وحاربَها الدهـ
ـر ، وعينُ الحياة فيها البومُ
نحن كنّا سكانها فانقضى ذا
لك عنّا ، وأيُّ شيءٍ يدومُ ؟

★

كعنّين تعانقه عجوز :

وقال

أطال الهمّ في بغداد ليلي
وقد يشقى المسافر أو يفوزُ
ظللت بها على رغمي مقيماً
كعِنّينٍ تعانِقُهُ عجوزُ !

★

تعلمت نسج التكك :

وقال أيضاً ، وقد كان مسجوناً في محبسها الكبير ، وقد تعلّمَ حياكة

التكك ، وكانت هذه الحياكة وتطريزها يضرب بها المثل في سجون بغداد ، وكذلك كانت الى عهود قريبة :

تعلمت في بغداد نسج التكك
وكنت امرءاً قبل حبسي ملك
وقيدت بعد ركوب الجيا
د ، وماذاك الا بدور الفلك

★

ودّ أهل الزوراء زُور :

قال محمد بن أحمد بن شميعة البغدادي :

وُدُّ أهل الزوراء زورٌ ، فلا تغـ
ـترز بالوداد من ساكنيها
هي دار السّلام حسْبُ ، فلا يطـ
ـمع منها إلا بما قيل فيها

يلمز أهلها بالبخل ، وأنهم يكتفون من ترحاب أصدقائهم بالسلام .

★

ميدانها :

قال أحد الشعراء :

هل الله من « بغداد » ياصاح مُخرِجي
فأصبح لاتبدو لعيني قصورُها
وميدانُها المُذْري علينا ترابَها
إذا شحجت أبغالُها وحميرُها

وقال آخر :

أذمّ « بغداد » والمُقامَ بها
من بعدما خِبْرةٍ وتجريب
ما عندَ سكّانها لمختبط
خيرٌ ، ولا فرجةٌ لمكروبِ

يحتاج باغي المُقام بينهـــــمُ
الى ثلاثٍ من بعـدِ تشريبِ
كنـوزِ قارونَ أن تـكـون لـه ،
وعمـرِ نوحٍ ، وصبـرِ أيّـوبِ
قـومٌ مـواعيـدهـم مزخـرفـة
بـزخـرف القـــول والأكـاذيبِ
خـلّـوا سبيل العـلى لغيـرهـمُ
ونافسوا في الفُســوق والحُــوبِ

★

شُـهْـب البطـون :

بات أعرابيٌّ في بغداد ، فهاجت عليه براغيثها ، فقال شاكياً :
لقد طال في « بغداد » ليلي ، ومن يَـبِـتْ
ببغداد يُـصْـبِـحْ ليلَـهُ غيرَ راقـدِ
بِـلادٌ إذا وَلّى النَّـهارُ تنافرت
براغيثُـها من بين مَثْنىً وواحـدِ
دَيازجةٌ شُـهْـبُ البـطـون ، كأنّـها
بِـغالُ بـريـدٍ أرسلت في مَـذاودِ

★

كفـى حـزنـاً :

وقال أحد الشعراء ، وقد ضاقت عليه مسالك الرزق في بغـداد :
كـفـى حَـزَنـاً ، والحمدُ لله ، أنـنـي
ببغـدادَ قـد أعْـيَـتْ علَيّ مذاهبي
أصاحب قومـاً لا ألَـذُّ صِحابهـم
وآلفُ قـومـاً لست فيهـم براغبِ

ولم أثْوِ في بغداد حُبّاً لأهلها
ولا أنا فيها مستفاداً لطالبِ
سأرْحَلُ عنها قالياً لِسَراتها
وأتركُها تَرْكَ المَلُولِ المجانبِ

★

سقياً لبغداد :

وهذا شاعر يمدح بغداد ، ويذم أهلها :

سَقْياً لبغداد ورعياً لها
ولا سقى صَوْبُ الحَيا أهلَها
ياعجباً من سَفَلِ مِثْلِهِمْ !
كيفَ أبيحوا جَنّةً مثلها ؟ !

★

بغداد حين تمطر تَنْدَى :

وقال أعرابي من الريف ، وقد استوبأ مُناخها :

أرى الريف يدنو كل يوم وليلة
وأزْدادُ من « نجدٍ » وساكنه بُعْدا
ألا إن بغداداً بلاد بغيضة
إليّ وإنْ أمست معيشتها رَغْدا
بلادٌ ترى الأرواحَ فيها مريضةً
وتزداد نَتْناً حين تمطر أو تندى

★

بغداد دار بليّة :

وقال أعرابى أقام بها ، :

ألا يا غرابَ البَيْنِ ! ما لك ثاوياً
ببغداد لا تمضي ، وأنت صحيحُ ؟

ألا إنّما بغداد دارُ بَلِيّةٍ
هل اللهُ من سجن البلاد مُريحُ ؟

★

بغداد تصلح للموسر :

قال أبو يعلى بن الهبّاريّه : أنشدني معدان التغلبيّ :

بغدادُ دارٌ ، طيبُها آخذٌ
نسيمها منّي بأنفاسي
تصلح للمُوسِرِ ، لا لِامْرِئٍ
يبيت في فقرٍ وإفلاس
لو حلّها قارونُ ربُّ الغنى
أصبح ذا همٍّ ووَسْواسِ
هي الّتي تُوعَدُ ، لكنّها
عاجلة للطّاعم الكاسي
حُورٌ ووِلدانٌ ومن كل ما
تطلُبُهُ فيها سوى النّاسِ[1]

★

ليلك يا بغداد :

قال طاهر بن الحسين الخُزاعي بالولاء :

زعم النّاس أن ليلك يا بغـ
ـدادُ ! ليلٌ يطيب فيه النّسيمُ

---

(١) أي الجنة ، لكنها من غير ناس .

وَلَعَمْرِي ! ما ذاكَ إلّا لأن خا
لَفَهَا بالنَّهارِ منك السَّمُومُ
وقليل الرّخاء يَتبع الشدّ
ة عند الأنام خَطْبٌ عظيمُ

★

سأل المعتصم أبا العيناء عن بغداد ، وكان سيّء الرأي فيها ، فقال : هي ، يا أمير المؤمنين ! كما وصفها عمارة بن عقيل :

ما أنت يابغدادُ ، إلّا سَلْحُ اذا اعتراكِ مطرٌ أو نفحُ
وإن جففتِ فتُرابٌ بَرْحُ

★

وحيد المغنية :

واشتهرت في بغداد مغنية بارعة الصوت جميلة الصورة، اسمها « وَحِيد »، وكانت تعدُّ من مفاخر بغداد وزينتها . هام بصوتها الناس ،وأعجبت عاشقيها أيّ إعجاب ، وفتنت ابن الرومي فخلّدها بهذه القصيدة النفيسة :

ياخليليّ ! تَيَّمَتْنِي « وَحِيدُ ».
ففؤادي بها مُعَنّىً عميدُ
غادةٌ زانها من الغصن قَدٌّ
ومن الظّبْي مُقلتانِ وجِيدُ
وزهاها من فَرْعها ومن الخَدّ —
— يْنِ ذاك السوادُ والتّوريدُ
فهي بردٌ بخدّها وسلامٌ
وهي للعاشقين جهد جهيدُ

مالمِـا نصطليه مـن وَجْنَتَيْـهـا
غيـرَ تَـرْشافِ ريقهـا تبـريـدُ
مثل ذاك الرُّضاب أطفأ ذاك الـ . . .
ـوَجْـدَ لـولا الإبـاءُ والتصريـدُ
وغـريـرٍ بحسنها ، قال : صِفْـها .
قلتُ : أمرانِ بيّـنٌ وشديـدُ
يسهـل القـول إنهـا أحسن الأشْـ
ـيـاءِ طُـرّاً، ويصعُبُ التحديدُ
تتـجلّـى للنـاظـرين إليهـــا
فشقيٌّ بحسنهـا وسعيـدُ
ظبـيةٌ تسكُـنُ القلـوب وترعـا
هـا ، وقمريّـة لهـا تغـريدُ
تتغنى كأنـهـا لا تُـغـنّـي
من سكون الأوصالِ وَهْيَ تُجيدُ
لا تـراهـا ـ هنـاك تَجْحَظُ عيْـنٌ
لكَ منهـا ، ولا يَـدِرُّ وَريـدُ
مـن هـدوءٍ وليس فيـه انقطاع
وسُجُوٍّ وما بـه تـبـلـيـدُ
مَـدَّ في شأوِ صوتهـا نَفَسٌ كا
فٍ كأنفـاسِ عاشقيهـا مـديـدُ
وأرَقَّ الـدّلالُ والغُـنْجُ منـه
وبـراهُ الشّجـا فـكاد يَـبـيـدُ
فتـراهُ يمـوت طـوراً ويـحيـا
مُسْتَلَـذٌّ بسيطُـهُ والنّشيـدُ

فيه وَشْيٌ ، وفيه حَلْيٌ من النَّغـ
ـم مصوغٌ يختال فيه القصيدُ
طاب فُوها وما ترجّعُ فيه
كلّ شيءٍ بها بذاك شهيدُ
نَغَبٌ ينقعُ الصَّدَى ، وغناءٌ
عندَه يوجد السُّرورُ الفقيدُ
فَلَها الدَّهْرَ لائمٌ مستزيدٌ
ولها الدَّهْرَ سامِعٌ مُستعيدُ
في هوى مثلِها يَخِفُّ حليمٌ
راجِحٌ حِلمهُ ، ويَغْوَى رشيدُ
ما تعاطي القلوب إلا أصابت
بهواها منهنَّ حيثُ تُريدُ
وَتَرُ العزفِ في يديها مُضاه
وَتَرَ الزحف فيه سهم شديدُ
عيبُها أنّها اذا غنَّت الأحـ
رارَ ظلُّوا وهم لديها عبيدُ
واستزادت قلوبَهم من هواها
برُقاها وما لديهم مَزِيدُ

★ ★ ★

مغاني بغداد

منْ معالم بغداد ومُتَنَزَّهاتها : « قصر وضّاح » ، و « بركةُ زَلزَل »
التي يقول فيها أحد الشعراء :

لو أنّ زهيراً وامْرأ القيس أبصرا
ملاحة ما تحويه « بركة زلزلِ »
لما وصفا سلمى ولا أمَّ جندب
ولا أكثرا ذكر الدَّخُول وحَوْملِ

والمُتَنَزَّه في باب الكرخ . وبركة زازل ببغداد تقع بين الكرخ والصَّراة وباب المحوّل وسويقة أبي الورد . حفرها زازل ، ووقفها على الناس ، فنسبت اليه . وزازل هذا كان يضرب به المثل بحسن ضربه على العود . ضرب للمهديّ والهادي والرشيد ، حتى عرف بزازل الضارب .

قال « علي بن الجهم » يصف قيان « المفضل » بباب الكرخ :

نزلنا بباب الكرخِ أفضل منزلِ
على محسنات من قيانِ « المُفَضَّلِ »
فلابنِ سُرَيْجٍ والغَريضِ ومَعْبَدٍ
ودائعُ في آذاننا لم تبدَّلِ
أوانس ما فيهنَّ للضّيف حشمةٌ
ولا رَبُّهُنَّ بالمَهيب المُبَجَّلِ
يُسَرُّ إذا ما الضيف قلَّ حياؤهُ
ويَغْفُل عنه وهو غير مُغَفَّلِ
ويُكثِرُ من ذمّ الوقار وأهله
اذا الضيف لم يأنسْ ولم يتَبذّلِ

ولا يـدفعُ الأَيدي السفيهة غَيْـرَةٌ
إذا نال حظّـاً من لَـبُوسٍ ومأكلِ
ويُطرق إطراقَ الشُّجاع مهـابةً
ليطـلَقَ طرفَ النّاظر المتأمّـلِ[1]
فَأعْمِـلْ يداً في بيتهِ وتبذّلَـنْ
وإيّـاكَ والمولى ، وما شئتَ فافعلِ
أشِرْ بيدٍ ، واغْـمِـزْ بطَـرْف ، ولا تخف
رقيبـاً اذا ما كنت غيـرَ مُـبَـتَخّـلِ
وأعرضْ عن المصباح والنّهَجْ بذمّه
فإنْ خمدَ المصباح فادْنُ وقبّـلِ
وسَلْ غيرَ ممنوع ، وقُلْ غير مُسْكَتِ
ونَمْ غيرَ مذعُورٍ ، وقم غيرَ مُعْجَلِ
لك البيت ما دامت هداياك جمّةً
ودمتَ مليّـاً بالشراب المُعَسَّـلِ
تُصان لك الأبصار من كلّ منظرٍ
ويُصْغَـى إليك بالحديث المفصَّلِ
فبادرْ بأيّـام الشباب ، فـإنّـهـا
تفـوت وتـفـنى ، والغَـواية تنجلي
ودَعْ عنك قولَ النّاس : أتلف مالَهُ
فُلانٌ ، فأحسنْ مدبراً غيرَ مُقْبِلِ
هل العيش إلّا ليلةٌ طرحت بنـا
أواخرهـا في يـوم لهوٍ مُـعَـجَّلِ

---

(١) الشجاع : ذكر الأفعى .

سقى الله « باب الكرخ » من مُتَنَزَّهٍ
الى « قصر وَضّاح » « فبركة زلزلِ »
مساحب أذيال القيان ، ومسرح الـ
حسانِ ، ومأوى كلّ خِرْقٍ مُعذّلِ
منازلُ لا يستتبع الغيث أهلها
ولا أوجه اللذات عنها بمَعْزِلِ
منازل ، لو أن امْرَأَ القيس حلّها
لأقصر عن ذِكر « الدَّخُولِ وحَوْملِ »
إذَنْ لرآني أمنَحُ الوُدّ شادناً
مُشَمِّرَ أذيال القبا غير مرسلِ
اذا الليل أدنى مضجعي منه لم يقل :
« عقرتَ بعيري يا امْرَأَ القيس فانزِلِ »!

★

عيون المها أو القصيدة الرصافية :

ولعلي بن الجهم القصيدة الرُّصافية (١) التي فتن الأدباء بمطلعها وبنسج القصص حولها :

---

(١) عدد ابياتها ثلاثة واربعون بيتاً على وفق ترتيب الأستاذ خليل مردم ، وقد شرح ديوان ابن الجهم وطبعه وقدم له . جمعها من مصادر شتى . ووردت متفرقة في كتب الأدب . ومن أهم مصادرها : حماسة ابن الشجري ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، وعيون التواريخ لابن شاكر ، والكشكول للبهاء العاملي الذي اورد منها ٢٤ بيتاً . ومن الطف ما نسج حولها من القصص ما حكاه ابن الجوزي في كتاب الأذكياء ، قال : قعد رجل على جسر بغداد ، فأقبلت امرأة بارعة الجمال من جهة الرُّصافة الى الجانب الغربي ، فاستقبلها شابٌّ ، فقال لها : رحم الله عليَّ بن الجهم ، فقالت : رحم الله ابا العلا المَعَرّي . وما وقفا بل سارا . قال الرجل فتبعت المرأة ، فقلت لها : واللهِ الا ما قلتِ ماأراد بابن الجهم ، فضحكت وقالت : اراد به :
=

عيـون المـهـا بين الرُّصافـة والجَسْر
جَـلَـبْنَ الهوى من حيثُ أَدري ولاأَدري
أعَدْنَ لِيَ الشوقَ القديمَ ، ولم أكن
سلوتُ ، ولكنْ زِدْنَ جَـمْراً على جَمْر
سَلِمْنَ وأسْلَمن القلوبَ ، كأنّما
تُشَكُّ بأطرافِ المُثقَّفةِ السُّمْرِ
وُقلْنَ لنا : نحنُ الأهِلّةُ ، إنّما
تضيءُ لمن يسري بلَيْلٍ ولا تغري
فلا بذلَ الا ما تَزوّدَ ناظـرٌ
ولا وصلَ الا بالخيال الّذي يسري
أَزَحْنَ رَسِيس القلب عن مُسْتَقَرِّه
وألْهَبْنَ ما بين الجوانِحِ والصدرِ
فلَوْ قبلَ أن يبدو المشيب بدأنني
بيأسٍ مُبينٍ أو جنحن الى الغدرِ
ولكنّه أودى الشبابُ ، وإنّما
تصاد المها بين الشبيبة والوَفْرِ
أَمَا ومشيبٍ راعَهُنّ لربّما
غمزن بناناً بين سَحْرٍ الى نَحْرِ
وبتنا على رغم الوشاة كأنّنا
خايطانِ من ماء الغَمامة والخمر

= عيونُ المها بين الرُصافة والجِسْر
جلبن الهوى من حيثُ ادري ولا ادري
واردت أنا بأبي العلاء قولَهُ :
فيا دارَها بالخَيْف إنّ مَزارَها
قريب ، ولكن دونَ ذلك اهوالُ

فإن حُلْنَ أو أنكرْنَ عهداً عَهِدْتَه
فغيرُ بديعٍ للغواني ولا نُكْرِ
خليلي ! ما أحلى الهوى وأمَرَّهُ !
وأعْلَمَني بالحُلْوِ منه وبالْمُرِّ !
كفى بالهوى شُغْلاً ، وبالشيب زاجراً
لو انَّ الهوى ممّا يُنَهْنَهُ بالزَّجْرِ
بِما بينَنا من حُرمةٍ ، هل رأيتما
أرَقَّ من الشكوى وأقسى من الهجرِ ؟
وأفصَحَ من عين المحبِّ لسِرِّه
ولا سيّما إن أطلقت عبرة تجري؟
وما أنْسَ مِلأشياءِ (١) لاأنْسَ قولَها
لجارتِها : ما أولعَ الحُبَّ بالحُرِّ!
فقالت لها الأخرى : فما لصديقنا
مُعَنًّى ؟ وهل في قتله لكِ من عُذْرِ ؟
صِليهِ ، لعلَّ الوصلَ يُحييهِ ، واعلمي
بأنَّ أسير الحُبِّ في أعظم الأسْرِ
فقالت : أذودُ النّاسَ عنه ، وقلَّما
يطيبُ الهوى إلّا لمنهتك السِتْرِ
وأيقنتا أنْ قد سمِعت ، فقالتا :
مَنِ الطارقُ المُصْغِي إلينا وما ندري ؟
فقلت : فتىً إن شِئْتُما كَتَمَ الهوى
وإلّا فَخَلّاعُ الأعِنَّةِ والعُذْرِ

(١) مِلأشياء : من الأشياء ، لغة لاحدى القبائل .

على أنه يشكو ظلوماً وَبُخْلَهـا
عليه بتسليم البشاشة والبِشْرِ
فقالتْ : هُجِينا ، قلت : قد كان بعضُ ما
ذكرتِ ، لعلَّ الشرَّ يُدْفَعُ بالشَّرِّ
فقالت : كأني بالقوافي سوائراً
يَرِدْنَ بنا مصراً ، ويُصْدِرْنَ عن مِصرِ
فقلت: أسأتِ الظَنَّ بي ، لست شاعراً
وإن كان أحياناً يجيش به صدري!
فما كُلُّ من قادَ الجيادَ يَسُوسُهَا
ولا كلُّ مَنْ أجْرى يقال له : مُجِْري
صِلي واسألي مَنْ شئتِ يُخْبِرْكِ أنَّني
على كلِّ حالٍ نِعْمَ مُسْتَوَدَعُ السِّرِّ
وما أنا ممن سار بالشّعر ذِكرُهُ
ولكنَّ أشعاري يُسَيِّرُها ذكري
وللشعر أتباع كثيرٌ ، ولم أكن
له تابعاً في حالِ عسرٍ ولا يُسْرِ
وما الشِّعرُ مما أستظلُّ بظلِّهِ
ولا زادني قدراً ولا حطَّ من قدري

وبقية القصيدة ثلاثة عشر بيتاً في مدح الخليفة .

★

دِيمة رَوَّتْ بغداد :

وله أيضاً في وصف ديمة روّت بغداد ، منها :

فلما رأت حُرَّ الثّرى متعقّداً
بما زلَّ منها والرُّبا تستزيدها

وأن أقاليم العراق فقيرة
اليها ، أقامت بالعراق تجودها !
فما بَرِحَت بغداد حتّى تفجَّرَت
بأوديةٍ ما تستفيقُ مُدودُها
وحتّى رأينا الطيرَ في جَنَباتها
تكاد أكُفُّ الغانيات تَصيدُها
وحتى اكتست من كلّ نَوْرٍ كأنّها
عروسٌ زهاها وَشْيُها وبُرودُها
ودجلَةُ كالدّرعِ المضاعف نسجُها
لها حَلَقٌ يبدو ويخفى حديدُها
فلمّا قضت حقّ العراق وأهله
أتاها من الريح الشمال بريدها

★

وقال أحد الشعراء في ريم ابن رامين :
هل من شفاءٍ لقلبٍ لجّ محزونِ
صَبّ يميل الى ريمِ ابنِ رامينِ ؟
يارَبّ ، إنّ ابنَ رامينٍ ، له بقرٌ
عينٌ ، وليس لنا غيرُ البراذينِ !

★

بغداد في عينية ابن زريق البغدادي

اشتهر ابن زريق الكاتب البغدادي بقصيدته العينية (لاتعذليه) ، وهي من الشهرة والتداول ما يجعلنا نكتفي بقسم منها . والقصيدة كاملة منشورة في مواضع عديدة ، منها الكشكول [1] :

(1) ١/١١٨ ـ ١٢٠ بتحقيق طاهر احمد الزاوي .

أستودع الله في « بغداد » لي قمـراً
بالكرخ من فلك الأزرار مطلعُـهُ

وَدَّعْـتهُ وبـودّي لـو يـوَدِّعُني
صَفْـوُ الحيـاة وأنيّ لا أودِّعُـهُ

وكـم تشفع بي خوفَ الفراق ضحًى
وأدمعـي مُستهلّاتٌ وأَدمعُـهُ

لاأكذب الله ، ثوبُ الصبر مُنخرِقٌ
عنيَّ بفرقته ، لكـنْ أُرقّعُـهُ

إني أوسّع عـذري في جنايتـه
بالبين عنّي ، وجرمي لايوسّعُـهُ

رزقتُ مُلـكاً فلم أحسن سياسته
وكلُّ من لايسوسُ الملك يُخلَعُهُ

ومن غدا لابساً ثوب النعيم بـلا
شكرٍ عليه ، فإنَّ اللّهَ ينزَعُـهُ

كم قائـل لي : ذقت البين ، قلت له :
الذنبُ واللهِ ذنبي لست أدفعُـهُ

الا أقمتَ فكان الرشد أجمعـه
لو أنني يومَ بانَ الرُّشْدُ أتْبَعُهُ

★ ★ ★

أشهر قصور بغداد التأريخية

القصور الشهيرة التي شيدت في « بغداد » أيام عصرها الذهبي كثيرة لاحصر لها ، وقد ذهب أثرها ، وانطمس بنيانها ، ولم يبق لها ذكر إلاّ في أسفار التواريخ وكتب البلدان ، نذكر منها :

قصر الخُلْد :

بناه المنصور في الجانب الغربي بعدَ فراغه من تخطيط مدينته واقامة سورها . شاده على شاطئ دجله الأيمن ، وبُنيت حواليه المنازل للقادة والوزراء وللبيت العباسي ، فصارت محلة واسعة عرفت بالخُلدْ ، نسبة الى القصر المسمى بالخلد — وموقعه مرتفع يشرف على نهر دجلة ، وتكتنفه بساتين وغياض ، لذلك كان عَذْباً طيب الهواء ، يشرح الصدر ، ويَسُرّ النظر .

مَرَّ بالخلد علي بن أبي هاشم الكوفي ، فنظر اليه ، فقال :

بَنَوا وقالوا : لا نمو
تُ ، وللخراب بَنى المُبَنّي
ما عاقل فيما رأيْ
تُ إلى الخراب بمطمئّنِ

وأمر المنصور المهندسين أن يمدوا الى مدينته قناتين : قناةً من « نهر دجلة» الآخِذ من دجلة ، وقناة من نهر الكرخ الآخذ من الفُرات ، وجرهما الى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالآجر والصاروج من أعلاها . وكان كل من القناتين المذكورتين تدخل مدينة بغداد وتنفذ في الشوارع والأَرباض ، وتجري صيفاً وشتاءً ، لاينقطع ماؤها في وقت من الأوقات .

وذكر الحارث بن أبي أسامة : أن المنصور فرغ من بناء الرُّصافة سنة أربع وخمسين ومئة .

وذكر محمد بن موسى المنجم : أن المعتصم وابنَ أبي دُوَاد اختلفا في

مدينة أبي جعفر المنصور والرصافة أيهما أعلى ، فوزنتُهما ، فوجدت المدينة أعلى من الرصافة بذراعين ونحوٍ من ثلثي ذراع .

وجعل المنصور المسجد الجامع في المدينة ملاصقاً لقصره المعروف بقصر الذهب.

★

قصر القـواريـر :

هو قصر (زبيدة بنت جعفر) ، وقد كان محاطاً بحديقة عظيمة ، جمع فيه جُـلّ ما في الدنيا من أنواع الطيور والوحوش والحيوانات النادرة . طول بهو الاستقبال فيه ثمانون ذراعاً مفروشة ببساط واحد رصع بالأحجار الكريمة ، ويقوم سقفها على أسطوانات من الأبنوس المزيّن بالعاج والذهب ، وقد كتبت على جدرانه آيات من التنزيل الحكيم بخطوط ذهبية زاهية ، وليس فيه مسمار واحد إلاّ من الذهب.

★

قصر التـاج :

قصر التاج : اسم لدار مشهورة من دور الخلافة ببغداد . كان أول من وضع أساسه وسمّاه بهذا الاسم « المعتضد بالله » ، ولم يتم في أيامه ، فأتمه ابنه « المكتفي بالله » بما نقضه من القصر المعروف بالكامل ومن القصر الأبيض المعروف بالكِسْرَوِي . وكان مبنياً على خمسة عقود ، كل عقد على عشر أساطين ، وكل أسطوانة خمس أذرع . ووقعت عليه أيّام « المقتفي » سنة تسع وأربعين وخمس مئه صاعقة ، فتأججت فيه وفي الدار التي كانت القبة أحدى مرافقها ، وبقيت النار تعمل فيه تسعة أيام ، وقد صَيَّرَتْهُ كالفحمة ، ثم أطفئت . وكانت آية عظيمة . ثم أعاد « المقتفي » بناء القبة على الصورة الأولى دُونَ الأساطين ، وبقي كذلك الى سنة أربع وسبعين وخمس مئة ، فتقدم الخليفة « المستضيء » بنقضه وإبراز المُسَنّاة ، ووضع البناء على خطّ مستقيم من مُسَنّاة « التاج » ، ووضع موضع الصحن الذي تجلس فيه الأئمة للمبايعة[1] ولعلّ هذا القصر هو القائم الى الآن في الجهة الشرقية بوزارة الدفاع .

---

(١) تلخيص من معجم البلدان ، ومن كتاب أخبار بغداد للعلامة محمود شكري الالوسي .

القصر الجعفري :

قصر بناه جعفر بن يحيى البرمكي في « الشمّاسية » ، وأنفق عليه مالاً كثيراً تجاوز العشرين مليون درهم ، جلب اليه أمهر البنائين وأبرع المهندسين ، وحمل اليه كل غريب وعجيب من أثاث وغراس وأشجار. فلما قارب فراغه ، سار اليه أصحابه ، ومنهم مؤنس عمران وكان عاقلا ، فطافوا بالقصر ، وقال كل من حضر في وصفه ومدحه ما أمكنه وتهيّأ له ، ومؤنس ساكت ، فقال له جعفر : مالك ساكتاً لاتتكلم ؟ فقال : حَسْبي ما قالوا. ففهم أنه يكتم أمراً ، فقال : أقسمت عليك لتقولَنّ . فقال : اذا أبيت إلا أن أقول فيصير عليّ الحق ، قال : نعم . فقال : أسألك بالله إن مررت الساعةَ بدار بعض أصحابك ، وهي خير من دارك هذه ، ماكنت صانعاً ؟ قال : حسبُك ، فهِمْتُ ، فما الرأي ؟ قال : إذا صرت الى أمير المؤمنين ، وسألك عن تأخرك ، فقل : سرت الى القصر الذي بنيته لمولاي « المأمون » ! فأقام جعفر في القصر بقية ذلك اليوم ، ثم دخل على « الرشيد » ، فقال له : من أين أقبلتَ ؟ وما الذي أخّرك الى الآن ؟ قال : كنت في القصر الذي بنيته لمولاي « المأمون » في الجانب الشرقي على « دجلة » . فقال له الرشيد : وللمأمون بنيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وقد كتبت الى النواحي باتخاذ فرش لهذا الموضع ، وقد بقي شيءٌ لم يتهيأ اتّخاذه ، وقد عولنا على خزائن أمير المؤمنين إمّا عاريةً وإمّا هبة. قال : بل هبة، وأسفر اليه بوجهه ، ووقع منه بموقع حسن ، وقال : أبى اللهُ أن يقال عنك إلا ما هو لك ، أو يطعن عليك إلا برفعك ، ووالله لاسكنَنّهُ أحدٌ سواك ، ولا ألَمّ ما يُعْوِزُهُ من الفرش إلا خزائننا . وزال من نفس « الرشيد » ماكان ضامره ، وظفر بالقصر بطمأنينة . فلم يزل جعفر يتردّد اليه أيّامَ فرحه ومُتَنَزّهاته ، الى أن أوقع الرشيد بالبرامكة .

ثم انتقل الى « المأمون » ، فكان من أحب المواضع اليه ، وأشهاها لديه ، وأقطع جملة من البرية اتخذها ميداناً لسباق الخيل واللعب بالصّوالجة ، وحيرَ

الوحوش (حديقة للحيوانات المختلفة) ، وأجرى فيه نهراً أجراه من « نهر المُعَلّى »، وابتنى قريباً منه منازل للخاصة ، وعرفت هذه المحلة بـ « المأمونية » .

وعند عودته من « خراسان » بعد مقتل « الأمين » نزل في القصر المذكور ، وكان يعرف « بالقصر المأموني » . ثم بعد زواجه ببوران بنت الحسن بن سهل وهبه لبوران ، ثم للحسن أبيها ، وغلب عليه اسم الحسن . وكان يقال له « القصر الحسني » ، وبقي لابنته الى أيام « المعتمد على الله » ، فاستنزلها « المعتمد » عنه ، فأخذت في إصلاحه وتجديدة ورمّه ، وفرشته بالفرش المذهبة ، والنمارق المقصبة ، وزخرفت أبوابه بالستور ، وملأت خزائنه بأنواع الطرف مما يحسُنُ موقعه عند الخلفاء . ثم استولى عليه « المعتضد بالله » ، فزاد فيه ، واتخذ له سُوراً ، وابتنى على نحو ميلين « قصر الثريا » ،وابتنى تحت القصر آزاجاً من القصر الى « الثريا » تمشي جواريه فيها وحرمه وسَراريه ، وبقي عامراً الى الغرق الأول الذي صار ببغداد فعفّى أثره .

★

قصر الثريّا :

كان هذا القصر في الجانب الشرقي من « بغداد » بالقرب من « القصر الحسني» وكان بديع الصنعة . بناه الخليفة المعتضد بالله ، قرب « التاج » على ميلين منه . وقد وصفه ابن المعتز رحمه الله فقال :

سلِمْتَ أميرَ المؤمنين على الدهرِ
فلا زِلت فينا باقياً أوسعَ العُمْرِ
حَلَلْتَ «الثرَيّا» خيرَ دارٍ ومنزلٍ
فلا زال معموراً ، وبُورك من قصرِ !
جِنان وأشجار تلاقت غصونها
وأورقن بالأثمار والوَرَق الخُضْرِ

ترى الطيـر في أغصانهنّ هواتفاً
تنَـقّــلُ من وكـرٍ لـهُـنّ الى وكْرِ
وبنيان قصرٍ قد علَتْ شرُفاتُه
كمثل نساءٍ قد تربّعْنَ في أُزْرِ
وأنهار ماءٍ كالسّلاسل فُجِّرتْ
لِتُرضعَ أولاد الرياحين والزّهْرِ
عطايا إلهٍ مُنْعِمٍ كان عالماً
بأنّك أوْفى الناس فيهنّ بالشّكرِ

★ ★ ★

دور بغداد التاريخية الشهيرة

دور بغداد كانت متخذه على هندسة الفرس وصناعتها ، وعلى مثال ما بنت الروم في الشام ، وهي مجللة كلساً ، ومرفوعة على طابقين ، ومبني بالآجر ما ارتفع منها عن الأرض ، وبالحجر ما يماسها أو يقرب منها ، رفعاً للماء في أوائل السيل والفيضان . ومنهم من كان يقوى الآجر بالقصباء والحلفاء ويغمسه بالجص حتى يصير يابساً . وليس لدور العوام أسوار تحيط بها ، وانما طاقاتها مطلة على الشوارع . واذا ما ارتفع المار على حجر أو على دابة ، تيسر له أن ينظر الى مقاصيرها . وأما دور المتمولين وأهل النعمة فانها ثلاثة أقسام ، يجمعهاسور واحد . وهي مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجلس السلام والضيافة ، وهي بمكان من الزينة . وفي وسط دورها جنان يزرع فيها البقل والرياحين وأشجار الزينة والفاكهة ، وعلى جدرانها وسقوفها نقوش ورسوم ملونة أو فسيفساء ذهب ، وعلى دائر الأبواب كتابة ، يتخذونها من الزجاج المقطع ، ويحوطونها بخشب أسود من الآبنوس ، ويعلقون عليها ألواحاً من النحاس المحفور أو المرسوم تمثل مناظر تسر النظر وتبهج النفوس . ومن جمال مبانيهم ما يتخذون لها من حسن خارجها فإن القباب التي يرفعونها في أعلى السطوح على عمد دقيقة يخيل للناظر اليها أنها لاتستند الى شيء ، وكأنما هي معلقة في الهواء . ولما كان الحر يشتد وهجه في أيام الصيف ، وكان افتقار أهلها الى رطوبة الماء افتقار النفس الى الهواء ، قلّ أن يخلو سوق من أسواقهم أو بناية من مبانيهم من سقاية يساق اليها ماء دجلة ، ولذلك لايسير الرجل فيها الا محفوفاً بالشجر المزهر والرياحين التي يتناشد الشعراء أشعارهم في وصفها . وهذا دليل على أن الزوراء ماء ونماء ، ولأهلها في اقامة الأحواض عناية خاصة ، فيرفعون عليها عمداً من الرخام ، ويعقدون من فوقها قباباً مغشاة بالآيات المرسومة بماء الذهب ، فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزينتها على سبيل الترف والترفّه . واذا اشتد

عليهم الحر اتخذوا أسراباً تحت الأرض (سراديب) ، وأقاموا فيها بالنهار ليكسروا فيها شدة الحر . ولقد عظمت عناية أبي جعفر المنصور ومن جاء بعده بهذه المدينة ولا سيما هارون الرشيد . وكان لها أربعة أبواب أولها باب خراسان ، والثاني باب الكوفة ، والثالث باب الشام ، والرابع باب البصرة .

دار الخلافة :

من دورها الشهيرة دار الخلافة . وكانت في الجانب الغربي من بغداد . وكان يحيط بها حدائق القصر وجنانه . قد أقيمت فيها أحواض يتصوب منها الماء ، وعليها عمد من الرخام تمل قبابا مغشاة بالرسوم والآيات الموسومة بماء الذهب . والى ما وراء الجنان قصر الخلد وقصر السلام . وكان أبو جعفر المنصور يسكنه . فاذا انتهى السالك من ذلك الممر ، وصل الى باب القصر . وهو معقود تحت القبة التي تزين في الأعياد ، وعليه مسامير كثيرة من الفضة والذهب . فاذا تجاوز هذا الباب فهو في دار مسورة بالعمدان ، وعلى دائرها مقاصر منجدة أرضها وحيطانها بالأرمني . وفي أطرافها دهليز ينبعث اليه الضوء من شمسيات منثوبة في القباب . فمن جاز الدهليز دخل في دار أفسح من الدار الأولى،وفيها كثير من العمد المخرمة التي كان الخلفاء يوجهون عنايتهم الى الاكثار منها في جميع بناياتهم ، حتى كان في صحن من صحون دور الخلافة سبع وأربعون سارية ، لو أن ثمانين غلاماً وقفوا وراءها ما رآهم أحد ممن في صدر الصحن . ثم ينتهي السالك المار من هذا الدهليز الى سلم من الرخام المجزع ، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضها الى بعض ، وهو مفروش ببسط طبرية من الديباج ، عليها أبيات في مدح الخليفة ، وفيه كراسي مرصعة بأصداف اللؤلؤ ، وفراشها مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب .

أبواب دور الخلافة :

وكان لدور الخلافة أبواب عديدة ، منها : باب الفردوس ، وهو باب دار عظيمة من دور الخلافة . ومنها باب المراتب ، وهو أحد أبواب دار

الخلافة ببغـــداد ، كان من أجل أبوابها وأشرفها ، له حاجب عظيم القدر نافذ الأمر . داخله محلة كبيرة كان يسكنها الأكابر والأشراف وذوو البيوتات القديمة . ومنها باب الخاصة ، أحدثه الطائع لله ، وكانت عليه منظرة مقابل دار الفيل .

ومنها دار الطواويس . وكانت هذه الدار من الدور الشهيره بدار الخلافة ، من بناء المطيع . ولما أكملها استوقفت أنظار الناظرين في حسن وصفها وعجيب هندستها مع سَعة ساحتها وكثرة بيوتها ، فكانت مُتَنَزَّه النفوس وجنة الدنيا ، فما تسمع فيها الا تغريد البلابل، وتصفيق المياه في الجداول . وكان من يشاهد رصانة بنائها يظن أنها تدوم الى اليوم المعلوم .

ومنها دار القوارير بنتها زبيدةبنت جعفر ، واستعملت في بنائها القوارير . وكانت تستوقف النظر وتحير البصر ، وقد مر ذكرها . ومنها دار الشجرة ، وكانت داراً من أبنية المقتدر . قيل: سميت بذلك ، لأنه كان فيهـــا شجرة عظيمة من ذهب ، صور عليها أنواع الطيور والفاكهة ، وفي وسطها بركة كبيرة مدورة وتماثيل . قال الحموي : والذي رأيناه نحن أنها كانت المحلة بها مساكن ودور ، وكان يسكنها أنسباء الخليفة وأولاد الخلفاء بأهليهم كالمحبوسين يمنعون من الخروج منها ، ولهم أرزاق دارة عليهم ، وسموا بذلك لأنهم من شجرة النسب .

★ ★ ★

الرشيد وزبيدة

لاتذكر بغداد الا ويذكر الرشيد وزبيدة مقرونين بعصرها الذهبي ، فجمال بغداد ومجدها بالرشيد هو الذي ألبسها ذلك العز التالد ، وهو الذي أضفى عليها ذلك المجد الخالد ، وهو الذي أكسبها صيتها البعيد ، وهو الذي أسبغ عليها قدرها العتيد . كان الرشيد وزبيدة القدوة للبغداديين فيما يأخذون ومايدَعون . رسم لهم طريق الحضارة ، ومهد لهم طرق سبيل السعادة. نقل ترف الدنيا الى بغداد ، وجعلها تعيش في بُحبُوحة من الرفاهية ، وهيأ لأهلها وسائل العيش . لم يسمع عن الخلفاء من كان أسمح من الرشيد ببذل المال . يقال إنه كان ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم ، وربما اتخذ له الطبّاخون ثلاثين لوناً من الطعام ينال منه البائس والمحروم ، ويتصدق بألف درهم كل صباح وإنه لمّا بنى بزبيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق أن رأى البغداديون مثلها ، وجعل الحبات فيها غير محصورة ، حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة ، وأواني الفضه مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر . وبلغ جملة ماأنفق خمسة وخمسين مليون درهم[1]. وظهرت زبيدة في درع من الدر لم يقدر أحد على تقويمه بثمن ، وعليها من الحلي حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجواهر . وان الرشيد لم ينفرد وحده بكثرة الإنفاق ، فإن « زبيدة » كانت وجهاً من وجوه بغداد المشرقة ، عملت على ازدهار العمران ، وصنعت من أعمال البر ما عجز عنه الملوك العظام. ومن أعمالها ومَبَرّاتها الخالدة أنها حين حجّت أوعزت الى عمالها ووكلاء أموالها أن يحفروا الآبار على طول الطريق بين الكوفة والمدينة . وفي حجها هذا عزمت أن تسقي الحجيج باحتفار عينٍ تجريها الى مكة من خالص مالها ، فجلبت الماء من مسافة اثنيْ عشر ميلاً ،

(١) لاشك أن هذا المقدار مبالغ فيه .

لم تحل دون تنفيذ عزمتها صِعاب الجبال ، وفي إنفاذ إرادتها قالت لوكيلها قولتها الخالدة : « عزمت عليك أن تفعل ، ولـو كلفتك ضربة الفأس ديناراً » . قال صاحب كتاب الفخري : « كانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة . جبى الرشيد معظم الدنيا . ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كلّ واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه الى أعلى درجة . وكان فاضلاً شاعراً ، راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق والتمييز ، مهيباً عند الخاصة والعامة » .

حج في عام من أعوام خلافته ، حين أراد أن يعهد الى أولاده ، ومعه ابناه الأمين والمأمون ، ويحيى بن خالد بن برمك ، والفضل بن يحيى ، وجعفر بن يحيى. فلما وصلوا الى المدينة ، جلس الرشيد ومعه يحيى ، فأعطيا الناس. وجلس الأمين ومعه الفضل ، فأعطيا الناس . وجلس المأمون ومعه جعفر ، فأعطيا الناس . وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث : حتى كانوا يسمّون هذا العام « عام الأعطيات ، » وقال شاعرهم ابن مناذر :

اذا نزلوا بطحاءَ مكة أشرقت
بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى
بمكة ما تمحو ثلاثة أقمُرِ
فما خلقت إلا لجود أكفهم
وأقدامهم إلّا لأعواد مِنبرِ

اشتهر اسم الرشيد في بلاد الغرب لصِلاته الوثيقة بـ « شارلمان » ، وللعلاقات السياسية المعقوده بينهما . ومما زاد في ذيوع شهرته بين أمم الغرب « كتاب ألف ليلة وليلة » ، فلا يمكن أن يذكر بغداد الا ويذكر الرشيد وألف ليلة

وليلة . قال صاحب الفخري : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء ، وفصحائهم ، وعلمائهم ، وكرمائهم . كان يحج سنةً ، ويغزو سنة ، مدة خلافته ، الا اذا شغلته أحداث مملكته . وكان اذا حَجَّ حَجَّ معه مئة من الفقهاء . واذا لم يحج ، أحجَّ ثلاث مئة رجل منهم . ولم يُرَ خليفة أسمح منه بالمال . وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخره . وكان يحب الشعر والشعراء، ويكرمهم، ويغدق عليهم العطاء » . قال أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلُبْ لقاءك أو يُرِدْهُ
فبالحَرَمَيْنِ أو أقصى الثغورِ
ففي أرض العدوّ على طِمِرٍّ
وفي أرض البنيّة فوق طورِ[1]
وما جاز الثغور سواك خلق
من المستخلفين على الأمورِ

قال الخطيب البغدادي : « اجتمع للرشيد مالم يجتمع لأحد من جِدٍّ وَهزْل . ووزراؤه البرامكة لم يرمثلهم سخاءً وسَرْواً . وقاضيه أبو يوسف . وشاعره مروان بن أبي حفصة، وكان في عصره كجرير في عصره . ونديمه عم أبيه العباس بن محمد . وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدهم تعاظماً . ومغنيه ابراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته . وضاربه زلزل . وزامره برصوم . وزوجته « أم جعفر » أرغب الناس في خير ، وأسرعهم إلى كل برّ ، وهي أسرع الناس في معروف : أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك ، الى أشياء من المعروف » .

يقول الجاحظ : « كان الرشيد أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته ،

---

(١) وفي رواية : « فوق كور » .

وأكثرهم بها عناية ، وأحزمهم فيها أمراً » . إنه كان في أيام استقراره يقسم أعماله في ليالي أسبوعه ، ليطلع على أحداث انبراطوريته الواسعة .

يقول فيه منصور النمري :

إن أخلف الغيث لم تخلف معالمــه
أو ضاق أمــر ذكرناه فيتّسعُ

ووقف في طريقه رجل من الأمويين وأنشده :

يــا أميــن الله ! إني قــائــلٌ
قولَ ذي لُبٍّ وصدقٍ وحَسَبْ
لكــم الفضل عــلينــا ، ولــنــا
بــكــم الفضــل عــلى كل العَــرَبْ
عبدُ شَمْس كانَ يَتْلُو هاشماً
وهـــمـــا بَعْـــدُ لأمٍّ ولأبْ
فَـصِـلِ الأرحــامَ مِنّــا إنمــا
عبــد شمس عـــمّ عبـــد المطّلبْ

فأعطاه عن كل بيت ألف دينار ، ثم قال له : « لو زدتنا لزدناك » !

وروى الخطيب البغدادي عن إسحاق بن ابراهيم الموصلي ، قال : « دخلت على أمير المؤمنين الرشيد ، فقال : أنشدني من شعرك ، فأنشدته :

وآمرةٍ بالبُخْل ، قلت لها : اقصِري
فذالك شيءٌ ما اليــه سبيـــلُ
أرى النّاسَ خِـلّانَ الجواد ، ولا أرى
بخيلاً لــه في العالمَـينَ خليــلُ
ومن خيرِ حالات الفتى لــو علمته
إذا نال خيراً أن يكون يـنيــلُ

عطائي عطـاء المكثرين تـكـرُّمـاً
وما لي – كما قد تعلمين – قليلُ
وإني رأيت البخل يزري بأهـلـه
ويحقر يـومـاً أن يقـال بخيلُ
وكيف أخافَ الفقر أو أحرم الغِنى
ورأيُ أميـر المؤمنيـن جميلُ

قال : لا ! كيف ان شاء الله! يافضل! أعطه مئة ألف درهم . لله در أبيات تأتينا بها ، ما أحسن فصولها ، وأثبت أصولها !

ومدحه أشجع السُّلَمي بعد قفوله من « هرقلة » وانتصاره على الروم :

لازلت تنشر أعياداً وتطويهـا
تمضي لها بك أيـام وتمضيهـا
أمست « هِرَقْلَةُ » تهوي من جوانبها
ونـاصر الله والإسلام يرميهـا
ملكتها وقتلت الناكثين بـهـا
بنصر من يملك الدنيا ومـا فيها
ما روعي الديـن والدنيا على قدم
بمثل « هـارون » راعيه وراعيهـا

فأجزل له العطاء .

وصلاته للشعراء ليس لها عد ولا حصر ، وقد كانت من أسباب رفاهية هذه الطبقة .

قال أبو نُواس في رثائه وتهنئة الأمين :

جـرت جَـوارٍ بالسعد والنحسِ
فنحـن في مـأتم وفي عُـرْسِ
القلبُ يبكي والسّنُّ ضاحكة
فنحن في وحشة وفي أُنسِ

يضحكنا القائم الأمين ويبكيـ
نـا وفاة الإمام بالأمسِ
بدرانِ : بدرٌ أضحى ببغداد في الـ
« خُلْد » ، وبدرٌ بطُوس في رَمْسِ

وله :

الناس ما بين مسرور ومحزونِ
وذي سَقام بكَفِّ الموتِ مرهونِ
من ذا يُسَرُّ بدُنْياهُ وبهجتها
بعد الخليفة ذي التوفيق « هارون» ؟

و (زبيدة) كانت الدرة اللامعة في تاج الرشيد ، بل هي الشمس المشرقة لبلاطه . من أعمالها الخَيِّرةِ إقامة المنازل والمصانع والبرك من بغداد الى مكة . ندبت نفسها وأموالها وعرفاء عمالها وبرعاء مهندسيها لإتمام مشروعها ، فتم لها ما أحبت ، وأصبح ركب الحاج يحط ركابه في هذه المنازل آمناً على نفسه ، يلقى بِرّاً ورِفْداً ، والماء موفور له ولدوابّه. أبقت مرافق ومنافع في هذا الطريق تعم وفد الله الحجيج . . وكان لها مئة جارية يحفظن القرآن الكريم ، لكل واحدة منهن وِرْدُ عشر من القرآن ، يسمع في قصرها صوت كدَوِيّ النحل من قراءة القرآن . وكان لها أيادٍ بيضٌ على أهل العلم ، تبَرُّهم ، وتديم صلاتهم . وإفضا لها على الفقراء والمساكين مضرب الأمثال . يأكل من مطبخها المئات كلّ ليلة . وكانت مفزع الخائف وملاذ الملهوف ، وشفاعتها لا ترد عند الرشيد ، ونزعتها العربية عنيفة : تقاوم نفوذ الفرس . وكانت من عوامل القضاء على البرامكة ، لما كانت تحسّ من نفوذهم وافتتان الناس بهم ، ولا سيما أهل فارس .

حجت بعد العام الذي أوصلت به الماء مع أخٍ لها ، فكان حجها ربيعاً وغيثاً لذوي البيوتات من أهل المدينتين المقدستين . نقل المؤرخون أنها أنفقت

في حجها هذا أربعة وخمسين ألفَ ألفِ درهم ، وربما كان هذا مع نفقات المنازل وكلفة (عين زبيدة) .

وَشهِدَت أم جعفر زبيدة (واسمها سكينة ، وقيل أَمَةُ العزيز) زفاف « بوران » زوج المأمون ، فألبستها كسوة ثمينة تاريخية تعرف بـ « البَدَنَة الأُمَوِيّة » ، وأهدت اليها « نهر الصِّلح » . وابتنت « قصر القرار » ، واتخذت لِبَهْوِهِ الكبير بساطاً من الديباج ، جمعت فيه صور كل الحيوانات والطيور المعروفة ، وجعلت أعينها من البواقيت . وكانت قدوة لأميرات عصرها ، وابنات جنسها من السريّات البغداديات في رقي الذوق والتفنن في الملبس ، وعنها تصدر (مودة الموسم) كاتخاذها الآنية من الذهب المرصع بالجواهر ، والثياب الموشاة ، والقبقاب من الفضة والآبنوس ، واصطناعها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشي ، واتخاذها الديباج والسمّور ، واتخاذها الخف مرصعاً بالجواهر ، واتخاذها الشاكرية من الجواري ، فجرى نساء العصر على تقليدها . وخلاصة القول هي وزوجها الرشيد من زينات بغداد ، وكل واحد منهما وجه مشرق من أوجه بغداد الطلقه ، لايمر القارئ بتاريخ بغداد ما لم يتشوف الى خبرهما . رحمهما الله ، وأجزل ثوابهما عن الدين والعلم والعمران خير الجزاء.

★ ★ ★

مجـــالس الرشيد الحضارية

كان شعاره الذي يردده دائماً : « يقبح بالسلطان أن لايكون عالماً » . والعناية بالعلم والعلماء والأدب والأدباء والغناء والمغنين والبناء والريازة ورفاهية الشعب ، هي جماع فنونا لحضارة ، وأهم ضروب المدينة . وأيام الرشيد التي سميت « أيام العروس » أجمل أيام الخلافة العباسية. ولم يمر على بغداد منذ تأسيسها الى عصورها المتاخرة أبهى وأنضر من أيام الرشيد. تولى الخلافة وهو في سن الشباب : حيوية دافقة ، وفُتُـوَّة متوثّبة ، وتربية ناضجة على يد أساتذة متخصصين . فلما أتى اليه أمر الخلافة ، قرب اليه العلماء والأدباء والشعراء ، وقرب كل ذي موهبة وفن ، واجتمع في بلاطه جهابذة كل فن . وكانت مجالسه لاتخلو من فقيه أو نحوي أو شاعر أو فنان ضليع بالموسيقى والغنـــاء . والرشيد أديب رقيق يتذوق الشعر وينظمه . وكان الرشيد من أشد الخلفاء عناية بتنظيم مجالسه بالرغم من كثرتها . له « مجلس الأسرة » الذي ينظر في شؤون السياسة العليا المتعلقة بأمر الخلافة وبولاية العهد ، وهو مجلس لايحضره الا مشيخة بني هاشم من بني العباس ، ويعقد بالمناسبات المهمة ، ويحضره الوزير المفوض .

و « مجالس النظر » ينظر فيها في شؤون الدولة العامة ، وهي كثيرة ، وتعقد باستمرار ، تدار فيها سياسة الخلافة وادارة الولايات وتعيين العمال وارسال الجيوش للجهاد والفتوح ، ويحضرها وزير التفويض ، برآسة الخلافة طبعاً .

و « مجالسه الخاصة » التي تعقد بأمره في أوقات فراغه : منها مايكون خاصاً بالعلماء ، ومنهاما يكون للأدباء والشعراء . وهي أشبه بمجالس ثقافية علميه لاتخلو من فوائد يفيد منها الرشيد ، وليس لها وقت معين . ولكنها تجتمع له بين الفَيْنَة والفَيْنَة بحَسَب رغبته ، والرشيد يدير المباحثات ويأذن بالكلام ، فلا يتحدث أحد من الحاضرين الا بإذن منه ، ولا تجرى المناظرات الا بموافقته ، هو

يسأل الجماعـــة ويختار المجيب والمعقبين على الجواب، ولا يسمح لأحد أن يتجاوز حدود الآداب المحددة . تكلم الأصمعي مرة في أحد هذه المجالس، ولم يراع قواعد الآداب، وكان حديث عهد بهذه المجالس، فقال له الرشيد بعد أن خلا المجلس من الآخرين : ياعبد الملك ، أنت أحفظ منا ، ونحن أعقل منك ، لا تعلمنا في الملا ، ولا تسرع الى تذكيرنا في الخلا ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال . فإذا بلغت بالجواب قدر استحقاقه ، فلا تزد. وإياك والبدار الى تصديقنا وشدة التعجب مما يكون منا ، وعلمنا ما نحتاج اليه على عتبات المنابر، وفي أعطاف الخطب، وفواضل المخاطبات، ودعنا من مخاطبة حوشي الكلام وغرائب الأشعار ، وإياك وإطالة الحديث الا أن نستدعى ذلك منك ، ومتى رأيتنا صادفين عن الحق، فارجعنا اليه ما استطعت من غير تغرير بالخطأ ولا إضجار بطول التردد » .

و « مجالس المصاحبة » أي المؤانسة ، وهو مجلس يعقد أحياناً في النهار في الوقت الذي يحس فيه الخليفة بتعب نفسي أو ملل فكري ، فيدعو اليه من يأنس بمجالسته وترتاح اليه نفسه من العلماء البارزين أو الأدباء الظرفاء أو الشعراء أو الرواة . وقد يتكون هذا المجلس من شخص واحد أو أكثر من اثنين ، ولا يشترط في هذا المجلس لباس خاص ، ولا تفترض فيه قيود شديدة . وهو أشبه بمجالس السمر والمنادمة ، وقد خصص لهذا اللون من المجالس بيت مال خاص ، سماه « بيت مال السرور » لتقديم المنح والأعطيات .

وهناك مجالس للغناء والموسيقى وإنشاد الشعر المغنـــى على الآلات ، وأكرر القول إن الفنون الجميلة كما يسمونها اليوم هي من ضروب الحضارة العليا .

وهـذا مثـال لمجلس السمر والمؤانسة رواه الأصمعي ، ومنه يتجلى تضلّع الرشيد بفنون الشعر والآدب ، وعمق ثقافته اللغوية والأدبية : دخل الأصمعي البهو المزين بالألوان والذهب والفرش النادرة لأول مرة، فوجد الخليفة في أبهى زينة جالساً في الصـــدر ،وبجانبه وزيره الفضل ، وحولهما الشموع المضيئـــة على قضب المناور، والخدم وقوف على مقربة منهما، فأحس في نفسه شيئا من الروعة

ولكنه تقدم الى حيث يسمعان صوته ثم سلم ، فردا عليه السلام ، وأمره الرشيد بالجلوس رَيْثمَا تسكن نفسه ويهدأ روعه ، ثم بدأ بالكلام مخاطبا الرشيد : يا أمير المؤمنين « اضاءة كرمك ، وبهاء مجدك ، مجيران لمن نظر اليهما من غير اعتراض أذية له . أتسألني فأجيب ، أم أبتدئ فأصيب بيمن أمير المؤمنين وفضله؟ » . فتبسم الفضل ، ثم قال للرشيد : ماأحسن ما استدعى الاختبار ، وقد استسهل الفاتحة وأجدر به أن يكون محسناً ! إنه والله يا أمير المؤمنين قدم مبرزاً محسناً في استشهاده على براءته من الحيرة ، وأرجو أن يكون محسناً . قال الرشيد : أرجو ذلك . ثم قال للأصمعي : أُدْنُ . أشاعر أم راوية ؟ قال : راوية يا أمير المؤمنين . قال : لمن ، قال لذي جِدٍّ وهزل بعد أن يكون محسناً . قال الرشيد : ما رأيت أدعى للعلم ولا أخبر بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك . ولئن صدرت حامداً أثرك لتعرفن الفضل موجهاً اليك سريعا .

وسأله الرشيد عن أرجوزة للشاعر « رؤبة بن العجاج » يمدح فيها أحد خلفاء بني أمية ، فأنشده الأصمعي أولها ، حتى اذا وصل الى مدح بني أميه انتقل الى أرجوزة للشاعر نفسه في مدح جَدّ الرشيد « أبي جعفر المنصور » ، فَسُرَّ الرشيد بهذه الالتفاتة البارعة .

ثم سأله عن قصيدة للشاعر عدي بن الرقاع في مدح الوليد بن يزيد الأموي ، مطلعها : « عرف الديار توهماً فاعتادها » . فراح الأصمعي يجري في إنشادها ، فكان الرشيد يوقفه عند كل بيت منها ويقول له : ماذا قال الوليد عندما سمع هذا البيت ؟ فيجيبه الأصمعي وكأنه كان حاضراً في ذلك المجلس ، فيعجب الرشيد بأجوبته وصحة روايته ، ويناقشه أحياناً في قوله ، وكان الرشيد قد درس أخبار هذه القصيدة . ثم يسأله عما قال الشعراء الحاضرون في ذلك المجلس حين انشاده ، فيجيبه الأصمعي بما كان قدجرى .

ثم انتقل الخليفة الى شاعر آخر كان يحفظ أكثر شعره ، وهو « ذو الرمة » قال له : هل رويت للشاعر ذي الرمة شيئاً ؟ قال الأصمعي : الأكثر

يا أمير المؤمنين . قال الرشيد : لا أسالك سؤال امتحان ، ولا كان هذا عليك ، ولكني أجعله سبباً للمذاكرة . فإن وقع عن عرفانك ، والا فلا ضيق عليك بذلك عندي . ثم سأله معنى بيت غريب لهذا الشاعر ، فانطلق الأصمعي في تفسيره ، وأتى بالشواهد والأدلة ، وما زال حتى قال له الرشيد : أصبت .

ثم تحول بعد ذلك الى ذكر الشاعر « الشماخ بن مزرد » وسأله عن قصيدة له ، فأنشدها الأصمعي له . وهكذا ظل الرشيد يسأل ، والأصمعي يجيب . ودام المجلس طويلا حتى قال الرشيد للأصمعي : أمسك ، واستغفر الله ثلاثاً . لقد وفيت ، وأمتعت منشداً ، ووجدتك محسناً في أدبك ، معبراً عن سرائر حفظك .

وأمر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم في ليلته ، وأمر له الفضل بتسعه وعشرين ألف درهم[1] . وكانت هذه الجلسة قد غيرت مجرى حياة الأصمعي ، وفتحت أمامه باباً واسعاً نحو عالم الشهرة والمجد والغنى .

وراح الأصمعي يحضر مجالس العلم والأدب مع غيره ، ويشترك في المناظرات في الموضوعات التي يجيدها ، وبدأ الرشيد شيئاً فشيئاً يدرك قيمة الأصمعي النابغ ، ويلتفت اليه حين يُبدي رأيه ، ويصغي الى سحر إنشاده للشعر ، ويلتفت الى مناقشاته مع الآخرين ، حتى صار يعجب بلباقته ومنطقه وبغزارة علمه وخفة روحه وبسرعة بديهته .

وهذا مثال آخر لما كان يجري في مجالسه :

يقول الأصمعي : كنا عند الرشيد ، وبحضرته الكسائي وأبو يوسف القاضي وآخَرون ، فسأل الرشيد عن كلمة « محرم » في بيت الشاعر « الراعي » :

قتلوا (ابن عفّانَ) الخليفةَ محرماً
ودعا فلم أرَ مِثلَهُ مخذولا

فقال الكسائي : كان محرماً بالحج . قال الأصمعي : هذا خطأ ، فأصَرَّ الكسائي على رأيه ، فقال الأصمعي : فقولهم :

---

(١) العقد الفريد ٣/١٣٦ ــ ١٣٨ .

قتلوا كِسْرَى بليلٍ محرماً

تركوه لم يُمَتَّعْ بكَفَنْ

هل كان كسرى محرماً بالحج، وهو غير مسلم ؟ قال الكسائي : فما معنى « محرماً » هنا إذَنْ ؟ قال معناه : لم يحل من نفسه ما يوجب القتل . فاقتنع الكسائي، وقال الرشيد: ما تطاق في الشعر ياأصمعي، وقال لهم : لا تعرضوا له في الشعر .

وفي مجلس آخر قال الرشيد : أنشدونا ما قيل في وصف العقاب، فسكت القوم، ولم يأتوا بشيءٍ، فقال الأصمعي : أحسن ما قيل فيها :

باتت يؤرقها في وكرها سَغَبٌ

وناهض يخلس الأقوات من فيها

وقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً

لدى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي (١)

فقال الرشيد : ما بعل القوم في شئ الا وجدت عندك فيه شيئاً .

وأنشد الكسائي في مجلس الرشيد أبياتاً للشاعر « أفنون التغْلَبي » حتى وصل الى قوله :

أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به

رِئْمانَ أنفٍ اذا ما ضنّ باللبن

قرأها (رئمانَ) بفتح النون، فقال الأصمعي : هي بضم النون . وتجادلا في ذلك، فحكم من كان في المجلس بصحة قول الأصمعي .

قال الأصمعي : كنا عند الرشيد وبحضرته أبو يوسف القاضي، وكان الحديث عن صلة اللغة بالاجتهاد الفقهي، فسألته عن الفرق بين « عقلتُ القتيل » و « عقلت عنه » فلم يأتِ بشيء . فقلت له : « عقلت القتيلَ » اذا أديتَ عنه، و « عقلت عنه » إذا ألزمته دية فأديتها عنه . فاستحسن ذلك .

---

(١) ما بعل اي ما احتار .

وسأل الرشيد من حضر مجلسه ذات يوم عن صدر البيت الذي عجزه : « ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟ » ، فلم يُجب أحد من حاضري مجلسه ، فقال : أين الأصمعي ؟ قالوا : مريض في بيته . قال : احملوا له ألف دينار لنفقته وسد حاجته ، واكتبوا بهذا اليه . فحمل الرسول المال والسؤال وأتى دار الأصمعي ، فرد الجواب على الرقعة ، يقول : أنشدنا خلف الأحمر لأبي النشناش الأعرابي :

ودَاويّة تيهاء يُخشى بها الردى
سرت بأبي النشناش فيها ركائبُه
ليدرك ثأراً أو ليكسب مغنماً
جزيلا ، وهذا الدهر جَمّ عجائبُه
وسائلةٍ : أين الرحيل ؟ وسائل ،
ومَن يسأل الصعلوك أين مذاهبُه ؟

وروى القصيدة كلها .

وشبه الدكتور عبد الجبار جومرد صاحب كتابَي الرشيد والأصمعي بلاط الرشيد هذا ببلاط « لويس الرابع عشر » ملك فرنسة أكبر عاهل في أوربة بين عامي ١٦٤٣ — ١٧١٥ ، وإن كان الرشيد قد سبقه بألف سنة تقريباً . فقد اجتمع لكل منهما في بلاطه عباقرة العصر وقادة الفكر . فوزير لويس الرابع عشر « مزاران » داهية أوربة السياسي والإداري أشبه بيحيى بن خالد في زمانه ، وشعراؤه « راسين ، ولافونتين ، وبوالو » كأبي العتاهيه ، ومروان بن أبي حفصةَ ، وأبي نواس في حكمهم وغزلهم وإنتاجهم ، وأدباؤه في نقد فنّ الشعر « روشفوكو ، ولا بروبر وفليشيه » أشبه بالكسائي ويحيى بن المبارك اليزيدي ، وعمرو ابن كلثوم العتابي ، وجليسه « موليير » في مسرحياته الفكرية قريب الشبه بالأصمعي في روايته ونوادره عن الأعراب . وقد أطلق الفرنسيون على عصر لويس اسم « عصر الشمس والنور » كما أطلق العرب من قبل اسم « العروس » على أيام الرشيد .

وكان الرشيد يجل أهل العلم والأدب ، ويقربهم ، ويبذل لهم العطاء بسخاء ، ويوقر مجلسهم ، ويوصي أولاده باحترامهم ، ويحضر مجالسهم مستخفيا لئلا يحرجهم اذا أعلن حضوره حلقات دروسهم ، يسمع لنصائحهم ومواعظهم .

أكل أبو معاوية الضرير على مائدته يوماً ، فلما قام ليغسل يديه أخذ الرشيد من يد الخادم الإبريق وصبّ الماء وهو لا يدري .

وعهد الرشيد بتعليم ابنه الأمين الى الكسائي والى الأحمر النحوي ، وعهد بتعليم ولده المأمون الى سيبويه إمام النحويين وإلى اليزيدي .

وحفظ لنا التأريخ وصية للرشيد أوصى بها الأحمر لما عهد اليه بتأديب الأمين جديرة أن تكون قدوة للمربين وللآباء معا ، قال الرشيد : « يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخُذْه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة » .

هذا حاله في الحاضرة . فاذا غزا مجاهداً ، أو حج البيت العتيق ، صحب جمعا من العلماء والأدباء والرواة والمنشدين . واذا شغل بالجهاد أحَجَّ تلك السنة ثلاثَ مئة من العلماء ومن شيوخ بني العباس بالنفقة السابغة والخدمة الراقية .

أما مجالس العلماء أيام الدولة العباسية الى القرن الخامس ، فهي إما في بيوتهم ، وإما يحتل العالم زاوية من جامع المدينة أو المحلة ، ويتحلق حوله طلاب العلم ، والطالب يتنقل من حلقة الى أخرى ، ومن أستاذ الى آخر . فحلقات الدرس تبدأ بعد صلاة الصبح ، وقد يستمر بعضها الى صلاة الظهر ، وتشمل القرآن وعلومه من تجويد وقراءات وتفسير ولغة ، الى استنباط لأصول الفقه ، والفقه وأصوله ، والحديث

ورُواته ، ونقد الحديث وعرضه على ما في كتاب الله وطرق التجريح المعروفة لدى علماء الحديث ، والعربية نحوها وصرفها وفقهها ، والشعر والشعراء ، والأخبار ، والمنطق ، والفلسفة الإسلامية ، وعلم الكلام ، والجدل الخ . وكان (بيت الحكمة) الذي بدأ أيام الرشيد ، وازدهر أيام المأمون ، يشبع المعرفة لطالبيها بما ييسر من كتب مؤلفة ومترجمة .

ولا يفوتني وأنا أكتب عن مجالس الرشيد ومجالس العلماء أن ألمح ولو بصورة مقتضبة الى انتشار العمران وتغالي الأفراد بالرياش والأثاث وعروض الزينة في عهد الرشيد ، كل ذلك كان نقلة عريضة الى الأخذ بحضارة الأمم المجاورة والوافدة الى « مدينة السلام » ، والى المدن العربية ، رسخت وشاعت الحياة الناعمة المترفة بوسائل لهوها وترفها بجانب التقدم العلمي والأدبي . وتسابق المثرون من الخاصة والعامة الى التغالي بالبناء . وكان الرشيد بفطرته ميالاً للجود والترف برغم ما عرف عنه من تقى وورع ، وكان ما يأتيه من مال وخير يهيء له هذا البذخ على أهله ومن يحضر مجالسه من العلماء والشعراء والقادة وعلى أبناء الشعب . وكانت مكة المكرمة والمدينة المنورة ينال أهلهما القسط الأوفر من سخائه وبره لعامة الناس ، ولا سيما بيوتات بني هاشم وطلاب العلم وشيوخهم . وتغالى ذوو اليسار في اقتناء الجواري حتى غدت أثمان بعضهن يفوق حد المعقول ، ويشترط فيهن المهارة والتعلم والغناء . واتخذوا الفرش من الخز والديباج والسمور ، ومسامير الأبواب والأخشاب من الذهب والفضة واتخذوا الحدائق الغنّاء ، وجلبوا اليها الأشجار وغرائبها ، وأقاموا المُتَنَزّهات وميادين السباق ، واتخذوا من نهر دجلة وجزره الصغيرة التي تظهر في أيام الصيف مُتَنَزّهاتٍ ، وبنوا عليها وعلى شطآنه الجواسق والمسابح . وصنع الأمين خمس حراقات ، إحداها على صورة الأسد ، والثانية على صورة الفيل ، والثالثة على صورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس ، وقد أنفق عليها مالاً عظيما . وصفها أبو نُواس بقوله من أبيات :

سخــر الله لــلأميــن مـطــايــا
لم تُسَخَّرْ لصاحب المحـــرابِ
فـإذا مـا رِكابــه سِرْنَ بــراً
سارَ في المــاء راكبــاً ليث غــابِ
عَجِبَ الناس إذ رأوك عـلى صـور
رَةِ ليث تَـمُـرُّ مَـرَّ السَّحـابِ
سَبَّحُوا إذْ رأوكَ سِرت عـليــه
كيف لـو أبصروك فـوق العُـقابِ
تسبِقُ الطيـر في السماء إذا مــا اس
تعجلـوهــا بجيئــة وذهـــابِ

★

وكانت زبيدة أم جعفر درة مضيئة في تاج الرشيد ، اليها يرجع الكثير من تدبير ملكه وازدهار عصره . وكانت أنفذ نساء العباسيين كلمة في الدولة ، ذات عقل ودين ورأي سديد ، أنشأت مسجداً على دجلة، عرف بمسجد زبيدة، كان آية في الفن والزخرفة. وحفرت بالحجاز العين المعروفه باسمها،ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل ووعر ،حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا . وبنت بمكة دار أبي يوسف التي ولد فيها النبي صلوات الله وسلامه عليه. وكان لها في السياسة رأي تسمو به على رأي الرجال . كانت هاشمية عربية، عملت على إسقاط نفوذ البرامكة، وإنقاذ البلاد من كيدهم الفارسي. اشتهرت بالفصاحة وجمال التعبير . كتبت الى المأمون بعد مقتل ابنها :

« لخير إمام قام من خير عنصرٍ
وأفضل راقٍ فـوقَ أعوادِ منبـرِ
ووارث علـم الآمنين وفخـرهم
وللملك المأمـون مـن أم جـعـفرِ

الحمد لله الذي ادّخرك لي لمّا أثكلني ولدي . ما ثكلت ولـداً كنت لي عوضاً عنه » .

أنفقت من أموالها الخاصة أموالاً طائلة على طريق الحاج بين الكوفة ، وأمرت أن تقام المنازل والمصانع والبرك والآبار ،وأصبح ركب الحاج يحط ركابه في هذه المنازل آمنا على نفسه يلقى بِرّاً ورِفداً ، والماء موفور له ولدوابه ، فأبقت في هذا الطريق طريق زبيدة مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كما يقول ابن جبير .

★

مجـــالس الغنـــاء

حكى المسعوديّ قال : جمع الرشيد ذات يوم المغنين ، فلم يبق أحد من الرؤساء إلّا حضر ، فاقترح الرشيد صوتاً ، فأمر صاحب الستارة ، وكان الرشيد وحاشيته يجلسون خلفها احتشاماً عن الابتذال . أمر « ابن جامع » أن يغنّي صوتاً اقترحه الرشيد ، ففعل ، فلم يطرب . ثم فعل مثل ذلك بجماعة ممن حضر ، فلم يحرك منه أحد ، فقال صاحب الستارة لمسكين المدني المعروف بابن صدقة : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت ، فغنّه . قال إبراهيم الموصلي : فاندفع فغناه ، فأمسكنا جميعاً متعجبين من جراءته بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة . فلما فرغ منه ، سمعت الرشيد يقول : يامسكين ! أعِدْه . فأعاده بقوة ونشاط . فقال : أَحسنت وأجملت . ورفعت الستارة بيننا وبينه . فقال مسكين : ياأمير المؤمنين إنّ لهذا الصوت خبراً ، قال : وما هو ؟ قال : كنت عبداً خياطاً لبعض آل الزبير ، وكان لمولاي عليّ ضريبة أدفع اليه كل يوم درهمين . فاذا دفعت ضريبتي ، تصرفت في حوائجي . فخِطْت يوماً قميصاً لبعض الطالبين ، فدفع إليّ درهمين وتغديت ، وسقاني أقداحاً ، فخرجت وأنا جذلانُ ، فلقيتني سوداءُ على رقبتها جرّة وهي تغني هذا الصوت، فأذهلني من كل همّ ، وأنساني كل حاجة . فقلت : بصاحب هذا القبر والمِنْبَر الا ألقيت عليّ هذا الصوت . فقالت : وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقينه عليك الا بدرهمين . فأخرجت الدرهمين ، فدفعتهما اليها . فأنزلت الجرة عن عاتقها ، ووضعتها على فخذها ، واندفعت تغنيّ ، فما زالت تردّده حتى كأنه مكتوب في صدري . ثم انصرفت الى مولاي، فقال لي : هلُمّ خَراجك . فقلت: كان وكان . فقال: ياابن اللخناء! وبطحني ، وضربني ، وحلق رأسي ولحيتي. فبت ، يا أمير المؤمنين ! من أسوأ خلق الله حالاً ، وأنْسيت الصوت ممّا نالني . فلما أصبحت ، غدوت نحو

الموضع الذي لقيتها فيه ، وبقيت متحيراً لاأعرف اسمها ولا منزلها ، اذْ نظرت بها مقبلةً ، فأنسيت كل ما نالني ، وملت اليها . فقالت : أُنسيتَ الصوتَ وربِّ الكعبة . فقلت : الأمر كذلك ، وعرفتها ما مرَّ بي من الضرب وحَلْقِ الرأس واللحية ! فقالت : وحقِّ القبر ومَنْ فيه ، لافعلت إلا بدرهمين . فأخرجت جَلَمي (مِقَصّي) ورهنته على درهمين ، فدفعتهما اليها ، فأنزلت الجرّة عن رأسها ، واندفعت تغنيّ ، فمرت فيه ، ثم قالت : كأني بلك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف ! ثم انصرفت الى مولاي وَجِلاً ، فقال : هَلُمَّ خَراجَك ، فلويت لساني ، فقال : يا . . . . ألم يكفك ما مرَّ عليك بالأمس ؟ فقلت : أعرفك الخبر ، إني اشتريت بخراجي أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنّيه . فقال لي : ويْحَك ! معك هذا الصوت ، ولم تعلمني ؟ إمرأتُهُ طالق لو كنتَ قلتَه أمسِ لأعتقتك !

فضحك الرشيد : وقال : وَيْلَكَ ! ما أدري أيّما أحسنُ أحديثك أم غناؤك ؟ وقد أمرت لك ما ذكرته السوداء . ورفع منزلته الى المرتبة الأولى .

إبن جامع عند الرشيد :

وحدث اسماعيل بن جامع السَّهْمي المغنّي المشهور قصة اتصاله بالرشيد ، وروى لنا مجلساً طريفاً من هذه المجالس النابضة بالحياة الزاخرة بالمتعة التي كانت تعمر مجالس البغداديين أيام عصرهم الذهبيّ . وابن جامع هوالذي شهد بحقه اسحاق الموصلي حين سمعه يغنّي ، يقول : « نظرت الى أبي يَقِلّ في عيني ، ويعظم ابن جامع ، حتى صار أبي في عيني كلاشيْ ! » .

قال ابن جامع : ضامَني الدهر ضيماً شديداً بمكة ، فانتقلت بعيالي الى المدينة . فأصبحت يوماً وما أملك الا ثلاثة دراهم ، فهي في كُميّ ، اذا أنا بجارية حُمَيْراء على رقبتها جَرّة ماء ، تريد الرَّكيَّةَ تسعى بين يديّ ، وتترنم بصوت شجيٍ ، تقول :

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا

فقالوا لنا : ما أقصرَ الليلَ عندَنا !

وذاك لأنّ النوم يغشى عيونَهم
سراعاً ، وما يغشَى لنا النوم أعيُنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلَ ما
نُلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا .

فأخذ الغناء بقلبي ، ولم يدر لي منه حرف ، فقلت : ياجارية ! أعجبني ، واللهِ ، حسُن غنائِك . فلو شئت أعدت . قالت : حبّاً وكرامةً . ثم أسندت ظهرها ، ووضعت الجرة على ساقها ، ثم انبعثت تغنّيه . فوالله مادار لي منه حرف . فقلت : أحسنت ! فلو شئت أعدته مرةً أخرى . ففَطِنتْ وكَلَّحَتْ ، وقالت : ما أعجبَ أمرَ أحدِكم ! لايزال يجيء الى الجارية عليها الضريبة فيشغلها . فضربت بيدي الى الثلاثة الدراهم فدفعتها اليها ، وقلت : أقيمي بها وجهك اليوم الى أن نلتقي . فأخذتها كارهةً ، وقالت : أنت الآن تُريد أن تأخذ مني صوتاً ، أحسبُك ستأخذ منه ألف دينار ، وألف دينار ، وألف دينار ! وانبعثت نفسي ، فأعملت فكري في غنائها حتى دارَ لي الصوت وفهمته ، وانصرفت مسروراً الى منزلي أردده حتى خفَّ على لساني . ثم إني خرجت أُريد بغداد ، فدخلتها ، فنزل بي المُكاري على باب المُحوّل ، فبقيت لا أدري أين أتوجّه ، ولا من أقصد ، فذهبت أمشي مع النّاس ، حتى أتيت الجسر ، فعبرت معهم ، ثم انتهيت الى شارع المدينة ، فرأيت مسجداً بالقرب من دار « الفضل بن الربيع » مرتفعاً ، فقلت : مسجد قوم سَراة . فدخلت ، وحضرتْ صلاة المغرب ، وأقمت بمكاني حتى صليت العشاء الآخرة على جوع وتعَب ، وانصرف أهل المسجد ، وبقي رجل يصلّي خلفه جماعة من الخدم ينتظرون فراغه ، فصلى مليّاً ، ثم انصرف . فرآني ، فقال : أحسبك غريباً ! قلت : أجَلْ . قال : فمتى كنت في هذه المدينة ؟ قلت : دخلتها آنفاً ، وليس لي بها منزل ولا معرفة ، وليست صناعتي من البضائع التي أمُتّ بها الى أهل الخير ! قال : وما صناعتك ؟ قلت : أغنى . فوثب مبادراً ، ووكّلَ بي بعض من معه . فسألت الموكل بي عنه ، فقال : هذا سلّام الأبرش . واذا رسول قد

جاء في طلبي ، فانتهى بي الى قصر من قصور الخلافة ، وجاوزني مقصورة ، ثم أدخلت مقصورة في آخر الدهليز ، ودعا بطعام ، فأُتيت بمائدة عليها من طعام الملوك ، فأكلت ، فإني لكذلك إذْ سمعت ركضاً في الدهليز ، وقائلاً يقول : أين الرجل ؟ قيل : هو هذا . قال : أُدعُوا له بغَسُول وخِلعة وطيب . ففعل ذلك بي . فحملت على دابة الى دار الخليفة ، وعرفتها بالحَرَس والتكبير والأنوار . فجاوز مقاصيرَ عدّةً ، حتى صرت الى دار قوراء ، فيها أسرّة في وسطها ، قد أضيف بعضها الى بعض . فأمرني الرجل بالصعود ، فصعدت ، واذا برجلٍ جالس عن يمينه ثلاث جوار في حُجُورهن العيدان ، وفي حجر الرجل عود ، فرحّب بي : مجالس حياله كان فيها قوم قد قاموا عنها ، فلم ألبث أن خرج خادم من وراء الستار ، فقال للرجل : تَغَنَّ ، فانبعث يغنيّ بصوت لي ، فغنّى بغير إصابة وأوتار مختلّة ، ودَساتين مختلفة ، ثم عاد الخادم اَلى الجارية التي تلي الرجل ، فقال لها : تغنّيْ . فغنت أيضاً بصوت لي كانت أحسن حالاً من الرجل . ثم عاد الى الثانية ، وتوقعت مجيء الخادم اليّ ، فقلت للرجل : بِأبي أنت ! خُذِ العود وشُدَّ وترَ كذا ، وارفع الطبقه كذا . ففعل ، وخرج الخادم ، فقال لي : تَغَنَّ عافاك الله ! فتغنيّت بصوت الرجل الأول على غير ما غنّاه ، فإذا جماعة من الخدم يحضرون حتى استندوا الى الأسِرَّة ، وقالوا : ويحك لمن هذا الصوت ؟ قلت : لي . فانصرفوا عنيّ بتلك السرعة ، وخرج اليّ الخادم ، وقال : كذبت ! هذا الغناء لابن جامع . ودار الدور . فلما انتهى الغناء اليّ ، قلت للجارية التي تلي الرجل : خذي العود ، فعلمت ما أُريد ، فسوّت العود على غنائها ، فتغنيت ، فخرجت اليّ الجماعة الأولى فقالوا : ويحك ! لمن هذا ؟ قلت : لي . فرجعوا ، وخرج الخادم ، وقال : كذبت ! هذا الصوت لابن جامع . ثم دار الدور ، فتغنّيت بصوت لي لا يُعْرَفُ إلّا بي ، وسقوني ، فتزيدت الصوت :

وما لي لا أبكي وأندب ناقتي

اذا صدر الرعيان ورد المناهلِ

وكنت اذا مـــا اشتدّ شوقي رحلتها

فسارت بمحـزون كثير البـلابـل

فتزلزلت ، والله ، الدارُ عليهم ، وخرج الخادم ، وقال : ويحك ! لمن هذا الغناء ؟ قلت : لي ، فرجع . ثم خرج ، فقال : كذبت ! هذا غناء ابن جامع . فقلت : أنا إسماعيل بن جامع . فما شعرت إلا وأمير المؤمنين الرشيد وجعفر بن يحيى قد أقبلا من وراء الستر ، فقال لي الفضل : هذا أمير المؤمنين ! قد أقبل إليك . فلما صعد السرير وثبت قائماً ، فقال لي : ابن جامع ؟ قلت : ابن جامع ، جعلني الله فداك ! قال : ويحك ! متى كنت في هذه البلدة ؟ قلت : آنفاً في الوقت الذي علم بي أمير المؤمنين . قال : إجلس ، يا ابن جامع . ومضى هو وجعفر ، فجلسا في بعض تلك المجالس ، وقال لي : إبشرْ وابسط أملك . فدعوت له . ثم قال : غنِّ ، يا ابن جامع ! فحضر بقلبي صوت الجارية الحميراء ، فأمرت الرجل بإصلاح العود وزنا وتعاهده حتى استقامت الأوتار ، وأخذت الدساتين مواضعها ، وانبعثت أغني بصوت الجـارية :

شكونا الى أحبابنا طـول ليـلنـــا

فقالوا لنـا : ما أقصرَ الليل عندنـا !

وذاك لأن النوم يغشى عيـونهـــم

سراعـاً ومـا يغشى لنـا النوم أعيُنا

فلو أنهـم كانوا يـلاقون مثلَ مـــا

نـلاقي لكانوا في المضـاجع مثلنـا

فنظر الرشيد الى جعفر ، وقال : أسمعت كذا قطّ ! قال : لا ، والله ، ما طرق سمعي مثله . فرفع الرشيد رأسه الى الخادم قريب ، فدعا بكيس فيه ألف دينار ، فرَسى به اليّ ، فصيرته تحت فخذي ، ودعوت لأمير المؤمنين . فقال : يا ابن جامع ! رُدَّ على أمير المؤمنين هذا الصوت . فرددته ، فتزيّدت

فيه . فقال لـه جعفر : ياسيدي ! أما تراه كيف يتزيد في الغناء ؟ هذا خلاف ما سمعناه أوّلاً ، وإن كان الأمر في اللحن واحداً . فرفع الرشيد رأسه الى ذلك الخادم ، فدعا بكيس آخر فيه ألف دينار ، وقال : تغَنَّ يا إسماعيلُ ما حضرك . فجعلت أقصد الصوت بعد الصوت مما كان يبلغني أنه يشتري عليه الجواري ، فأغنّيه . فلم أزل أفعل ذلك الى أن عسعس الليل ، فقال : أتعبناك ، يا إسماعيل هذه الليلة بغنائك ! فأعِدْه على أمير المؤمنين (يريد صوت الجارية) . فتغنيت . فدعا الخادم ، وأمره فأحضر كيساً ثالثاً فيه ألف دينار ، فتذكرت ما كانت الجارية قالت لي ، فابتسمت ولحظني . فقال : ويحك ! مِمَّ تبسّمت . فقلت : يا أمير المؤمنين ! الصدقُ منجاة . فقال لي : قل . فقصصت عليه خبر الجارية . فلما استوعبه ، قال : قد يكون هـذا . وقام . ونزلت من السريـر ، ولا أدري أين أقصد . فابتدرني فرّاشان ، فصارا بي الى دار قد أمر بها أمير المؤمنين ، أعـدَّ فيها جميع ما يكون في مثلها من آلةِ جلساءِ الملوك ، وندمانهم : من خـدمٍ وجَوارٍ ووُصَفاء ، فدخلتها فقيراً ، وأصبحت من جِلّة أهلها ومن مياسيرهم .

★

كلف الخلفاء العباسيون بالغنـاء والسماع ، وتبعهـم في ولعهم هذا الأمراء والأعيان ، وتفشّى الغِناء في طبقات الشعب عامة . وكان الخلفاء والوزراء والتجار ينفقون على رفاهيتهم عن سعة ، ويحيون حياة منعمة ، فحفلت قصورهم بالمغنين والموسيقيين . وكانت تزدان بمـظاهر البَذْخ والفن والزينـة . فازدانت بالرياش الثمينة والسُّرُر المطعمة ، ونضدت في صدورها الخزفيات والمزهريات المرصعة بالأحجار والمذهبة بالوشي ، وعلقت على منافذها الستائر المفوّفة والمكتوبة بالحروف المذهبة بالآيات المبشرة والأشعار المطربة .

وقد أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفُرْس ، فكانوا طبقات ثلاثاً : الخليفة في صدر المجلس ، يليه أبناء الخلفاء وسَرَوات البيت العباسي ، يقابلهم

أهل الخدمة بالفن والغناء ، والطبقة الثانية هم بطانة الملك أو الخليفة وندماؤه ووزراؤه ومحدثوه ، يقابلهم أصحاب أهل الموسيقى من الطبقة الثانية ، ثم الطبقة الثالثة وهم أهل الدُّعابة والهَزْل ، وكان يقابلهم أصحاب المعازف والطنابير والمزامير . وكان لايزمر الحاذق من الزامرين إلا على الحذّاق من المغنين .

وكان أشهر الخلفاء العباسيين ولعاً بالغناء والموسيقى هو الرشيد ، فقد فاق من سبقه ، واجتمع في عهده مالم يجتمع في بلاط خليفة قبله ولا بعده . اجتمع في وقت واحدٍ ابراهيم الموصلي، واسماعيل أبو القاسم ، وابن جامع ، وزلزل الضارب (منصور الضارب) ، وبرصوم الزامر ، ومسكين المدني ويعرف بابن صدقة . وكان هارون يجزل لهم العطاء ، ويعلي منزلتهم ، ويكرم أهل الفن والقلم ، ويقدر منازل الموهوبين من كل علم، لذلك قال المؤرخون (واللفظ لصاحب الفخري) : « لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحدٍ منهم أجزل صلة ،ويرفعه الى أعلى درجة .

وكان ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق قد نالا قصب السبق ، وحظيا برضى الخلفاء . وكان ابراهيم أول من غنى الرشيد بعد توليه الخلافة :

اذا ظُلَمُ البلادِ تجلـلتنـا
فـهـارونُ الإمـام لهـا ضيـاءُ
بهـارونَ استقام العـدلُ فينـا
وغـاض الجـورُ وانفسح الرجـاءُ
رأيت النـاس قد سكنوا اليـه
كما سكنتْ الى الحـرم الظِبـاءُ
تَـبِـعْتَ من الرسول سبيلَ حقّ
فشأنُك في الأمور بـه اقتـداءُ

والى ابراهيم الموصلي يرجع الفضل في تعليم الجواري الغناء في عصره . فقد روى صاحب الأغاني عن إسحاق عن ابراهيم ، قال : « لم يكن الناس يعلمون

الجارية الحسناءَ الغناء ، وإنما كانوا يعلمونه الصُّفْرَ والسُّودَ . وأول من علّم الجواري المثمنات أبي ، فانه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من قدرهن » .

وفيه يقول أبو عيينة محمد بن أبي عيينة المهلبي ، وقد هَوِيَ جارية يقال لها « أمان » ، فأغلى بها مولاها السوم ، وجعل يردّدها الى ابراهيم واسحاق ابنه ، فتأخذ عنهما . فكلما زادت في الغناء ، زاد في سومه ، فقال أبو عيينة :

قلتُ لما رأيت مولى « أمانٍ »
قد طغى سومه بها طغيانا :
لاجزى الله الموصلي أبا إسـ
ـحاق عنّا خيراً ولا إحسانا
جاءَنا مرسلا بوحي من الشيـ
ـطان أغلى به علينا القِيانا
من غناءٍ كأنه سكرات الـ
حبّ يُصبي القلوب والآذانا

ومن أغاني ابراهيم الموصلي :

ولي كَبِدٌ مقروحة ، مَنْ يبيعني
بها كَبِداً ليست بذات قروحِ ؟
أباها عليَّ الناسُ لا يشترونها ،
ومن يشتري ذاعلّة بصحيحِ ؟
أئنّ من الشوق الذي في جَوانحي
أنينَ غصيصٍ بالشراب جريحِ

ومن أغانيه :

ألا يا حمامات اللوى ، عُدْنَ عودةً
فإني الى أصواتكن حزينُ

فعُدْنَ. فلما عُدْن ، كِدن يُمتنني،
وكدت بأسراري لهــن أبــينَ
دَعَوْنَ بترداد الهدير ، كأنمــا
سقيــن حُـمَيّا ، أو بهــنّ جنــونُ
فلم ترَ عيني مثلَهــن حمائمــاً
بَكَيْنَ ، ولم تدمَعْ لهنّ عيونُ!

وغنى إسحاق الموصلي :

أتبكي عــلى بغـداد وهي قريبة ؟
فكيف إذا ما ازددت منها غداً بُعدا؟
لَعَمْرُكَ ! ما فارقت بغداد عن قِلىً
لو انّا وجدنا عـن فراقٍ لها بُـدّا
اذا ذكرت بغداد نفسي تقطعـت
من الشوق أو كادت تموت بها وجدا
كفى حزَناً أنْ رحت لم أستطِعْ لها
وداعاً ، ولم أُحدث بساكنها عهدا

★

ولم تقتصر هذه المجالس على الخلفاء وحدهم ، بل تعدتهم الى الأمراء وغيرهم من كبار رجال الدولة،بل تعدتهم الى الأعيان والتجار والعامة .

وصف المبرد مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين،فقال: « ارتاح محمد بن عبد الله بن طاهر للمنادمة،وقد حضره ابن طالوت، وكان من أخصّ الناس به ، وقال : لابُدّ لنـا من ثالث تطيب لنا به المعاشرة ، وتلذ بمنادمته المؤانسة . فمن ترى أن يكون ؟ واعفنا أن يكون شرير الأخلاق ، أو دنس الأعراق، أو ظاهرَ الإملاق ! فأعمل ابن طالوت الفكر ، فقال: أيها الأمير ! خطر ببالي رجل ليس علينا من مجالسته من مُؤْنَة ، وقد برىء من ابرام

المجالسين (أي خفيف الروح) ، وخلا من ثقل المؤانسين ، خفيف الوطأة اذا أحببت، سريع الوثبة إذا أمرت . قال : ومن ذلك ؟ قال : ماني المُوَسْوِس . قال : أحسنت . فلما أحضر ، غنّتْ (مؤنسة) جارية بنت المهديّ :

ولست بناسٍ اذْ غدوا فتحملوا
دموعي على الأحباب من شدة الوجد
وقولي ، وقد زالت بليلٍ حمولهم
بو اكر نجدٍ لا يكن آخر العهد

فقال ماني : أحسنت ، وبحق الأمير إلا ما زدتَ :

وقمت أناجي الفكر والدمع حائر
بمقلة موقوف على الضر والجهد
ولم يعدني هذا الأمير بَضرَّةٍ
على ظالم قد لجّ في الهجر والصدِّ

فاندفعت تغنيه . فقال محمدٌ : أعاشق أنت،ياماني ؟ فاستحيا . وغمزه ابن طالوت أنْ لايبوح له بشيٌ ، فيسقط من عينيه . فقال : بلغ طرب وشوق كان كامناً فظهر ، وهل بعد الشيب صَبْوَةَ ؟

ثم اقترح محمد على (مؤنسة) هذا الصوت :

حجبوها عن الرياح ، لأنـي
قلت : ياريحُ ! بلّغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ، ولكن
منعوها عن الرياح الكلاما

فغنته ، فطرب محمد ، فقال ماني : ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه : فتنعست ، ثم قلت لطيفي :

آهِ إن زرت طيفها إلماما

خُصَّهُ بالسلام مني ، فأخشى

يمنعوها لشقوتي أن تناما

لكان أثقب لزند الصبابة بين الأحشاء ، وأشدّ تغلغلا الى الكبد الصدي من زلال الماء ، مع حسن تأليف نظامه ، والانتهاء بالمعنى الى نهاية تمامه . فقال محمد : أحسنت ، يا ماني ! ثم أمر مؤنسة بإلحاقهما بالبيتين الأولين ، والغناء بهما . ففعلت ، ثم غنت :

يا خليليّ ساعة لاتَريما

وعلى ذي صبابةٍ فأقيما

ما مررنا بدار زينبَ إلا

هتك الدمع سرَّنا المكتوما

فقال ماني : لولا رهبة التعدي ، لأضفت الى هذين البيتن بيتين لايردان الى سمع ذي لبٍ فيصدران الا عن استحسان لهما . فقال محمد : يا ماني ! الرغبة في حسن ما تأتي به حائلة دون كل رهبة ، فهاتِ ما عندك . فقال :

ظبية كالهلال لو تلحظ الصخـ

ـر بطرف لغادرته هشيما

واذا ما تبسمت خِلْتَ إيما

ضَ بروق ، أو لؤلؤاً منظوما

فقال : أحسنت ، يا ماني ! فأجِزْ هذا الشعر :

لم تطلب اللذات إلا بمن

طابت به اللذات مأنوسهْ

غنت بصوت أطلقت عبرةً

كانت بسجن الصبر محبوسه

فقال ماني :

وكيف صبر النفس عن غادةٍ
تظلمها إن قلت طاوُوسهْ
وجُرتَ إن سميتها بانةً
في جنة الفردوس مغروسَهْ
وغير عدلٍ إن عدلنا بها
جوهرة في البحر مغموسهْ

ثم سكتت . فقال محمد : ما عدا في وصفه لها . فقال ماني :

جَلَّتْ عن الوصف ، فما فكرة
تلحقها بالنعت محسوسهْ

فقال محمد : أحسنت . فقالت مؤنسة : وجب شكرك يا ماني ، فساعدك وعطف عليك إلفك ، وقارنك سرورك ، وفارقك محذورك ، واللهُ يديم لنا ذلك ببقاء مَنْ به اجتمع شملنا . فقال لها ماني :

ليس لي إلف فيعطفني
فارقت نفسي الأبا طيلُ
أنا موصول بنعمةِ مَنْ
حبله بالمجد موصولُ
أنا مغبوط بنعمةِ مَنْ
طبعه بالخير مجبولُ .

الى آخر الحديث .

وكان انتشار الغناء وتفشّي دور اللهو راجعاً الى كثرة الجواري وبراعتهن بالغناء ، وتعلمهن فنّ الحديث وآداب المنادمة .

وكان للمعتمد مجالسات ومذاكرات قد دونت في أنواع الآداب ، منها : مدح النديم ، وذكر فضائله ، وما قيل في ذلك من المنثور والمنظوم ، وهيأة

السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصول الغناء ، وأخبار المغنين ومراتبهم . قال العَطَوي في ذلك :

حيِّ التحيـة أصحـاب التحيـات
القائليـن اذا لم نَسْقِـهـم : هـات!
أمّـا الغـداة فسكْرَى في نعيمِـهـمُ
وبـالعشيِّ فَصَرْعى غيـر أمـواتِ
وبين ذلك قصف لا يعـادِلُـه
قصف الخليفـة مـن لهـوٍ ولـذّاتِ

★

وازدهر الغناء في بغداد ، واشتهرت قيان بالعزف والغناء ، ولاسيّما في الأعياد والمواسم ، وفي حفلات التتويج ، وكان للمهرجان والنَّوْرُوز مجالس صخب ورقص وزَمْر . وكان في بغداد مجالس عامة ، يؤمها الناس للترفيه والسماع . ناهيك بما كان للخلفاء والعِلْية من أهل بغداد من المجالس الخاصة والمغنين المرتبين . وهذا ابن الرومي الشاعر الوصّاف ، يصف لنا مجلساً للعازفات والمغنيات ، في عيد من هذه الأعياد التي تفنّن البغداديون بإحيائها وإقامة زيناتها . قال :

مِـهْرَجان كأنما صَوَّرتْـــه
كيف شاءت مُخيَّـراتُ الأمـاني
وأُدِيـلَ السُّرورُ واللهـو فيـه
مـن جميـع الهمـوم والأحـزانِ
لَبِسَتْ فيـه حَلْيَ حفلتهـا الدّنـْ
ـيا وزافت [1] في منظـر فتـانِ

---

(1) زافت : تبخترت واختالت .

وأذالت من وَشْيِها كُلَّ بُرْدٍ
كانَ قِدماً تصونه في الصِّوانِ

وقِيانٍ كأنّها أمّهاتٌ
عاطفاتٌ على بنيها حَوانِ

حاملات وما حملن جَنيناً
مُرْضِعاتٍ ولسن ذاتَ لِبانِ

مُلقمات أطفالهن ثُديّاً
ناهدات كأحسن الرُّمّانِ

مُفْعَمات كأنّها حافلات
وَهْي صِفرٌ من درَّة الألبانِ

كلّ طفل يُدعى بأسماء شتّى
بينَ عود ومِزْهَر وكِرانِ

أمّه دهرها تترجم عنه
وهو بادي الغنى عن الترجمانِ

غيرَ أنْ ليس ينطِق الدهرَ إلّا
بالتزام من أمّه واحتضانِ

أُوتِي الحكمَ والبيانَ صبيّاً
مثل عيسى ابنِ مريم ذي الحنانِ

لو تُسَلّى به حديثةُ رزءٍ
لشفى داءَ صدرها الحَرّانِ

عجباً منه ! كيف يُسلِي ويُلْهِي
مَعَ تَهْييجِه على الأشجانِ ؟

فترى في الذي يُصيخ إليه
أمرات المحزون والجَذْلانِ

وتغنته بالمدائح فيه
كلُّ غيداءَ غادةٍ مِفْتانِ
ذات صوت تهزّه كيف شاءت
مثلما هزّتِ الصَّبا غصنَ بانِ
يتثنّى فينفُضُ الطَّلَّ عنه
في تثنّيه مثل حَبّ الجُمانِ
جَهْوَرِيٌّ — بلا جفاء على السم
ـع — مَشوب بغُنّةِ الغِزْلانِ
فيه بَمٌّ وفيه زِيرٌ من النَّغْ
ـمِ ، وفيه مَثالِثٌ ومَثاني
فتراه يَجِلُّ في السمع حيناً
وتراه يَدِقُّ في الأحيانِ
يَلِجُ السمعَ مستمرّاً الى القلـ
ـب بلا إذنٍ لا ولا استئذانِ
ليس تخفى أنفاسُها ، إنها أنفا
سُ مهضومة الحشا خُمْصانِ
فَهْيَ كالسابق المُضَمَّرِ يجري
لا حقَ الأَيْطَلَيْنِ غوج اللبانِ
صيغَ من طبع صوتها كلُّ لحنٍ
معها من لحونِ تلك الأغاني
أعجميٌّ أنينهُ ، عربيّ
مجده ينتمي الى عدنان

★

الغــلاء في بغــداد

كانت الأموال تتدفق على بغداد أيام الرشيد ، وتُجبى اليها الخيرات من أنحاء الدنيا . اتسعت رقعتها وازدحمت بسكانها ، وزحفت اليها جموع المهاجرين من مختلف أصقاع المعمورة ، وتدفقت سيول أبناء الريف وراء لقمة العيش ، فلا عجب اذا ارتفعت فيها الأسعار ، ولا عجب اذا ضجّ فقراؤها وذوو الدخل المحدود كما هي الحال في كل بلد اليوم .

فقال أبو العتاهية يشكو الى الرشيد الضائقة ، ويُهيب به الى أن يتدارك أبناء شعبه ، ولا سيما المحرومين والبائسين ، فقال :

من مُبْلِغٌ عني الإمــا ... مَ نصائحــاً متواليَــهْ
إني أرى الأسعــــا ... رَ أسعــارَ الرعيّــة غاليهْ
وأرى المكاسب نزرةً ... وأرى الضرورة فاشيهْ
وأرى غموم الدهر را ... ئحــةً تَمُــرُّ وغاديــهْ
وأرى اليتامــى والأرا ... مِــلَ في البيوت الخاليَــهْ
مــن بين راجٍ لم يزل ... يسمــو إليك وراجيَــهْ
يشكــون مجهــدةً بأصــ ... ــواتٍ ضعــافٍ عاليَــهْ
يرجون رفدك كي يروْا ... ممــا لقوه العافيَــهْ
من يُــرتجى للناس غيـــ ... ـــرك للعيون الباكيــةْ ؟
من مُصْبِيات جُــوَّعٍ ... تُمسي وتُصْبِحُ طاويَــهْ
من للبطون الجائعــا ... تِ ، وللجسوم العاريــهْ
يا ابنَ الخلائف ، لا فقد ... تَ ولا عدمت العافيَهْ
ألقيتُ أخبــاراً اليـــ ... ــك من الرعيــة شافيــهْ

★ ★ ★

نكبة بغداد بعد وفاة الرشيد

كانت ولاية العهد من أهم أسباب الفتن والفساد طَوالَ العهدين الأمويّ والعباسي ، فقد حمل الحب والأَثَرةُ الخلفاء منذ قيام الدولة الأموية على أخذ البيعة لأولادهم ، الواحد بعد الثاني والثالث . وعلى الرغم مما جرّت ولاية العهد على الأسرة الحاكمة وعلى الأمة العربية من فتن وانقسامات ، لم يعتبر الخلفاء العباسيون بما حصل للذين كانوا قبلهم ، فارتكبوا الأخطاء نفسها . هذا الرشيد الموصوف بالعقل وحسن التدبير والتبصر بالعواقب ، دفعه حب الولد وإرضاؤهم الى تقسيم الإنبراطورية الإسلامية الواسعة بين أولاده الثلاثة ، وجعلهم ولاة عهده ، يليها الأمين ، ثم المأمون ، وبعده المؤتمن (المعتصم) ، فألقى بأسهم بينهم ، وراش سهام العداوة ووجهها الى صدورهم ، وكانت عاقبة ما صنع في ذلك محفوفة بالمصائب والمهالك . فقال أحد الشعراء البغداديين يتوقع الشرّ وحلول النكبة ، وينذر الأمة بحرب عَوانٍ لابدّ أن تسعر نارها بين الإخوة ، يلقى الناس من ورائها شراً مستطيراً ، ويلبس الخلافة وأهلها بلاء غير فانٍ ، قال :

أقول لغُمّةٍ في النفس منّي ،
ودمعُ العين يَطّرِدُ اطّرادا :
خذي للهول عُدّتَهُ بحزمٍ
ستَلْقَيْ ما سمِعْتِ لكِ الرُّقادا
فإنك إن بقيت رأيت أمراً
يطيل لك الكآبة والسُّهادا
رأى الملك المهذّب شرَّ رأي
بقسمته الخلافةَ والبلادا

رأى مالو تعقّبه بعلم
لَبَيَّض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بَنِيه
خِلافَهُمُ ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غيرَ آل
وأورثَ شمل ألفتهم بدادا
وألْقَحَ بينهم حرباً عَواناً
وأسلس لاجتنابهم القيادا
فويلٌ للرعية عن قليل
لقد أهدى لها الكُرَبَ الشِدادا
وألبسها بلاءً غير فان
وألزَّمها التضعضع والفسادا
ستجري من دِمائِهُمُ بحورٌ
زواخرُ لايرون لها نَفادا
فوِزرُ بلائهم أبداً عليه
أَغَيّاً كان ذلك أم رشادا ؟

فكان ما توقعه ، ووقع ما تكهنه .

فقد نقض الأمين عهد الرشيد ، ودعا الى بيعة ولده ، وكانت فرصة اهتبلها أعداء العرب من المتسللين الى مناصب الدولة والقيادة، فوسعوا الخلْف بين الأخوين، وأشعلوا نار الفتنة بين بغداد ومَرْوَ، وسارت جيوش المأمون بقيادة طاهر الأعور بن الحسين الخُزَاعي بالولاء وزهير بن المسيب وهرثمة بن أعين ، وتوجهوا الى بغداد ، وكانت جيوش الأمين تلقى الهزيمة تلو الهزيمة حتى طوّقت عساكرُ خراسان بغداد. فنزل زهير بن المسيب الضَبّيّ برقة كلواذَى، ونصب المجانيق وحفر الخنادق . ونزل هرثمة « نهر بين »، وعمل عليه خندقا

وسوراً ، ونزل عبيد الله بن الوضاح « الشمّاسية » ، ونزل طاهر البستان الذي بباب الأنبار . ودام الحصار أربعة عشر شهراً ، لقي الناس خلالها بلاءً وضيقاً وشدّة ، قتلاً ونهباً وتدميراً ، فكثر الخراب والهدم ببغداد ، ودرست المنازل ، ووحشت الطرقات ، وأصاب البغداديين جهد وجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات . فقال الشعراء في وصف هذه النكبة شعراً كثيراً ، من ذلك قول الحسين الخليع :

أتسرع الرحلة إغْذاذا
عن جانبيْ بغداد ، أم ماذا ؟
أما ترى الفتنة قد ألّفت
الى أولي الفتنة شذّاذا
وانتقصت بغداد عمرانها
عن رأيِ لا ذاك ولا هَذا
هدماً وحَرْقاً قد اباد أهلها
عقوبة لاذت بمن لاذا

وخرج عنها الناس بحجة الحج تخلصاً من البلاء الذي حلّ بأهلها .

أظهروا الحج وما يَنْوُونَه
بل من الهرش يريدون الهَرَبْ
كم أناس أصبحوا في غبطة
وَكُلَّ الهرش عليم بالغضب

★

وقال بعض فتيان بغداد ، ولم أجد في المصادر قائل هذه الأبيات :

بكيتُ دماً على بغداد لمّا
فقدتُ غضارةَ العيش الأنيقِ
تَبَدّلْنا هموماً من سرور
ومن سَعَةٍ تَبدّلْنا بضيقِ

أصابتنا من الحُسّاد عينٌ
فأفنت أهلها بالمَنْجَنيقِ
فقومٌ أُحْرِقُوا بالنار قسراً
ونائحةٌ تنوحُ على غريقِ
وصائحة تنادي واصباحا !
وباكيةٌ لفقدانِ الشقيقِ
وحوراءُ المدامع ذاتُ دَلّ
مضمّخة المجاسد بالخَلُوقِ
تَفِرُّ من الحريق الى انتهاب
ووالدُها يَفِرُّ الى الحريقِ
وسالبةُ الغزالة مقلتيها
مَضاحِكُها كلألاء البروقِ
حَيَارَى كالهدايا مُبْكِرات
عليهن القلائدُ في الحلوقِ
ينادين الشقيقَ ولا شقيقٌ
وقد فُقِدَ الشقيقُ من الشقيقِ
وقومٌ أخرِجُوا من ظِلّ دُنيا
مَتَاعُهُمُ يُباعُ بكلِّ سُوق
ومغتربٌ قريبُ الدار مُلْقىً
بلا رأسٍ بقارعة الطريقِ
توسط من قتالِهِمُ جميعاً
فما يدرون من أيِّ الفريقِ
فلا وَلَدٌ يقيم على أبيه
وقد هَرَبَ الصديق من الصديقِ

ومهما أنسَ من شيءٍ تولى
فإني ذاكرٌ « دار الرفيقِ »

★

ووصف الحسين بن الضحاك نساء قصر الخلافة في فتنة الأمين والمأمون ورثى الأمين ، ومنه قوله :

هتكوا بِحرمتك التي هُتِكت
حُرَمَ الرسول ودونَها السُّجُفُ
وثَبَتْ أقاربُك التي خذلت
وجميعُها بالذلِّ مُعتَرِفُ
أبدت مُخَلْخَلها على دَهَش
أبكارُهُنَّ ورَنَّتِ النَّصَفُ
سُلِبَتْ مَعاجِرُهُنَّ واجتُلِيَتْ
ذات النِقاب ونوزع الشَّنَفُ
فكأنَّهنَّ خِلالَ مُنتَهَب
دُرٌّ تكشَّفَ دُونَهُ الصَّدَفُ
مَلِكٌ تَخَوَّن مُلكَهُ قَدَرٌ
فَوَهى ، وصرفُ الدهرِ مختلفُ
هيهاتَ بعدَك أن يدومَ لنا
عِزٌّ ، وأنْ يبقى لنا شَرَفُ
يامنُ يخَوِّن نومَهُ أَرَقٌ
هدت الشجون وقلبُه لَهِفُ
قد كنتَ لي أملاً غَنِيتُ به
فمضى ، وحلَّ محلَّه الأَسَفُ

مَرِجَ النظامُ ، وعاد مُنكَرُنا
عُرْفاً ، وأُنكِرَ بعده العُرُفُ
والشمل منتشرٌ لفقدك والـ
ـدنيا سدى والبال مُنكسِفُ

★

ووصف شاعر من المحمدية (أصحاب محمد الأمين) هذه الفتنة ، فقال :

لنا كلَّ يوم ثلمة لا نَسُدُّها
يَزيدون فيما يطلُبون وننقُصُ
إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها ،
ونحن لأُخرى غيرها نتربَّصُ
فقد ضيقوا من أرضنا كُلَّ واسعٍ
وصار لهم أهلٌ بها وتَعَرُّصُ
يثيرون بالطبل القنيصَ ، فإن بدا
لَهُمْ وجهُ صيدٍ من قريب تقَنَّصُوا
لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها
علينا ، فما ندري الى أينَ نشخَصُ
اذا حضروا قالوا بما يعرفونه ،
وإن لم يَرَوْا شيئاً فقبحاً تَخَرَّصُوا
وما قتلَ الأَحرارَ مثلُ مُحرّب
رسول المنايا لَيْلَهُ يتلَصَّصُ

★

ووصف الحسين بن الضحاك جواري« الخلد » واستحلال محارم الخلافة في هذه الفتنة الهوجاء ، والحسين بن الضحاك من أصحاب الأمين :

ومِمَّا شجا قلبي وكفكف عَبْرَتي
محارمُ من آلِ النَّبِيِّ استُحِلَّتِ

ومهتوكة بالخلد عنها سُجُوفُها
كَعاب كقرن الشمس حين تبدَّت
اذا خفرتها روعةٌ من منازع
لها المِرْطَ عادت بالخشوع ورنَّتِ
وسِرْب ظِباء من ذُؤابة هاشمٍ
هتفن بدعوى خيرِ حيٍّ وميّتِ
أرُدُّ يداً منّي إذا ما ذكرته
على كَبِدٍ حَرَّى وقلبٍ مُفَتَّتِ

★

وقال الخُرَيْمِيّ يعقوب بن اسحاق بن حسان بن قوهيّ الخريمي ، وأصله من خراسان من بلاد السُّغْد ، وكان متّصلاً بخُرَيْم بن عامر المُرّيّ وآله ، فنسب إليه . وله مدائح في محمد بن منصور بن زياد ويحيى بن خالد . وتعد قصيدته ملحمةً تصويرية قصصية استكملت كلَّ فنّ الملحمة ، مشاهدها مجسدة ، وأحداثها مصورة . وهو شاهد عيان في هذه النكبة التي حلت ببغداد ، وما زالت بغداد في عصرها الذهبي ، رواها الطبريّ في سنة ١٩٧[1] هـ ونقلها صاحب كتاب عصر المأمون ، وقال يذكر بغداد ويصف ما كان فيها من أحداث وقعت بين الأمين والمأمون ، والحصار الذي ضربه طاهر بن الحسين على بغداد، وقد دام ١٤ شهراً :

قالوا ولم يلعب الزمان ببغدا
دَ و تَعثُرْ بها عَواثِرُها
إذْ هي مثل العروس باديها
مُهَوَّلٌ للفتى وحاضرُها

(١) ١٠/١٧٦ ـ ١٨٠ ، المطبعة الحسينية ، القاهرة .

جنــةُ دنيــاً ودار مَغْبَـطــــة
قَــلَّ مــن النــائبات واتــرُهــا[1]
دَرّتْ خُـــلوفُ الدُّنيــا لساكنها
وقَلَّ معسورُهــا وعاسرُهــا
وانفــرجت بالنعيــم وانتجَعَــتْ
فيهــا بلـذّاتهــا حَــواضِــرُهـا
فـالقــوم منهـا في روضــة أُنُــف
أشرقَ غيــبَ القِطــارِ زاهرُهـا
مـن غَـرَّه العيش في بُـلَهْنِيَــة
لــو أنّ دنيـا يدُوم عامِـرُهــا
دارُ مـلــوكٍ رست قــواعـدهـا
فيهــا ، وقــرّتْ بها منـابـرهـا
أهــل العـلى والثرى وأنــديــة الـ
ـفخـر اذا عُدِّدَتْ مفـاخـرُهـا
أفــراخ نُعْـمَى في إرثِ مملكــة
شدَّ عُـراهــا لهــا أكابـرُهـا
فلــم يزل والـزمان ذو غِيَــر
يَقْـدَحُ في ملـكهـا أصاغرُهـا
حتى تساقت كأساً مُشَمِّلَــةً
مـن فتنـة لا يُقـال عاثـرهـا
وافتــرقـت بعـد ألفــةٍ شِيَعــاً
مقطـوعةٌ بينَـهــا أياصِـرُهـا
ياهــل رأيـت الأمــلاك مـا صنعت
إذ لم يَزَعْـهــا بالنصح زاجرُهـا

(1) اي مفزعها وذاعرها .

أوْرَدَ أمـلاكُنـا نفوسَهُـــمُ
هـوّةَ غيٍّ أعيت مَصادِرُهـــا
مـا ضَرَّهـا لـو وفت بمَـوْثِـقهـا
واستحكمـت في التقـى بصـائـرُهـا
ولم تسافـك دمـاء شيعتهـــا
وتبتعـلْ فتيـةٌ تـكابـرُهــــا
وأقنعتهـا الدنيـا التي جـمـعت
لها ، ورَغـبُ النـفـوس ضـائـرُهـا
مازال حـوض الأمـلاك [. . ؟ . .]
مسجورها بـالهـوى وسـاجـرُهـا
تُـبقى فضولَ الدنيا مكاثَـرةً
حتـى أُبيحـت كـرهـاً ذخـائرها
تبيع مـا جمّـع الأبـــوّة لـلْ
أبْـنــاءِ لا أربـحت متاجـرُهــا
يـاهل رأيـت الجنـانَ زاهــرةً
يـروقُ عيـنَ البصيـر زاهـرُهـا
وهـل رأيت القصورَ شارعـــةً
تُـكـنُّ مثلَ الدُّمى مقـاصِرُهـا
وهل رأيت القرى التي غرس الـ
أمـلاكُ مخضـرّةً دَساكِـرُهـا
محفوفـة بالكروم والنخـل والر
يحـان قـد دَميَتْ محاجـرهـا
قَـفْـراً خـلاءً ، تَعْـوي الكلاب بها
ينكِـرُ منهـا الرُّسُومَ داثـرُهـا

وأصبح البؤس ما يُفارِقُها
إلفاً لها ، والسرورُ هاجرُها
بيزَنْدَوَرْدٍ والياسريّة والشطّ   ين من حيث انتهت معابرها
وبالرحى والخَيْزُرانيّة الْـ   ـعُلْيا التي أشرفت قناطرها
وقصرِ عبدويْه عبرةٌ وهدى
لكلّ نفسٍ زكت سرائرُها
فأين حُرّاسُها وحارسُها ؟
وأين مجبورهُا وجابرُها ؟
وأين خِصيانُها وحِشوتها
وأين سكّانُها وعامِرُها
أين الجراديّة الصقالبُ وَالْـ   أَحْبُشُ تعدو هُدْلاً مشافِرُها
ينصدع الجند عن مواكبها
تَعْدُو بها سُرَّباً ضَوامِرُها
بالسِّنْد والهند والصقالب والـ   نوبة شيبت بها بَرابِرُها
طيراً أبابيلَ أرسلت عبثاً
يقدُمُ سودانَها أحامِرُها
أين الظِبّاء الأبكار في روضة الْـ   مُلْكِ تَهادَى بها غرائرها
أين غَضاراتها ولَذّتُها ؟
وأينَ محبورها وحابُرها ؟
بالمسك والعنبر اليماني وَالْـ   ـيَلَنْجُوجِ مشبوبةٌ مجامرُها
يرفُلْنَ في الخزّ والمجاسِدِ وَالْـ
مَوْشِيِّ مخطُومةً مَزامِرُها
فأين رقّاصُها وزامرُها
سجبن حيث انتهت حناجرُها

تـكادُ أسمـاءهـم تـسـلُ إذا

عـارضَ عِيـد انـهـا مـزامـرُهـا

أمست كجَـوفِ الحمـارِ خـاليـةً

يَسْعَـرُهــا بالجحيـم ساعـرُهـا

كأَنّما أصبحت بساحتهـم

عـادٌ ، ومستهُـم حَـمر اصيرُهـا

لاتعـلم النفس مـا يُسبـاغتهـا

مـن حـادث الـدهـر أو يُـبـاكرُهـا

تُضْحِـي وتُـمْسي دَرِيَّـةً غَـرَضاً

حيث استقـرّت بهـا شَـراشِرُهـا

لأسهُـم الدهـر وهـو يـرشقهـا

مُنِطُـهـا مـرّةً وبـاقِـرُهـا

يـابُـؤْسَ « بغـدادَ » دار مملـكـة

دارت عـلى أهـلـهـا دوائـرهـا

أمـهـلـهـا الله ، ثمّ عـاقـبـهـا

لمـا أحـاطت بـهـا كبـائِـرُهـا

بالخسف والقـذف والحريقِ وبالحـ

ـرب التي أصبحت تساورُهـا

حلت ببغداد وهي آمنـــةٌ

داهيـةٌ لم تـكـن تحـاذرُهـا

طـالعهـا السوءُ مـن مطـالعـه

وأدركت أهـلـهـا جرائـرُهـا

رقَّ بهـا الدين واستُخِفَّ بذي الـ

ـفَضْلِ وعـزّ النساكَ فاجرُهـا

وخـــطــم العبـــدُ أنفَ سيّــده

بالرغـم ،واستعبــد حــرائرهـــا

وصـــار ربَّ الجـيـــران فاسقُـهـم

وابْتَزَّ أمـرَ الـدروب ذاعــرُهـــا

من يَرَ بغــدادَ ، والجنـــودُ بـها

قــد ربضت حولها عساكرُهـا

كل طحـونٍ شهبــاء بــاسلـــةٍ

تسقـط أحبـالهــا زمــا جــرُهـا

تلقـى بغـــيّ الردى أوانسهـــا

يرهقهـــا للقـــاء طـاهــرُهــــا

والشيـخ يعـدو حــزمـا كتائبـــهُ

يـقـدم أعـجـازَهـــا يعـاوُرهـا

ولـزهيـرٍ بالقــول مــأســدة

مــرقــومـــة صلبـــة مـكاسرُهـا

كتـائـبُ المـوت تـحت ألـويـةٍ

أبـرح منصـورُهـــا ونـاصــرُهـا

يـعـلـم أن الأقـدار واقعـــــةٌ

وقعـاً عـلى مـا أحبّ قــادرُهـا

فتلك بغــــداد مـا يبنى من الدّ لـ

ـه في دورها عصا فــرُهـــا (؟*)

محفـوفـةٌ بــالـــردى منطّـقـــةٌ

بالصُّغـر محـــصـــورةٌ جبابـرُهـا

وبيــن شطّ الفـرات منـــه الى

دجـلـــة حيث انتهـت معابُـرهـا

كهادي السُّفراءِ نافرُه
تركض من حولها أشاقرُها(؟*)

يحرقها ذا ، وذاك يهدمها
ويشتفي بالنهاب شاطرُها

والكرخ أسواقها معطّلةٌ
يَسْتَنُّ عيّارُها وعائرُها

أخرجت الحرب من سواقطها
آسادَ غِيلٍ غُلباً تساورُها

من البواري تِراسُها ومن الْـ
خُوصِ إذا اسْتَلأَمَتْ مغافِرُها

تغدو الى الحرب في جواشنها الـ
صوف إذا ما عُدّت أساورُها

كتائب الهرش تحت رايته
ساعد طرّارَها مقامرُها

لا الرزق تبغي ولا العطاء ولا
يحشُرُها للقاء حاشرُها

في كلّ دربٍ وكل ناحيةٍ
خطّارة يستهلُّ خاطرُها

بمثل هام الرجال من فِلَق الـ
صخر يزود المقلاعَ بائرُها

كأنّما فوق هامها عدفٌ
من القطا الكُدرْ هاج نافرُها

والقوم من تحتها لهم زَجَلٌ
وهي تَرامَى بها خواطِرُها

بل هـل رأيت السيوفَ مُصْلَتَةً
شَهَرها في الأسواق شاهرُها
والخيلُ تستنُّ في أزقتها
بالترك مسنونةٌ خناجرُها
والنفط والنّار في طرائقها
وهابياً للدخان عامرُها
والنهبُ تعدو به الرجال وقد
أبدت خلاخيلَها حرائرُها
معصوصبات وسط الأزقّة، قد
أبرزها للعيون ساتِرُها
كلّ رَقُودِ الضحى مُخَبَّأة
لم تبد في أهلها محاجرُها
بيضة خدر مكنونة برزت
للناس منشورة غدائرُها
تعثُرُ في ثوبها، وتعجلها
كبّة خيلٍ ريعت حوافرُها
تسأل أين الطريق والهةً
والنارُ من خلفها تبادرُها
لم تجتل الشمس حسن بهجتها
حتى اجتلتها حربٌ تباشرُها
ياهَلْ رأيتَ الثكلى مُوَلْوِلَةً
في الطرق تسعى والجهد باهِرُها
في إثر نَعْشٍ عليه واحدها
في صدره طعنةٌ يساوِرُها

يحملن قُوتاً من الطحين على الـ
أكتافِ معصوبةً معاجرُها
وذات عيش ضنكٍ ومقعسة
تشدخها صخرة تَعاوَرُها
تسأل عن أهلها وقد سُلِبت
وابْتُزّ عن رأسها غفائرُها
يا ليتما والدّهرُ ذو دُوَلٍ
يرجى ، وأخرى تخشى بوادرُها
هل ترجعن أرضنا كما غنِيت
وقد تناهت بنا مصايرُها

★

مَنْ مبلغٌ ذا الرئاستين رسالا
تٍ تَأَتّى للنصح شاعرُها ؟
بأن خير الولاة قد علم النا
سُ إذا عُدّدتْ مآثرُها
خليفة الله من بريّته « الـ
مأمون » سائسُها وجابرُها
سمت اليه آمال أمّته
منقادةً بَرُّها وفاجرُها
شاموا حيا العدل من مَخايلِه
وأصحرت بالتقى بصائرُها
وأحمدوا منك سيرةً ، جَلَّتِ الـ
شَّكَّ ، وأخرى صحّت معاذرُها
واستجمعت طاعة برفقك لل
مأمون نَجْديُّها وغائرُها

فرعــاءُ ينقى الشنار مريـدهـا
يهـزّهـا بـالسّنـان شاجـرُهــا
تنظـر في وجهـه وتهتـف بالـ
ـثُكْل وعـزّ الدموع خـامـُرها
غَـرْغَـرَ بالنفس ثم أسلمهـــا
مطلولـةً لايخـاف ثائرُهــــا
وقد رأيت الفتيان في عَـرْصَـة الْـ
ـمَعْـرَك مصبورةً مناخـرُهــا
كلّ فتى منّـاع حقيقتَـه (؟)
تشقـى بـه في الـوغى مساعـرُها
باتت عليه الـكلاب تنهشُـه
مخضوبـةً مـن دمٍ أظافـرُهـا
أمـا رأيـت الخيـول جـائلـــة
بـالقـوم منكوبـة دوائـرُهــا
تعثُرُ بالأوجـه الحسان مـن القتـ
ـلى ، وغُـلَّت دماً أشاعرُهــا
يطـأن أكباد فِتيـة نُجُـــدٍ
يفلِـق هـامـاتِهـم حـوافرُها
أما رأيت النساء تحت المجــانيـ
ـق تَـعَـادَى شُعْثاً ضفـائرها ؟
عقـائل القـوم والعجائز والعُـ
ـنَّس لم تخيرّ معـا صُرهـا (٥)

وأنت سمعٌ في العالمين لـــه
ومُـقْـلةٌ ما يَكِيلُ ناظرُها
فاشكر لذي العرش فضلَ نعمته
أوجب فضل المزيد شاكرُها
واحذر فداءٌ لك الرعية وال
أجنادُ مأمورُها وآمرُها
لا تَرِدَنْ غَمْرَةً بنفسك لا
يصدُرُ عنها بالرأي صادرُها
عليكَ ضَحْضاحُها فلا تَلِجِ ال
غمرة ملتجَّةً زَواخِرُها
والقصْدَ ، إن الطريق ذو شُعَب
أشأمُها وَعْثُها وجائرُها
أصبحتَ في أمةٍ أوائلُها
قد فارقت هديَها أواخرُها
وأنت سُرْسُورُها وسائسُها ،
فهل على الحقّ أنت قاسرُها ؟
أدِّبْ رجالاً رأيت سيرتهم
خالف حكمَ الكتاب سائرُها
وامدُدْ الى الناس كَفَّ مرحمة
تُسَدُّ منهم بها مَفاقِرُها
أمكنك العدل إذْ هممت به
ووافقت مدَّه مقادِرُها
وأبصر الناس قصد وجههمُ
وملكت أمَّة أخايرُها

تشرع أعنـاقـهـا اليـك إذا لا
سّادات يـوماً جـمـّت عشائرُهـا
كـم عندَنا مـن نـصيحـة لك في الـ
ـلّه وقربى عـزّت زوافـرُهـا
وحـرُمـة قـربـت أيـاصِـرُهـا
منك أخرى ، هـل أنت ذاكرُها ؟
سعيُ رجـال في العـلـم مطلبُهم
رائحهـا بـاكـرٌ وبـاكـرُهـا
دونَـك غـراء كالـوذيـلـة ، لا
تفـقـد في بلـدةٍ سوائـرُهـا
لا طـمـعـاً قـلـتُهـا ولا بَـطَـراً
لـكلّ نَـفْس نفس تـؤامـرُهـا
سيّرهـا الله بالـنصيحـة والـحشـ
ـيـة فاستَـدمجت مـرائـرُهـا
جـاءتـك تحكـى لك الأمـور كما
ينشُرُ بَـزَّ التِـجـار نـاشرُهـا
حـمّـلتهـاصاحـبـاً أخـائقـة
يَـظَـلّ عُـجْـباً بـهـا يُحـاضِرها

★

ذاك انتقام الله :

وكان يعاصر هذه الفتنـة شاعر يعـرف بالأعمى ، ويسمى بعلي بن أبي طالب . وَقَـفَ الكثير من شعره على التـوجع والتفجع لِما حَلّ بالبغـداديين ، ووصف الفتنة وصفاً دقيقـاً . ومن أشهـر قصائده قصيدته الرائيـة ، قـال :

تقطعتِ الأرحام بين العشائر
وأسلمهم أهلُ التقى والبصائرِ
فذاك انتقام الله ِ من خلقه بهم
لما اجترموه من ركوب الكبائرِ
فلا نحن أظهرنا من الذّنْب توبةً
ولا نحن أصلحنا فساد السرائرِ
ولم نستمع من واعظٍ ومُذكّرٍ
فَيَنْجحَ فينا وعظ ناهٍ وزاجرِ
فأصبح بعض الناس يقتُلُ بعضهم
فمن بين مقهور ذليل ٍوقاهرِ
وصار رئيس القوم يحمل نفسه
وصار رئيساً فيهم كُلُّ شاطرِ
فلا فاجرٌ للبَرّ يحفَظُ حُرمةً
ولا يستطيع البَرُّ دفعاً لفاجِرِ
تراهم كأمثال الذئاب ، رأت دماً
فأمَّتْهُ ، لا تلوي على زجرِ زاجرِ
وأصبح فُسَّاق القبائل بينهم
تشُدُّ على أقرانها بالخناجرِ
فأبك لقتلى من صديقٍ ومن أخٍ
كريم ومن جار شفيقٍ مجاور
ووالدةٍ تبكي بحزنٍ على إبنها
فيبكي لها من رحمةٍ كل طائر
وذات حليل أصبحت وهي أيِّمٌ
وتبكي عليه بالدموع البوادرِ

تـقـول لـه : قـد كنت عزاً وناصراً ،

فَـغُـيِّـبَ عنّي اليوم عزّي وناصري

وأبكِ لإِحراقٍ وهَـدْمِ مَنازِلٍ

وقتلٍ وإنهـابِ اللهـى والذخائرِ

وإبراز ربّات الخُـدُور حواسراً

خَـرَجْـنَ بلا خُمْرٍ ولا بمآزِرِ

تـراهـا حيـارى ليس تعرِف مذْهَباً

نـوافرَ أمثال الظّبـاء النـوافـرِ

كأنْ لم تكـن « بغـدادُ » أحسنَ منظراً

وملـهىً رأتـه عينُ لاهٍ ونـاظرِ

بَـلَى ! هكذا كانت ، فأذهب حسنَها

وبَـدَّدَ منها الشملَ حكمُ المقادرِ

وحَـلَّ بهـم ما حَـلَّ بالناس قبلهمْ

فأضْـحوْا أحاديثاً لبادٍ وحـاضرِ

أبغـدادُ ، يادار الملوك ، ومُحْتَمى

صُـرُوفِ المنايا ، مستقرَّ المنابرِ

وياجنَّـةَ الدنيـا ومُـطَّـلَـبَ الغنى

ومستنبط الأمـوال عنـد المتاجرِ

أبيـني لنـا : أين الذين عهدتهـم

يحلّـون في روضٍ من العيش زاهرِ ؟

وأيـن ملـوك في مواكب تُـفْتَـدَى

تُشَبَّـهُ حسناً بالنجوم الزواهرِ ؟

وأيـن القُـضاة الناطقون برأيهـم

لـوِردِ أمورٍ مشكلات الأوامرِ

أو القائلون الناطقون بحكمة
ووصف كلام من خطيبٍ وشاعرِ؟
وأين صراحٍ للملوك عهدتها
مزخرفة فيها صنوف الجواهر؟
تُرَشُّ بماء المسك والورد أرضُها
يفوح بها من بعد ريح العنابر
وأين اللواتي تستجيب لنَغْمِها
اذا هو لَبَّاها حنينُ المزامر ؟
وأين الملوك الغُرُّ من آل هاشمٍ
وأشياعهم فيها اكتفوْا بالمفاخر؟
يروحون في سلطانهم ، وكأنهم
يروحون في سلطان بعض العشائرِ
تخاذلَ عمَّا نالَهُم كبراؤهم
فنالتهُمُ بالكره أيدي الأصاغرِ
فأقسم لو أنّ الملوك تناصروا
لَذلَّتْ لها خوفاً رِقابُ الجبابرِ

★

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ؟

وقال عمر بن عبد الملك الورّاق يبكي « بغداد » ، ويصف نكبتها ، ويعرّض بطاهر الأعور بن الحسين وأصحابه :

مَنْ ذا أصابَكِ ، يابغدادُ ، بالعينِ؟
ألم تكوني زَماناً قُرَّةَ العَينِ ؟
ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شَرفٌ
بالصالحات وبالمعروف يَلْقَوني ؟

ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم
وكان قربهمُ زيناً من الزَّيْنِ
صاح الزمان بهم بالبين فانقرضوا ،
ماذا الذي فجعتني لوعة البيْنِ ؟
أستودع اللهَ قوماً ما ذكرتُهُمُ
إلا تحدَّرَ ماء الدّمع من عيني
كانوا فَفَرَّقهم دهرٌ وصدَّعَهم
والدهر يصدَعُ مابين الفريقَيْنِ
كم كان لي مُسْعِدٌ منهم على زَمَني !
كم كان منهم على المعروف من عوْن !
للهِ درُّ زمانٍ كان يَجمَعنا
أين الزمان الذي ولَّى ومن أينِ ؟
يامن يُخرّبُ بغداداً ليَعْمُرَها
أهلكت نفسك ما بين الطريقينِ
كانت قلوب جميع النّاس واحدةً
عيناً ، وليس يكون العين بالدينِ
لما اسْتَبَيْتَهُمُ مزقتهم فِرَقاً
والناس طُرّاً جميعاً بين قلبين

★

في جواش الصوف :

وقال الأعمى أيضاً يصف العيّارين :

خرّجَتْ هذه الحروب رجالاً
لا لقحطانَ لا ولا لنِزارِ
معشرٌ في جواشن الصوف يغدو
نَ الى الحرب كالليوث الضّواري

نيس يدرون ما الفِرارُ اذا ما ال
أبطال عاذوا من القنا بالفرارِ
واحدٌ منهُمُ يشُدُّ على ألْـ
فَيْن عريانَ ماله من إزارِ
ويقول الفتى اذا طَعَنَ الـ
ـطّعنَةَ : خُذْها من الفتى العيّارِ

★

وثارت «الصَّراةُ» ذات يوم في نحو مئة ألف بالرماح والقَصَب والطرّادات، ونفخوا في بُوقات القصب وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية « أصحاب محمد الأمين » ، وكثر القتل ، وكان النصر حليف « الصَّراة » الى الظُّهر ، ثم زَجّ طاهر بالكثير من جنده ، وتلاحقت بقية المأمونيّة ، وداهموا « الصَّراة » من أصحاب محمد ، فغرق منهم في النهر خلق كثير ، وقتل نحو من عشرة آلاف ، وفي ذلك يقول الأعمى :

بالأمير الطاهر بن الحسين
صَبّحونا صبيحةَ الإثنينِ
جمعوا جمعهم فثار اليهم
كلُّ صُلْب القناةِ والساعِدَيْنِ
ياقتيلَ الصَّراة مُلقىً على الشَّطّ
تطاهُ الخيولُ في الجانبينِ
أوَزيرٌ ، أم قائدٌ ؟ بلْ بعيدٌ
أنت من ذَين موضع الفَرْقَدَيْنِ
كم بَصيرٍ غدا بعينين كي ينـ
ـظُرَ حالهم ، فراح بِعَيْنِ !
ليس يُخْطُون ما يريدون ما إنْ
يقصدوا منهُمُ سوى الناظرين

وقد كان العيارون مَـهـَـرة بتصويب الهدف ، وتسديد أحجارهم على عيون خصومهم فما يخطؤون الهدف . وكم خصمٍ استهان بهم ، فرجع بدون عينين . وكانوا أهل نجدة ، دفعتهم الحماسة الى معاونة الجنود المحمدية من دون هدف لهم ، سوى النجدة والحفاظ على مدينتهم ، أتراسُـهُـم الحُـصُر المُـقَـيَّـرَة ، وجواشنهم الصوف ، ولأمتهم الخُوص ، وسلاحهم المقاليع .

★

أم محمد الأمين تشكو من طاهر الأعور :

وكتبت زبيدة أم الأمين زوج الرشيد الى المأمون تشكو إليه طاهر ابن الحسين :

كتبتُ وعيني تستهلُ دموعُها
اليك ، ابنَ عمّي ، من جفوني ومحجري
أصبتُ بأدنى الناس منك قرابةً
ومَنْ زال عن كبْدِي ، فقَلَّ تَصَبُّرِي
أتى طاهرٌ ، لا طهرَ اللهُ طاهراً ،
وما طاهرٌ في فعله بمطَهَّرِ
فأبرزني مكشوفةَ الوجه حاسراً
وأنهب أموالي ، وأحرق أدْؤُرِي
يَعِزُّ على « هارون » ما قد لقيتُهُ ،
وما نالني من ناقص الخلق أعورِ
فإن كان ما أسدى لأمرٍ أمرتَهُ
صبرتُ لأمرٍ من قدير مُقدَّرِ

★

ابو العـلاء المعري في « بغـداد »

أبو العلاء المعريّ ، أحمد بن سليمان ، الشاعر الفليسوف الأشهر ، من أسرة علم وشعر وقضاء . ولد في « مَعَرّة النعمان » في « الشام » سنة ٣٦٣ هـ ، ونبغ في اللغة والأدب والشعر ، وتشوّق الى « بغداد » إذ كانت لعهده مثابةً لطلاب العلم والمعرفة ، يؤمّها العالمون والمتعلمون ، وكانت منزلتها عند رُوّاد المعرفة أشبه بمنزلة لندن وباريس ونيويورك في نظر الناس اليوم . تشوق المعري اليها منذ صباه ، لينهـل العلم من منهله الصافي ، ويلقى الرجال الذين سار ذكرهم في الآفاق العربية والاسلامية ، ولكنه لم تتح له فرصة زيارتها الا بعد أن تجاوز عصر الشباب وأشرف على العَقْد الرابع . فكانت له في « بغداد » مجالس أدب وشعر ورواية . أعجب العلماء بِسَعة حفظه وكثرة مروياته ، ولقي حفاوة واكراما ، وسمع من الأخبار والآراء في أصول الدين والجدل في مذاهب أهل الملل والنحل . وكانت بغداد يومَ زارها موطن المعتزلة ، ومثابة الفلسفة الهنـدية والمتكلمين ، وملتقى الثقافات الفارسية واليونانية واليهودية والنصرانية ، فخلّد ذكريات هذه الزيارة في قصائد خالدة تنضح بالشكوى من قلة ذات يده ، وما لقي من حسد الحساد وأكثرهم من متسلّلة الشاش وإيلاق ، وكانوا يملؤون خانات بغداد ، ومنها ما تنطق بالإكبار والإعجاب لبغداد وأهلها .

قال رحمه الله :

كلِفنـا بالعـراق ونحـن شَرْخٌ
فلـم نُـلْمِـمْ بـه إلا كُـهـولا

وَرَدْنـا مـاء دجلـة خيـر مـاءٍ
وزُرْنـا أشرف الشجـر النخيـلا

وزُلنْـا بالغليـلِ وما اشتفينـا
وغـايةُ كُـلِ شيءٍ أن يـزولا

★

وقال يصف حاله في بغداد :

أإخواننا بين «الفراتِ» «وجِلّقٍ»
يَدُ اللهِ لا أخبرتكم بمُحالِ
أنبئكم أني على العهد سالمٌ
ووجهي لمّا يُبْتَذَلْ بسؤالِ
وأنّي تَيَمَّمْتُ (العِراقَ) لغيرِ ما
تيممه «غيلان» عندَ «بلالِ» (١)
فأصبحتُ محسوداً بفضليَ وحدَهُ
على بُعدِ أنصاري وقلّةِ مالي

★

وقال في وداع بغداد :

أودّعكم ، يا أهل بغدادَ ، والحشا
على زَفَراتٍ ما يَنِينَ من اللذعِ
فبئس البديلُ الشّامُ منكم وأهلُهُ ،
على أنّهم قومي ، وبينَهُمُ رَبْعي
ألا ، زَوِّدُوني شربةً ، ولو انني
قدرت إذن أفنيت «دجلة» بالجَرْعِ
وما الفصحاء الصّيد والبَدْوُ دارُها ،
بأفصحَ قولاً من إمائِكُمُ الوُكْعِ
أدرتم مقالاً في الجدال بألْسُنٍ
خُلِقْنَ فجانَبْنَ المَضَرَّةَ للنفعِ

★

(١) غيلان : هو ذوالرمة ، وبلال : هو بلال بن ابي بردة بن ابي موسى الأشعري . والمعنى انه لم يقصد بغداد من أجل أن ينال رفد خلفائها وامرائها كما كان قصد غيلان بلالاً ابتغاء عطائه .

وقال يخاطب أبا القاسم علي بن أبي الفهم التَّنُوخيّ ، وكان قد حمل اليه وهو ببغداد ، جزءاً من آثار تَنُوخ في الجاهلية :

هات الحديث عن «الزوراء» أو «هيتا»
ومَوقد النار لا تكرى بـ «تَكْرِيتا»

وفيها يقول :

لنا ببغداد من نَهْوَى تحيتـــه ،
فإن تحملتَها عنّا ، فحُيِّيتا
أثارني عنكمُ أمرانِ : والدةٌ
لم ألْقَها ، وثراءٌ عاد مسفوتا
سقيا لدجلة والدنيا مفرّقـــة
حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا
ذمّ « الوليد » ولم أذْمُمْ جِوارَكُمُ
فقال : ما أنصفت بغدادُ : حُوشيتا
فإن لقيتُ «وليداً» والنوى قُذُفٌ
يومَ القيامة لم أعدمه تبكيتا

وعنى أبو العلاء بالوليد البحتريّ ، وهو الذي قال في بغداد :

ما أنصفت بغداد حين توحشت
لنزيلها وَهْيَ المحلّ الآنِسُ

وقال :

واشترائي العراق خُطّةُ غَبْنٍ
بعد بيعي الشآمَ بيعة وَكْسِ

★

وقال المعري يخاطب خازن دار العلم ببغداد :

خليلي ! لا يخفى انحساري عن الصبا
فحُبّلا إساري قد أضرّ بيَ الرَّبْطُ

ولي حاجة عند « العراق » وأهله

فإن تقضياها فالجزاء هو الشرط

سَلا علماء الجانبين وفتيةً

أَبَنُّوهما حتىّ مَفارِقُهم شُمْطُ

أي : اسألا علماء جانبي بغداد ، واسألا فتية أقاموا بجانبيها حتى شمطت مفارقهم في التحصيل والطلب . يقال : بَنَّ بالمكان وأبنَّ : أقام .

وقال :

أعندَهُمُ علمُ السُّلُوِّ لسائل

به الرَّكْبَ لم يعرف أماكنه قَطُّ

وما أَرَبي إلا مُعَرَّسُ معشرٍ

هم الناسُ لاسوق العروس ولا الشَّطُّ

وما سار بي إلا الذي غَرَّ آدماً

وحوّاءَ حتى أدرك الشرف الهَبْطُ (١)

أخازنَ دارِ العلم ! كم من تَنُوفَةٍ

أتَتْ دونَنا فيها العوازف و اللَّغْطُ (٢)

اذا جمحت خيل الكلام ، فإنما

لديك يعاني من أعنّتها الضَّبْطُ

وما أذهلتني عن وِدادك روعة

وكيف وفي أمثاله يجب الضَّبْطُ ؟

---

(١) ما حملني على مفارقة بغداد الا ابليس الذي استزل آدم وحواء ، وغرهما حتى عصيا ، فأهبطا الى الارض . يشبّه رحلته من بغداد باخراج آدم من الجنة .

(٢) التنوفة البرية ، والعزيف : صوت الجن ، واللفط : صوت القطا .

وهل ينشطنّي من عقالي إليكُمُ
رضى زمني ، أم كُلُّ شيمتِهِ سُخْطُ ؟

★

يوم عروبة :

وقال يخاطب أحمد بن عبد السلام البَصْريّ صاحب الدولة ، وكان يكثر من زيارته أيام إقامته في بغداد ، وكان له مجلس حافل يوم الجمعة يؤمّه الزوار من أهل الفضل والعلم والحجا ، وما زالت هذه السنة متبعة في بغداد : يستقبل أصحاب البيوتات وأهل الفضل إخوانهم ومعارفهم يوم الجمعة من كل أسبوع ، وفي هذه القصيدة يخص يوم عَرُوبة (الجمعة) بالذكر :

تهيج أشواقي عَرُوبَةُ إنّها
اليك زوتني عن حضور بمجمعِ
ولا تسمع التسليم حين أكرّه
وقد خاب ظنّي لستَ مني بمسمعِ
وهل يوجس الكرخيُّ والدّارُ غربةٌ
من الشام حسّ الراعد المترجّعِ

أراد : هل يسمع التسليم حين يردده ، وحكم بالنفي ، إذ لا يمكن أن يسمع الكرخي ، أي مَنْ بالكرخ ، صوت الرعد إذا رعد بالشام ، فكيف يسمع تسليمي من الشام وهو في بغداد ؟

سلام هو الإسلام زار بلادكم
ففاض على السُّنّيّ والمتشيّعِ
كشمس الضحى أولاهُ في النّور عندكم
وأُخْراهُ نارٌ في فؤادي وأضلُعي
يفوح إذا ما الريحُ هَبّ نسيمها
شآمية كالعنبر المتضوّعِ

حسابكُمُ عندَ المليك ، ومالَكُمْ

سوى الودّ منّي في هبوط ومرفعِ

ألم يأتكم أنّي تفرّدت بعدكُمْ

عن الإنسِ.مَنْ يشربْ من العِدّ ينقعِ

أي : هل أخبرتم أني اعتزلت الناس بعدكم ، لأني قد استغنيت بكم عن غيركم . ثم ضرب ورد الماء مثلا . والعِدّ : هو الشرب الدائم الذي لاينقطع موارده ، يروي ويكتفي به ، كذلك من يرد مجالسكم ويأخذ العلم عنكم ، فانه يكتفي عن لقاء الآخرين .

وقال منها :

نَعمْ حبّذا قيظُ «العراق» وإن غدا

يَبُثُّ جِماراً في مَقيلٍ ومَضْجَعِ

لكم حلّ فيه أصْمَعُ القلبِ آيسٌ

يطول ابن أوسٍ فضلُه وابن أصْمَعِ [1]

أخِفُّ لِذكراه وأحفَظُ غيبَهُ

وأنهَضُ فعلَ النّاسكِ المتخشّعِ

لقد نصحتْني في المُقام بأرضكم

رجالٌ ، ولكنْ رُبَّ نُصْحٍ مضيّعِ

فلا كان سيري عنكُمُ رأيَ مُلْحِدٍ

يقولُ بيأس من مَعادٍ ومَرْجِعِ

أراد أن سيري ليس كرأي الملحد ، لا يؤمن ببعث ولا رجعة ، وأنه يزمع العودة ، ويتمناها ، ويتشوق الى « بغداد » ومجالسها .

★

---

(١) اصمع القلب : ذكيه . وآيسٌ : معوّض . وابن أوس : هو ابو تمام ، وابن اصمع : هو الأصمعي . اي : كم حل بفداد رجل ذو ذكاء وفطنة يزيد فضله على أبي تمام والاصمعي .

★

ولأبي صالح محمد بن المهذب ، كتبها الى أبي هيثم شقيق أبي العلاء المعري يوسّطه بها أن يشفع له للدخول على أبي العلاء حين حجب نفسه عن الناس ، وقبل أن يأذن لهم ، وفيها ذكر لبغداد ، ومنها :

أراها أبت الا النّوى بيَ مغرماً
ولو رَضِيتْ هجرانها لكفاني

تَضِنّ بإهداء السلام تجاهلاً
ولو علِمتْ أنّ الرُّقاد جفاني

هبي هجعة كيما أرى الطَّيفَ مرّةً
بها تحت أوراق الدجى ويراني

ومنها :

أطلّ على (بغدادَ) كالغيث جاءها
به سعدُ نجمٍ في أجلّ أوانِ

نضاها ثياب المجد وَهْيَ لباسُها
وَبدّلَها من شدة بِلِيانِ

فياطيبَ (بغداد) وقد أرِجَتْ به
على بعدها الأطراف من « أرجان »

غدا بكم المجد المضيُّ وإنه
ليغمر من أضوائه القمرانِ

نأى ما نأى ، والموت دون فراقه ،
فما غدره في النّأي ، إذْ هو دانٍ ؟

فكن حاملاً منّي إليه رسالة
تبين إليه في هضاب « أبانِ »

فإن قال : أخشى من فُلان تشبُّهاً ،
فقل : ما فُلانٌ عندَنا كفُلانِ

هو الخِـلّ ما فيه اختلالُ مـودّةٍ
فـلا تخشَ منـه زلّـةً بضمـانِ
فإن خِـفْـت عهداً أو أسأت خليقة
ولم يَـكُ شأني في المـوّدة شـاني
فلا أحسنت في الحب إمساك مقبضي
يميني ، ولا يُسْرايَ حفظ عِناني
لَـعَـلَّ حياتي أن تعودَ نضيـرةً
لديه كما كانت ، وطيب زماني[1]

★

يا قاصداً بغداد :

كان الوزير شرف الدين وزير المستنجد بالله قد ثار على أداة الحكم ببغداد ، فعزل أرباب الديوان ، وحبسهم ، وحاسبهم ، وصادرهم ، ونكل بقسم كبير منهم ، فحصلت احتجاجات أعقبها إرهاب شديد ، فقال ابن التعاويذيّ المولود سنةَ ٤٩٦ هـ والمتوفى سنة ٥٥٣هـ يصف هذه العاصفة ، ويعبر عن هذا الجور :

يا قاصداً « بغـداد » حِـدْ عن بلـدةٍ
للجـوْر فيهـا زَخرةٌ وعُـبـابُ
إن كنتَ طالبَ حاجةٍ فارْجِـعْ ، فقد
سُـدَّت عـلى الراجي بهـا الأبوابُ
ليستْ وما بَعُـدَ الزّمانُ كعهدها
أيامَ يعمرُ رَبْعَها الطُّـلّابُ
وَيحُـلُّها السَّرَواتُ من ساداتهـا
والجِلّـةُ الرُّؤساءُ والكُتّـابُ

(١) كتاب « أبي العلاء المعري » من سلسلة أعلام العرب ١٤٥ ـ ١٤٦ .

والدّهرُ في أُولى حداثته ، ولِـكْ
أيامٍ فيهـــا نضرةٌ وشبـــابُ
والفضلُ في سوق الكرام يباع بالــ
غـــالي مـــن الأثمـــان ، والآدابُ
بادت وأهلوها معاً فبُيُـوتُـهـم
ببقـاء مـولانـا الـوزيـر خــرابُ
وارتَـهُـمُ الأجــداث أحياءً ، تـُها
لُ جنـادلٌ مـن فوقهـم وتـــرابُ
فهُـمُ خلودٌ في محـــابسهم يُصَـ
ـبُّ عليهِـمُ بعد العذاب عذابُ
لايرتجى منهـا إيابُـهُـمُ ، وهل
يُـرجى لِسكّانِ القبور إيـابُ ؟
والناسُ قد قامت قيامتهم ، فلا
أنسابَ بينَـهُـمُ ولا أسبـــابُ
والمرءُ يُسْلِمه أبوه وعِـرْسُهُ
ويخونُـهُ القُـرَباء والأصحــــابُ
لا شافعٌ تُـغْنِي شفاعتُـه ، ولا
جـانٍ لـه ممّـــا جَنـاه متَــابُ
شهِدوا معـــادَهُمُ ، فعادَهُمُ
مَـنْ كان قبلُ بِبـَعْثِـهِ يرتـابُ
حشرٌ وميزان وعــرض جـرائـد
وصحـائـف منشـورة وحسـابُ

وبها زَبانِيَةٌ تُبَثّ على الورى

وسلاسلٌ ومَقامعٌ وعذابُ

ما فاتهم من كلِّ ما وُعِدوا به

في الحشر إلا راحمٌ وهّابُ

★ ★ ★

المستنصرية

في جمادى الآخرة من سنة ٦٣١ هـ تكامل بناء المدرسة المستنصرية التي أمر بإنشائها الخليفة « المستنصر بالله » ، رحمه الله . وكان الشروع فيها سنة ٦٢٥ هـ ، وأنفق عليها أموالاً كثيرةً . وفي يوم الخميس خامس شهر رجب حضر نصير الدين نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الرُّبُط والوعّاظ والقراء والسفراء والأعيان الى المدرسة . وتخيَّرَ لكل مذهب من المدارس عدداً . ورتب لها المدرسين ونوّابَهم . ثم خلع على المدرسين والمعيدين وعلى المعنيين بخزانة الكتب . ثُمَّ مُدَّ سماط في صحن المدرسة ، عليهمن أنواع الأشربة والحلواء والأطعمة ما يجاوز حد الوصف لكثرتها .

وأنشد الشعراء فيها وفي منشئها شعراً كثيراً ، فمن ذلك القصيدة التي أنشدها العدل أبو القاسم بن أبي الحديد الفقيه الشافعي :

ما مُثّـِلَ الفلك العظيم لمبصرٍ
في الأرض قبل إيالة « المستنصرِ »

هـذا بناء مُعْرِبٌ عن قَدْره
رُفعت قواعده بفعلِ مُطَهَّرِ

حسدتَ به الأرضَ السماءُ ولم يزل
حسد الفضائل في طباع القُصَّرِ

أنظر تجد نظم « الثريا » في ذُرا
شرُفاته وضياءَ نور « المشتري »

ضحِكَ الزمانُ وذاك بعد عبوسه
ورأى الصّواب وذاك بعد تحَيُّرِ

فالأفق بين مُفضَّضٍ ومُذَهَّبٍ
والجوّ بين مُكَوْفَرٍ ومُعَنْبَرِ
والأرض حاسرة القِناع كأنّها
خَوْدٌ تَبَرَّجُ في رِداءٍ أخضرِ
تزهو بما عَمَرَ الخليفة فوقها
عَلَماً لأحكام البشير المنذرِ
بالجانب الشرقيّ بالشاطي الذي
هو « طور سينا » كُلِّ صاحبِ منبرِ
ومنها :
وضع الإمامُ بها أساس بنائه
والموجُ بين مجمجم ومزمجرِ
قصراً ومدرسةً لمن طلب الغنى
أوْ رام شَأْوَ العالم المتبحّرِ
هي جنّة الفِرْدَوْس يجري تحتها
من ماء « دجلةَ » ماءُ نهر الكوثرِ
حصباؤُها دُرُّ النِّظام ، وتُرْبُها
مِسكُ الجنوب ، وطينها كالعنبرِ
أضحى سليمانُ الزمان وأهله
مستخدماً فيها بجِنَّةِ عَبْقَرِ
لبس الغنِيُ بها شهامة ماهرٍ
وغدا المُقِلُّ مزاحماً للمكثرِ
لم تَخْلُ من حَبْرٍ وشيخ فاضلٍ
يَرْوي الحديثَ وساجدٍ ومُعَفِّرِ

قـد كانت الفقهاءُ قبـل بنـائهـا
في كلّ قُطْرٍ واحدٍ لم يـذكر
فرقـاً يشُـقُّ عـلى المريـد طِـلابُها
في الشّرع ، والمطلوب كالمُـتـعـذّرِ
فاليـوم قد جُـمِعت أمورُ الدّين في
أرجـائهـا ، وأزيل عذر المقصر(١)

★

وللحسين بن مجد الدين حسن بن الحسين الطّاهر الكوفي ، وقد أنشدها في حفل الافتتاح :

سمعـاً أميـر المؤمنيـ
ـن لمدحتي وثنـائهـا
لكَ مكّـةٌ وجميـعُ مـا
يأوي الى « بَـطْحائهـا »
بسقت بفرعـك « هـاشـمٌ »
وسموتَ في عَلْيـائهـا
أدنـاك خيـرُ رجـالهـا
شَرَفـاً وخيـرُ نسائهـا
وعَـمَـرْتَ مدرسـةً أمـر
تَ بِسَمْكهـا وبنـائهـا
سُرَّتْ عيـونُ النـاظريـ
ـن بحُسْنهـا وبهائهـا
ليسَتْ مدارسُ من مَضـى
في الحسن مِن نُظَـرائهـا

---

(١) الحوادث الجامعة ، ٥٦ . وتاريخ مساجد بغداد وآثارها : تهذيب الأثري ، ص ٩١ .

ووسمت « بالمستنصريـ
ـة » منتهى أسمائها
سِمَةٌ مُقَدَّسةٌ لِما
ضَمِنَتْ حروفُ هجائها
فخلَدْتَ مثلَ خلودها
وبَقِيتَ مثل بقائها (١)

★

ولعبد الحميد هبة الدين ، وأنشدت في اليوم العشرين من شهر رجب سنة ٦٣٠ هـ والقصيدة تقع في ثلاثة وستين بيتاً ، أثبتها الألوسي في « تاريخ مساجد بغداد وآثارها » :

أميرَ المؤمنين ! لك التَّهاني
تجدَّد في رواحٍ وابتكارِ
ولا بَرِحَ الزمانُ لمن يواري
لك البغضاءَ مشبوبَ الأُوارِ
فجودُك أوسعَ الأيّام خِصْباً
وكانت قبل صائمة القِطارِ
وعدلُك أمَّنَ الدنيا ، وكانت
كأيّام النِّسار أو الفُجارِ
ومُذْ أنشأتَ دار العلم ، قلنا :
عَرِينُ الليث جَلَّ عن الوِجارِ
جرى الوادي فطَمَّ على قَرِيٍّ
صغيرٍ بين أنهارٍ كبارِ
وأطرق باكراً إنّا رأينا
نَعامُ الدَّوِّ في هذي الدِّيارِ

---

(١) تاريخ مساجد بغداد وآثارها ، ص ٩٠ .

تضاءلتِ المدارس إذ رأتْها
وباتت بالمذلّة والصَّغارِ
ولو كانت تُطيق لها سجوداً
لتَرَّبَتِ الترائبَ بالغبُارِ
أقول لصاحبي ، لمّا رآها :
أنِخْ بُدْرا « المُشَقَّر » من « ضِمار »
يردّ الطرف منظرها حسيراً
كأنّ الشمسَ في شُرَفِ الجدارِ
وما كنّا نصدّق أو رأينا
بأن الأرض تسكُنُها الدراري
فكم دين قويم شِدْتَ فيها
وكم حَبْلٍ عقدتَ بها مُغارِ
أعدتَ بها هلال العلم بدراً
وقد لقَحَتْ به ظُلَمُ السّرارِ
وأوضحتَ المنار لطالبيه
وقِدْماً كان مجهول المنارِ
فدُمْ واعمُرْ لها أَلْفَيْ نَظيرٍ
فكم بعد العشيّة من عَرارِ
وهل هي غير عزمٍ منك ماضٍ
تُناط الى زنادٍ منك وارِ (١)

★

---

(١) تاريخ مساجد بفداد وآثارها ، ٩١ ــ ٩٥ . و « انظر : المستنصرية في شعر المعاصرين لنا » في الباب الثاني « بغداد في شعر العصر العثماني » .

إيوان الطبّ :

وفي ايوان الطب الذي أنشئ مقابل « المستنصرية » قال أبو الفَرَج بن الجوزي :

يا أيها المنصور يا مالكاً
بـرأيـه صعبُ الليالي يهون
شيّدتَ لله ورِضوانه
أشرفَ بُنيانٍ يروق العيون
إيوان حسنٍ صنعُهُ مدهشٌ
يحار في منظره النّاظرون
صُوِر فيه فَلكٌ دائرٌ
والشمسُ تجري مالها من سكون
دائرةٌ من لازورد حوت
نقطةَ تِبْرٍ فيه سِرٌّ مَصُون
فَلك في الشّكل وهُدي معّا
كمثل هاءٍ ركبت وسط نون (١)

★

خزانة كتب المستعصم بالله :

أنشأ الخليفة « المستعصم بالله » رحمه الله ، خِزانة للكتب ، قال فيها صفي الدين عبد الله ، رئيس شعراء الديوان :

أنشا الخليفة للعلوم خِزانةً
سارت بسيرة فضله أخبارُها
تجلو عروساً من غرائب حُسْنها
دُرٌّ الفضائل والعلوم نِثارُها
أهدى مناقبَهُ لها « مستعصم
بالله » ، من لألائه أنوارُها

---

(١) تاريخ مساجد بغداد وآثارها ، ص ٩٧ .

نكبة بغداد وخرابها

على يد هولاكو

لقد نزلت ببغداد نكبات كثيرة قديماً وحديثاً : نكبات غزو ، ونكبات وفتن داخلية ، ونكبات حروب بين طامعين ، ونكبات غرق . ولكنَّ نكبتها العظمى التي دمّرتها وحولتها الى رُكام وخرائب ، وأجرت طرقاتها بالدماء ، وسيقت حرائرها سبايا ، هي تلك النكبة الدامية التي حلت بها من الإعصار المغولي بقيادة خانها السفّاح « هولاكو » . فقد كان لهذه النكبة شعور عام بالأسى والحزن العميق ، والأسف البالغ ، لما حلَّ ببغداد وأهلها من التدمير والتشريد والتقتيل مما لم تشهده مدينة من المدن التي اجتاحها ذلك الإعصار الذي لم يبق علائم للحياة ، وما زال جرح هذه النكبة ينزف دماً في نفوسنا ، وسيبقى أثره عميقاً مادامت الأرض والسماوات ، نذكرها جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، ومازال شعورنا بهذه النكبة يزداد مرارة وألماً. نحس بالأسى والرثاء لأولئك الذين حلت بهم تلك الكارثة التي صيرت بغداد مدينة خربة ، عمها البؤس والظلام ، وبلغ عدد قتلاها ثمان مئة ألف في تقدير أقل الروايات (الحوادث الجامعة) . حاصرها الطاغية خمسين يوماً ، وحين استسلمت أباحها لجنده سبعة أيام : ينهبون ، ويقتلون ، ويخربون ، ويَسْبُون الحرائر والصبيان، يسوقون قطيعهم ليبيعوهم في سوق النخاسة في طريق عودتهم : وغاض منها مَعِينُ المعرفة ، وأقفرت المدارس ، وانتهبت المكتبات أو أحرقت ، وألقيت الأسفار الثمينة في ثَبَج دجلة ، حتى قال المؤرخون المعاصرون لتلك النكبة إنّ النهر قد اسود ماؤه من مِداد الكتب .

وأما الخليفة فان المغول قد أدرجوه في لبدٍ ، ثم قتلوه رفساً في لبده . وأحرقت أكثر معالم المدينة : كجامع الخليفة ،ومشهد الإمام موسى الكاظم ،ومقابر الخلفاء ، والكثير من المدارس والمكتبات والدور ، ودخل الجند بغداد . وابتدأ القتل والإغارة العامة، وكانوا يحرقون الأخضر واليابس ، ولم ينج من النهب والتدمير

الا بعض الدور ، وبقي النهب يعمل الى سبعة أيام ، ثم رفعوا السيف ، وأبطلوا السبي [1] .

ويقول صاحب الفخري : « وأحاط الجيش ببغداد من جميع جهاتها ، ثم شرعوا في استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخليفي في المدافعة والمقاومة الى التاسع عشر من المحرم ، فلم يشعر الناس الا ورايات « المغول » ظاهرة على سور « بغداد » من برج يسمى « برج العجمي » . ويقول : « وتقحم العسكر السلطاني هجوماً ودخولاً ، فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة ، فما الظن بتفاصيله ؟ »[2] .

ويقول صاحب « الحوادث الجامعة » عن دخول جند هولاكو :

« ووضع السيف في أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر ، وما زالوا في قتل ونهب وتعذيب للناس بأنواع العذاب ، فلم يبق بين أهل بغداد ومن التجأ اليهم من أهل السواد الا القليل . كذلك نجت بعض بيوت ، منها بيوت النصارى ، وبيوت بعض التجار الذين تعرفوا على أمراء المغول في أثناء غزوهم ، ودار ابن العلقمي ، ودار صاحب الديوان ابن الدامغاني . وما عدا هذا ، فانه لم يسلم فيها أحد الا من كان في الآبار والقنوات ، وأحرق معظم البلد ، وجامع الخليفة ، وما يجاورها ، واستولى الخراب على البلد[3] » .

ويقول ابن خلدون : « وقبض على « المستعصم » ، فشُدِخَ بالمعاول في عدل تجافياً من سفك دمه بزعمهم ، ويقال : ان الذي أحصي فيها من القتلى ألفُ ألفٍ وثلاث مئة ألف ، واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يحصره العدُّ والضبط ، وألقيت كتب العلم التي كانت في خزائنهم في « دجلة » . ولا أشك أن عدد القتلى مبالغ به كثيراً عند الكثيرين من المؤرخين . ولم يسلم الا من اختفى في بئر أو قناة ، أو التجأ الى بيت نصراني ، ولم يعلم بأمره .

★

(1) تاريخ ابن العبري ٤٧٥ . (2) الفخري ٢٤٧ .
(3) الحوادث الجامعة ٣٢٩ .

. وكانت نكبة لم يصب الإسلام بمثلها . ألهمت الكثيرين من الشعراء ، توجعوا في قصائدهم على ما أصاب بغداد ، وواسَوْا أهلها ، ووصفوا خرابها ، وتألموا لصرعاها ، وندبوا معالمها ومشاهدها . وكان ممن أثارت النكبة شجوه ، وأسالت أجفانه بالدمع ، وهاجت أحزانه شاعر فارس الأكبر الشيخ سعدي الشيرزاي صاحب «كلستان» و «البستان» ومجموعة اللطائف . كان من المعمرين ، ولد سنة ٥٨٠ هـ ، وتوفي سنة ٧٠٠ هـ في أشهر الأقوال . وشعره أكثره بالفارسية ، كما له شعر في العربية . قال يصف النكبة :

نسيمَ صَبا بغدادَ بعدَ خرابِها
تمنّيتُ لو كانت تمُرُّ على قبري

لأنّ هلاكَ النَّفْس عند أولي النهى
أحَبُّ لهم من عيشِ منقبضِ الصدرِ

زجرت طبيباً جسَّ نَبْضِي مداوياً
إليك ، فما شكواي من مَرَضٍ يسري ؟

لزِمت اصطباراً حيث كنت مفارقاً
وداء فراقي لايعالج بالصبرِ

تسائلني عما جرى يومَ حصرهم
وذلك مما ليس يدخل في الحصرِ

أديرت كؤوسُ الموتِ ، حتّى كأنها
رؤوس الأسارى تَرْجَحِنُّ من الأَسْرِ

فقد ثكِلتْ « أمّ القُرى » ولكعبةٍ
مدامعُ في الميزاب تسكب في الحِجْرِ

على جُدُرِ «المستنصرية» ندبةً
على العلماء الراسخين ذوي الحِجْرِ

نوائب دهرٍ ليتني مِتُّ قبلَهـا
ولم أرَ عَـدْ وان السَّفيه على الحَبْرِ
محابرُ تبكي بعـدهم بسوادهـــا
وبعضُ قلوب النـاس يألف بالغدر (؟)
مـررت بصخـر الرّاسيات أجُـوبـُها
«كخنساء» من قطر البكاء على «صَخْرِ»
أيا ناصحي بالصَّبْـر ! دعْـني وزفرتي
أموضعُ صَبْرٍ والكبودُ على الجمرِ ؟
ومنهـا :
وهَـبْ أنَّ ذاك المُلكَ يـرجِـع عامراً
ويغسِـلُ وجهَ العالمين من العَـفْـرِ
فأيْنَ «بنـو العباس» مفتخر الورى
ذوو الخُلُـق المرضيِّ والغُـرَرِ الزُّهْـرِ ؟
غَـدا سَمَـراً بين الأنام حَـدِيثُهـم
وذا سَمَـرٌ يُـدمي المدامع كالسُّمْرِ (١)
وفي الخبـر المَـرْوِيِّ : دِينُ مُحَمَّدٍ
يعـود غريباً مِثلَ مُبْـتَداِ الأمرِ (٢)
أأغْـرَبُ مِـن هـذا ؟ يعود كما بـدا
وتُسْبَـى دِيارُ السِّلْمِ في بلد الكفرِ
فـلا انحدرت منهـا جداولُ رَوْضَةٍ
وحافاتُـها لا أعْشَبَتْ ورقُ الخضرِ
كـأنَّ دَمَ الإِخـوان أصبـح نابتـاً
يُدَبِّـجُ قَتْـلَى في جوانبها الحُمْرِ

(١) السَمَر : المسامرة ، والسُمْر : الرماح .
(٢) الحديث الشريف : يعود الاسلام غريباً كما بدأ غريباً .

بَكَتْ سَمُراتُ النَّبت والشِّيحُ والغَضى
لكَثْرَةِ ما ناحته غانيةُ القَصْر

أتُذكر في أعلى المنابر خُطْبَــةٌ
و« مُسْتَعصِمٌ بالله » لم يكُ في الذِّكْرِ ؟

أأبلُغُ من أمر الخِلافةِ رُتْبَــةٌ
هَلُمَّ انظُرُوا ماكان عاقبة الأمرِ ؟

فليت صِماخي صُمَّ قبلَ استماعه
بهتكِ أساتير المحارم في الأسرِ

عَدَوْنَ حفايا سَبْسَباً بعدَ سَبْسَب
رخائم لايَسْطَعْنَ مَشْياً على الجسر[1]

لَعَمْرُكَ لو عاينتَ ليلةَ نَفْرِهم
كأنَّ العَذارى في الدجى شُهُبٌ تسري

كأنّ صباحَ الأسرِ يومُ قيامة
علىَّ أمم شُعْثٍ تُساق الى الحشرِ

ومُستصرِخٍ : يا لَلْمرُءَة ! فانظروا
ومن ينصرُ العصفورَ بين يدَيْ صقرِ ؟

تقوم وتجثو في المحاجرِ والكُرى
وهل يختفي مشي النواعم في الوَعْرِ ؟

يساقون سوق المَعْزِ في كَبِدِ الفلا
غرائر قومٍ لم يُرَوَّعْنَ بالزّجْرِ

جُلبن سبايا سافراتٍ وجوهُها
كواعبَ لم يبرزن من حَلَكِ الخِدْرِ

---

(١) السبسب : المفازة ، والتنوفة : الصحراء .

وعِترةُ «قنطوراءَ» في كل منزلٍ
تصيح بأولادِ «البرامك» : من يشري[1] ؟

محاجر ثَكْلَى بالدّموع كريمةٍ
وإن بَخِلَت عينُ الغمائم بالقَطْرِ

نعوذ بعفو الله من نارِ فتنـةٍ
تؤجَّجُ من قُطْرِ البلاد الى قُطرِ

كأنَّ شياطين القبور تَفَلَّتَتْ
فسالت على بغداد عينٌ من القِطْرِ [2]

بدا وتعالى من «خراسان» قَسْطَلٌ
فعادَ رُكاماً لايزول عن البدر

أُحَدّثُ أخباراً يضيق بها صدري
وأحمل أخطاراً ينوء بها ظهري !

ولا سيما قلبي رقيق زجاجةٍ
وياطيبَّها لولا الممات على الإِثْرِ

★

لسائل الدمع :

وقال تقي الدين بن أبي اليُسْر ، وهو ممن شاهدوا النكبة ، يتفجع على بغداد ، ويصف ما حلّ بها من التدمير والنهب والتقتيل :

(١) عترة قنطوراء : اولاد التتر . واولاد البرامك : عنى اولاد الأسرة البرمكية . وكان من عادة المغول انهم يسبون البنات والنساء ويسوقوهن ماشيات يقطعن السباسب ، وكلما مروا ببلدة عرضوهن للبيع ، وعلى طول الطريق يشتري من اراد الشراء .

(٢) عين القطر : القِطر ذائب النحاس . اشارة الى انهم من اصحاب يأجوج ومأجوج . والقصيدة تقع في ٨٩ بيتاً ، فيها كثير من التحريف وقع من النساخ ، وهي في مجلة اليقين ، م١/ج١٦ ، سنة ١٩٢٢ م .

لسائل الدمع عن بغداد أخبارُ
فما وقوفك والأحبابُ قد ساروا ؟

يازائرين الى « الزوراء » لاتَفِدُوا
فما بذاك الحِمى والدّارِ دَيّارُ

تاجُ الخِلافةِ ، والرّبع الذي شرُفَتْ
بهِ المعالمُ ، قد عفّاهُ إقْفارُ

أضحى لعطف البِلى في ربعهِ أثرٌ
وللدموع على الآثار آثارُ

يانارَ قلبيَ مِن نارٍ لحربِ وغىً
شَبَّتْ عليه ، ووافى الرَّبْعَ إعْصارُ

علا الصّليبُ على أعلى منابرها
وقامَ بالأمر من يَحْوِيهِ زُنّارُ

وكم حريمٍ سبته التُّرْك غاصبة
وكان من دون ذاك السترِ أستارُ

وكم بدورٍ على « البدريّة » انخسفت
ولم يَعُدْ لبدورٍ منه إبدارُ

وكم ذَخائرَ أضحتْ،وهي شائعة
من النِهّاب، وقد حازته كُفّارُ

وكم حدودٍ أقيمت من سيوفهم
على الرقاب ، وحُطّتْ فيه أوزارُ

ناديتُ والسَّبْيُ مهتوك تجرُّهُمُ
الى السِفاح من الأعداء دُعّارُ

★

ياسائلي :

وقال المجد النشابي في نكبة بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ :

ياسائلي ولمحضِ الحقّ يرتادُ
أَصِخْ ، فعنديَ نِشدانٌ وإنشادُ
من فتيةٍ فتكوا في الدين ، وانتهكوا
حِماهُ جَهْلاً برأيٍ فيه إفسادُ
اذا ترامتْ أمورُ الناسِ ليسَ لهم
فيها رُواءٌ ولا حَزْمٌ وإنْجَادُ
أمّا الوزير فمشغول بعنبره
والعارضان فنَسَّاجٌ ومدّادُ
وحاجبُ الباب طوراً شاربٌ ثَمِلٌ
وتارةً هو جُنْكِيٌّ وعَوّادُ
وشيخ الاسْلامِ صدرُ الدّين هِمَّتُهُ
مقصورةٌ لحطام المال يصطادُ
إن جئتَ « يثربَ » أو شارفتَ ساحتها ،
فقل لمن أنزلت في حقّهِ (صادُ) :
الكفرُ أضْرَمَ في الإِسلام جَذْوَتَه
وليس يُرْجَى النارِ الكُفْرِ إخمادُ
واضيعةَ الملك والدينِ الحنيف وما
تلقاه من حادثات الدهر بغدادُ
إن المنيّةَ منّي كي تساورني
فللمنية إصدار وإيرادُ

مـن قبل واقـعـةٍ شنعـاءَ مـُظـلـمـةٍ
يَشـيـبُ مـِن هـولـهـا طـفلٌ وأكبادُ

★

اروم صبراً :

وقال شمس الدين محمد بن عبد الله الكوفيّ الواعظ ، من قصيدة يصف فيها هذه النكبة :

أرومُ صَبْراً وقـلبي لا يطاوِعُني
وكيف ينهـَضُ مَنْ قـد خانَه الوَرِكُ؟
إن كنتَ فاقدَ إلْفٍ ، نُحْ عليه معي
فإننـا كلُّـنـا في ذاك نشتركُ
يانكبـةً مـا نجـا من صَرْفهـا أحـدٌ
من الورى ، فاستوى المملوك والملِكُ
تمكنت بعدَ عزٍّ في أحـبّـتِـنـا
أيدي الأعادي ، فما أبْقَوْا ولا تـرَكُـوا
لو أنَّ مـا نالهم يُـفْـدَى ، فديتُـهُـمُ
بمهجتي ، وبما أصبحت أمتلكُ
رَبْـعُ الهدى اليوم أضحى بعدَ بُـعْدِهمُ
مُـعَـطَّلاً ، ودَمُ الإسْـلامُ مُنْسَفِكُ
أين الذين على كلِّ الورى حكموا ؟
أين الذين اقْـتَـنَـوْا ؟ أينَ الأُلَى ملكوا؟
أجابني الطَّـلَـلُ البالي وربعهُـمُ الْـ
خالي : نعم ، هاهنا كانوا ، وقد هلكوا !

★

وقال الشيخ شمس الدين محمود بن أحمد الهاشمي الحنفي المتوفى سنة ٦٧٥ هـ ، يذكر واقعة بغداد ، ويرثي أهلها ، ويذكر خرابها :

إن لم تُقَرِّحْ أدمعي أجفاني
من بعدِ بُعدِكُمُ ، فما أجفاني !
إنسانُ عيني مُذْ تناءت دارُكمْ
ما راقه نظرٌ إلى إنسانِ
ياليتني قد مِتُّ قبلَ فراقكُمْ
ولساعةِ التوديع لا أحياني
مالي وللأيام شتّت صرفها
حالي ، وخلّاني بلا خِلّانِ !
ما للمنازلِ أصبحت ، لاأهلُها
أهلي ، ولا جيرانُها جيراني !
وحياتِكم ماحلَّها من بعدِكُمْ
غيرُ البلى والهدْمِ والنّيرانِ
ولقد قصدت الدّارَ بعدَ رحيلِكمْ
ووقفْت فيها وِقْفَةَ الحيرانِ
وسألتُها لكِنْ بغيرِ تكلّم ،
فتكلمت لكِنْ بغيرِ لِسانِ
ناديتُها : يادارُ ما صَنَع الأُلى
كانوا هُمُ الأوطارَ في الأوطانِ ؟
أينَ الذين عهِدتهم ، ولعِزّهِمْ
ذُلّاً تَخِرُّ معاقدُ التيجانِ ؟

كانوا نُجومَ مَنْ اقتدى ، فعليهمُ
يبكي الهدى وشعائرُ الإيمانِ

قالت : عَدَوْا لما تَبَدَّدَ شملُهم
وتبدّلوا من عِزّهم بهوانِ

كدمِ الفِصاد يُراقُ أرذلَ موضعٍ
أبداً ، ويخرُجُ من أعز مكانِ

أفنتهُمُ غِيَرُ الحوادثِ مثلَما
أفنت قديماً صاحبَ الإيوانِ

لمّا رأيتُ الدارَ بعد فراقهمْ
أضحت مَعطّلَةً من السُّكانِ

مازلت أبكيهم وألثِمُ وحشةً
لجمالهم مُسْتَهْدَمَ الأركانِ

حتى رثى لي كلٌّ منْ لا وَجْدُهُ
وجدي ، ولا أشجانُه أشجاني

أترى تعودُ الدارُ تجمَعُنا كما
كُنّا بكلِّ مَسَرّةٍ وتهاني ؟

إذْ نحنُ نغتنم الزّمانَ ونجتني
بيَدِ الأمانِ قُطُوفَ كلِّ أماني

والدّهْرُ تخدمنا جميعُ صُروفه
والوقتُ يُسْعِدينا على العُدْوانِ

والعيشُ غَضٌّ والدُّنُوُّ مُمَزِّقٌ
بيدِ الوصالِ ملابسَ الهِجْرانِ

هيهاتَ ، قد عَزَّ اللقاءُ ، وسدّدتْ
طُرُقَ المَزارِ طوارِقُ الحدثانِ
مالي أردِّدُ ناظريَّ ، ولا أرى الـ
أصحابَ فيك جماعةَ الإخوانِ !
والهَفْتي ! وا وحدتي ! وا حَيْرَتي !
وا وَحْشَتي ! واحَرَّ قلبي العاني !
سِرتُمْ ، فلا سَرَتِ النسيمُ ، ولا زها
زهرٌ ، ولا ماست غُصونُ البانِ
مالي أنيسٌ بعدَكُمْ غيرَ البُكا[1]
والنوحِ والحَسَراتِ والأحزانِ
ياليت شعري ! أينَ سارت عِيسُكُمْ ؟
أم أينَ موطنكم من البلدانِ [2]

★

وقال أيضاً يذكر خراب بغداد وقتلَ الخليفة (المستعصم بالله) ، رحمه الله :

عندي لأجل فراقكم آلامُ
فإلامَ أُعْذَلُ فيكم وألامُ ؟
من كانَ مثلي للحبيب مفارَقاً
لاتعذِلُوه ، فالكَلامُ كِلامُ
نعمَ المساعدُ دمعيَ الجاري على
خدّيَّ ، إلا أنّهُ نمّامُ

(١) الأصل (الا) ، والصواب (غير) ، لأن القافية مخفوضة الروي .
(٢) فوات الوفيات ٢/٢٣٤ ، بيروت ، ١٩٧٤ م .

ويُـذيب روحي نَـوْحُ كـلّ حمامةٍ
فـكأنّمـا نـوحُ الحَـمـامِ حِـمـامُ
إنْ كـنـت مثلي للأحبّـة فـاقـداً ،
أو في فـؤادك لـوعـة وغـرامُ
قـفْ في ديارِ الظاعنين ، ونادِهـا :
« يادارُ ! ما صَنَعَت بِـكِ الأيّامُ ؟ »
أعرضتُ عنكِ لأنهم مُـذْ أعرضوا
« لم يبـقَ فيـك بشاشةٌ تُـسْتامُ »
يادارُ ! أين الساكنون ، وأين ذَيّـ
ـاك البهاءُ وذلك الإعظـامُ ؟
يادارُ ! أين زمـانُ ربعـك مُـونِقـاً
وشعـارك الإجـلالُ والإكـرامُ ؟
يادارُ ! مـذ أفَـلَـتْ نجـومُكِ عَمّنا
واللـهِ من بعـد الضيـاء ظـلامُ
فـلبعـدهـم قُـرْبَ الرّدى ، ولفقـدهم
فُـقـد الهـدى ، وتزلـزل الإسـلامُ
فمتـى قَـبِلْتِ من الأعـادي ساكناً
بعـد الأحبّـة ، لا سَقَـاكِ غَـمامُ !
ياسادتي ! أمّـا الفـؤادُ فشيّـقٌ
قَـلِـقٌ ، وأمّـا أدمعي فسِجـامُ
والدارُ مُـذْ عدِمت جمـالَ وجـوهِـكم
لم يبـقَ في ذاك المَقـام مُـقـامُ

لاحَظٌ فيها للعيون ، وليس ليلْ
أقدام في عرصاتها إقدامُ
وحياتكم إنيّ على عهد الهوى
باقٍ ، ولم يُخْفَرْ لَدَيَّ ذِمامُ
فدمي حلالٌ إن أردتُ سِواكُمُ
والعيشُ بعدَكُمُ عليَّ حرامُ
ياغائبين ، وفي الفؤاد لبعدهم
نارٌ لها بين الضلوع ضِرامُ
لاكتبكم تأتي ، ولا أخباركم
تُروَى ، ولا تُدْنيكم الأحلامُ
نغّصتم الدنيا عليَّ ، وكلما
جدَّ النوى لَعِبَت بيَ الأسقامُ
ولقيت من صَرْف الزمان وجوره
مالم تخيّله ليَ الأوهامُ
ياليت شعري ! كيف حال أحبّتي ؟
وبأيّ أرض خَيمّوا وأقاموا ؟
مالي أنيسٌ غير بيتٍ قالَهُ
صَبٌّ رمته من الفراقِ سِهامُ
« واللهِ ما اخترت الفراق ، وإنمّا
حكمت عليَّ بذلك الأيّامُ » (١)

---

(١) فوات الوفيات ٢/٢٣٢ .

بغداد في « المقامات »

أنشأ غير واحدٍ مجموعة من « المقامات » ، وهي نوع من النثر الفني يعتمد على الازدواج والسجع . وتتناول المقامة الواحدة موضوعاً خيالياً أو أقصوصة وهدف منشئها ابراز مقدرته اللغوية ، ويودع المقامة ما يشاء من فكرة أدبية ، أو فلسفية ، أو فكاهية ، أو طُرفة أدبية . ومبتكر هذا الفن هو « ابن دُرَيْد » ، وجاء بعده « بديع الزمان » فعارضه ، ثم كتب على غِراره الحريري ، وإن كان « البديع » يجرى مع طبعه ، والحريري يتعمل ويتكلف في أسلوبه ولغته . والذين كتبوا في فن المقامه استنوا سنتهما ، منهم ابن الصيقل الجَزَريّ ، وظهير الدين الكازروني ، وناصيف اليازجي .

وكل واحد من هؤلاء الكتاب أفرد مقامة باسم (المقامة البغدادية) .

١ — بديع الزمان المتوفّى سنة ٣٩٨ هـ : كانت المقامة الثانية عشرة من مقاماته هي المقامة (البغدادية) :

٢ — الحريري المتوفّى سنة ٥١٦ هـ كانت المقامة الثالثة عشرة من مقاماته هي (المقامة البغدادية) .

٣ — ابن الصيقل الجزيرى المتوفى سنة ٧٠١ هـ : كانت مقامته الأولى من مقاماته (المقامة البغدادية) .

٤ — ظهير الدين الكازروني البغدادي ، له (المقامة البغدادية) .

٥ — والشيخ ناصيف البازجي المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ ، جعل المقامة الثامنة هي المقامة (البغدادية) .

★

مقامة الكازروني البغدادي :

وقد وجدت للكازروني مقامة باسم (البغدادية)[1] . وهي في موضوع

(١) [حقق هذه المقامة الأخوان كوركيس عواد وميخائيل عواد، وراجعها السيد مكي جاسم] .

بغـــداد لم يتناول شيئاً غيرها . وصف معالمها ، وأطرى خلفاءها ، ونعت أيامهم التي كانت تتسم بالأفراح والمسرات ، ووصف مواسمهم ومهرجاناتهم . وانني أختتم هذا الباب بالاقتباس من هذه المقامة . وظهير الدين الكازروني البغـــدادي هـــو من علمـــاء المئـــة السابعـــة . مات في شهـــر ربيـــع الأول سنة ٦٩٧ هـ . وكان من رجال العصر المغولي : خدم الديوان ، وكان مؤرخاً ، حَيْسُوياً ، فرضيّاً ، لغوياً ، فقيهاً . وكازرون مدينة في غرب ايران .

وهـــذه المقامة حوت وصفـــاً لا يقـِـل عن الشعر صياغة، أنتطف منها نُـتَـفاً ، قال :

« الا إن الله سبحانه وتعالى لمـّا أرسل عـَذابه ، سلب كلاً منهم عقلَـه وصوابه . فنفذ سهم القضاء ، وانتشر جـَناح الحمـــام في الفضاء ، فلم تنفع الجُنـَّة ولا السلاح ، ولا البواتر ولا الرماح ، فوقـــع الفشل[1] ، وعمّ الكسل ، وساء العمل ، وكثر الزلل ، وبطل التدبير ، وحار الوزير ، فنزل بهم العدُو حين اختلُّوا ، و « ماغـُزِيَ قـــوم في عُقرِ دارهـــم إلاّ ذَلـُّوا » .

ومنها :

« ولقد كانت الملوك كالأُسود الضواري ، أو كالعقبان على ظهور المَهاري ، والمماليك كالبدور ، والبُزاة والصقور ، والملك على سوقه قائم ، ورواق المملكة رفيع الدعائم ، والأيام أعياد وأفراح ، والليالي أعراس ومراح ، ورياض الزمان متفتقه النـُّوّار ، وساعات الأيام مشرقة الأنوار ، وشخص العطاء مهتز الأعطاف ، وسحائب الإنعام غدِقة النّطاف ، وبُروق الآمال ممطرة الأنواء ، وأقطار المواهب عبقة الأرجاء ، وأفنان الأفراح خضِرة الأغصان ، وأطيـــار المسارّ خاطبة على منابر الأفنان ، ففي كل وقت تضرب طبُول الهناء على أبواب الأمراء ، وتخفق بُوقات السّراء ، مؤذنة بدوام النَّعْماء . فـلا — والله —

(١) الفشل : الجُبْن .

وحقك لا والله ، ما نظرت عيني الى أحسنَ منها بلدةً أبداً ، وكيف يمثّل بها أو يقاس ، أو يشبه بالقدم الراس ؟ وكانت تمضي لأهلها الأوقات والأيام والساعات ، كاملة المسار واللذات ؛ ولهم فيها من كل الثمرات ، والمواسم تجلى في حُلِيِّ النَّضارةِ وتلذّ أيامها للنظارة » .

ومنها :

« موسم الحج وهو أعظم مواسم السنة ، التي تكِلُّ عن وصف حسنه الألسنة ، وتفتح فيه آذر المضيف ، لكل بائسٍ من الحاج والضعيف ، وتضرب على « دجلة » الحياض والروايا ؛ ويؤذّن بالحج في سائر الرَّعايا ، ثم يُهرع الناس الى الفرجة على التبريز ، في حُلَلِ الإِبريز ، ما بين فتىً وفتاه ، وشابّ قد فتن بحسنه فتاهْ : يرتعون في رياض الجانب الغربي ، ما بين ماشٍ أو مُمتَطٍ صَهْوةَ حصان عربي ، فلا يزالون كذلك أياماً يمرحون وُحْداناً وفِئاماً ، والسبل تجلى في الموكب الى الخيام ، وتزفّ الى منازلها بالعبيد والخُدّام . فأول ما يقدمها العَلَم وهو مُحمل الخاص ، بعده الكوس أي الطبل » .

ثم يمضي الكازروني يعدد مواسم بغداد ، ومنها شهر الصيام ، المختص بالعبادة والقيام ، ومنها التهيوُّ للعيد المشهود ، والمجمع المحشود ؛ ومنها الأضحى ، ومنها موسم التُّرَب (1) ، واليها المنقلب ، فيركب الوزير في أرباب الدولة والأمراء ، والصدور والكبراء ، في موكب مشهود الى « الرُّصافة » ، وهي مدفن وُلاة الخلافة ، ومنها أعياد ومواسم تقع أيّام السبت : « يخرج الناس الى الرياض ، والأزاهير لسماع أصوات الشحارير ، والغلمان كالولدان ، والجواري كالحور الحسان ، ما بين أهيف وأحور ، وأكحل وأغْيَد وأعطر .

في البدر من وجنتِه نكتةٌ
وفترةٌ في العين من طرفهِ

---

(1) زيارة المقابر .

اذا مشى جاذبه رِدْفُهُ
كأنّه يمشي الى خلفِهِ

وأما زمن الربيع ، وأيام الوشي البديع ، فإنهم كانوا يصطبحون ويتجمعون ويتثالون ، كأنّهم الى نصب يوفضون ، فينزلون الجواري في رَهْط من الجواري ، ويدخلون « نهر عيسى » ، ويباكرون نحو قصده تغليساً ، فيتجمعون بـ « المُحَوَّل » ، إذْ عليه بالحسن المُعَوَّل ، فيخترقون أشجاره ، ويقطفون ثماره ونُوّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره ، وينزلون غيطانَهُ وأنهاره . ثم تعزِف القيان ، وتصطخب العِيدان ، وتصفق الغُدران ، وترقص الأغصان ، وتميد الأفنان ، وكلما دمع الراووق ، طاب المشوق ، وكلما بكى السحاب ، ضَحِك الحَبَاب ، وكلما طرب العود ، زمجرت الرعود . وقد انتظموا في سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك أيّاماً ، لايطعمون مناماً » .

هذا على غرار ما كان يجري إلى أيامنا القريبة في « المدائن » « سلمان الفارسي » (سلمان باك) جنوبي بغداد ، فقد كانت جماعات « الشيخلية » ومن جاورهم من أهل المحالّ يخرجون في موسم الربيع وكأنهم في عيد ، ويمضون فيها أيّاماً من أيام الربيع على مثل هذه الحال .

★ ★ ★

البابُ الثاني

بغـــداد

فـــي شعـــر شعـــراء العصـــر العثمانـي

حنين وشتياق :

للشيخ أبي الخير عبد الرحمن زين الدين السُّوَيدِيّ (١١٣٤ — ١٢٠٠ هـ) ، من قصيدة طويلة قالها ، وهو في « دمشق » ، يتشوق الى مسقط رأسه وموطن عزّه ومَدْرجَ شبابه[1] :

لولاكِ يابلدة « الزَّوْراء » لولاكِ
ما أحرق القلبَ مِنّي شجوُ شجواكِ
سقى أديم الثّرى منك الحيا وحبت
سُحْبُ الكرائم في التكريم مَحْياك
واخضَرَّ رَبْعُكِ من دونِ الربيع ، ولا
زالتْ زُهورُكِ في صيفٍ ومشتاكِ
أقولُ للواكفِ المُنْهَلِّ من مُقَلي :
أكْفُفْ لِتَنْجُوَ من مجراه جَرْعاكِ
شتّانَ مابينَ « بغداد » و « جِلّقَ » معْ
إقعادِ حظّي ، فحظّي مدمعٌ باكي.
هيهاتَ هيهاتَ أنْ يَنْجابَ لي أملٌ
به أعلّلُ آمالي للِقُيْاكِ
آهٍ وآهٍ ! فلا أُنْهي الأوُّهَ ما
دام التّفَوُّهُ في بعدي لمرماكِ

★

(١) عن المسك الأذفر — للعلامة محمود شكري الآلوسي .

★

الأرض تشقى وتسعد :

روى العلامة السيد محمود شكري الألوسي رحمه الله قصيدةً خَريدة لأحمد بك الشاوي ، وقد نشرت في جريدة « الزوراء » يؤرخ عَرْصَة الميدان . وكانت بين الجامع الأحمدي والقلعة ، يجتمع فيها الباعة ، وتتجمع فيها الدواب والكلاب السائبة ، وتكثر فيها القاذورات وتتراكم الأوساخ ، حتى تولى الولاية « سِرّي باشا » أحد مشاهير الولاة العثمانيين ، فأمر برفع ما كان عليها ، وغرسها أشجاراً متنوعة ، وجعلها روضة للرياحين والأزهار ، فقال الشاوي هذه القصيدة ، نورد منها قوله :

ألم تَرَ أنّ الأرضَ تَشْقَى وتَسْعَدُ ؟
وتصلح طوراً بالولاة وتَفْسُدُ ؟
وتحيا كما تحيا الرِجال ذليلةً
مِراراً ، وأحياناً تُعَزُّ وتُنْجَدُ
وكم قد رأينا من بلادٍ مريضةٍ
شَفاها بتِرْياق التّدابير أصْيَدُ
ومن قُطْرٍ صُقْعٍ صَحَّ من بعد عِلّةٍ
فأمرضه والٍ من الجور أنكدُ
وحَسْبُكَ في « ميدان بغدادَ » عِبرةٌ
وشاهدُ عدلٍ بالّذي قلتُ يَشْهَدُ
مضى ما مضى والريحُ تَسْتَنُّ فوقَه
وتُتْهِمُ فيه الرّامسات وتُنْجِدُ
وتعلوه من وقع الحِوافر غَبْرَةٌ
تكادُ بها الشمس المنيرةُ ترمُدُ

وكم قـد تشكّى واستغاث فلم يُغَـثْ ،
ونادى فلم يُنـجِـدْه إذْ ذاك مُنْجِدُ

فبيناهُ في حالٍ تسوؤك حـالــه
غـدا وَهْـوَ مـن بين الميادين يُحْسَدُ

فمن سَطْرِ صَفْصافٍ يروقك منظراً
وسَطْرِ فسيلٍ حسنُـهُ يتجدَّدُ

ومـن بين هاتيك السطـور جـداولٌ
من الماء تجري والحَمامُ يغـرّدُ

وعرصة الميدان من مطلع الحكم الوطني ١٩٢١ قد أبدل حالها مرات عديدة ، فصيّرت مرة حديقة غناء ، وجعلت فيها فوارة يلطّف رذاذها الجو ، وتارة مقهى وفيها تعزف فرقة بلدية ، ومرة أبدلت بالحديقة مباولُ عامّة ، ثم أعيدت حديقة ، وأخيراً أصبحت عرصة صغيرة لموقف السيارات . ثم عادت حديقة مُزهرة بالورود والرياحين ، ونصب في وسطها مدفع قديم استعمله الخليفة مراد الرابع في حربه الفرس ، عرف ، عند العامة بـ « طوب أبي خـزامـة » .

★

شكوى وسياسة :

ومن الشعراء الأعيان الذين قاومـوا مظالم بعض الولاة ، وتغنوا بالمجـد العربي ، السيد الجليل عبدالغني الجميل ، مفتي بغداد على عهد الوالي علي رضا ذلك الوالي الذى تعسفَ في حكمه ، وضيق على البغداديين في جمع الأموال ، وحكّـم أتباعه وجنده في استخراج الذهب ، وأساء جلاوزته معاملة النساء ، فثار عبد الغني في وجهه وغاضبه . وقد عبّر عن ثورته بقصائد شديدة اللهجة ، وشكا فيها من قعود الّذين من أجلهم غاضَبَ السلطة ، وخذلانهم لـه أيامَ محنته وحرق داره ومكتبته ـ فقال من قصيدة طويلة عـدد أبياتها ٧٦ بيتاً

بحسَب رواية الشاعر عبد الغفار الأخرس في مجموعته :

أجُولُ بطَرْفِي في «العراق» فلا أرى
من النّاس إلّا مظهر البُغْض والشَّحْنا

فخيرُهُمُ للأجنبيّ ، وقبحهم
على بعضهم بعضاً يَعُدُّونه حُسْنا

وشبّانهم شابُوا المَوَدَّة بالجفا
وشِبْنا وما للصَّفْو في كَدَرٍ شُبْنا

سَمَرْنا مع السُّمْر العوالي لياليا
وهم سَمَروا في ذكر سُعْدَى وفي لُبْنَى

وعصبة لؤمٍ قد تناجوا لحربنا
فياويحهم ! ماذا يلاقونه مِنّا ؟

ألا نخوةٌ منهم فيصحو الى التي
أيادي سَبا قد غادرت ذلك المَغْنى؟

ألا حازم للرشد شَدَّ حزامه
لموزمة يَنْسى بها الطائر الوُكْنا ؟

ألا مرشدٌ منهم عن الغَيّ قومَهُ
فيوقفهم منه على السَّنَنَ الأَسْنَى ؟

ألا صَرخَةٌ تدعو الصّريخ إذا دعا
ليومٍ عَبُوسٍ شرُّه يوقظ الوَسْنى ؟

ألا رافعٌ عن قومه بَغْيَ ظالمٍ
اذا فقدوا في الحرب من ينطَحُ القرنا ؟

ألا مبلغٌ عنّي سَراةَ بني الوَغى
وأقيال عُرْبٍ كيف صبرُهُمُ عنّا ؟

طوينا عن « الزوراء » ، لا درَّ درُّها ،
بساطاً متى يُنْشَرْ يعُدُّونَهُ طعنا
وإني وإن كنت ابْنَها ورَضيعها
فقد أنكرَتْنا ، لاسقاها الحيا مُزْنا ؟

★

وقال في سنة ١٢٦٦ هـ قصيدة تترجم عن ثورته النفسية ، وتصور ما كان يجش في صدره من الآلام من الوضع ببغداد :

علام الإِقامة في بلدةٍ
نُعَدُّ بها مثل حُمْرِ النَّعَمْ ؟
فهلّا رَحَلْنا الى غيرها
لنحظى بعزٍّ وعيشٍ أتَمّ
فلا بارك الله في بلدة
تُعَدُّ الأسودُ بها كالغَنَمْ
وفي كلِّ يومٍ تُرينا الخطوب
وتسطو علينا بِعلْجٍ أغَمّ
اذا بلدة أنكرت أهلَها ،
فدعها ، فمرجِعُها للعدمْ
أهُمُّ ومالِيَ من مُسْعِدٍ
وقومي كسالى ودائي الهَرَمْ
أنادي ومالِيَ من سامع ،
وهل يسمَعُ القولَ مَنْ في صَمَم ؟
الى كم نراعي الخسيس الدنيّ
ونرعى له حُرمةً كالحُرَمْ
فما ليَ في « الكرخ » من مسكن
ولا في « الرصافة » مأوى العَجَمْ

وكلّ رفيع بها ضائعٌ
وكلُّ وضيعٍ بها محترمْ
أمَيْمُ ! دعيني أجوبُ الفلاةَ
فإنيّ وعينك عالي الهِمَمْ
أما تعلمين بأني امرُؤٌ
أبيّ عن الضيم مَهْمـا ألَمّ

★

الشكوى والسياسة :

وقال قصيدة ثالثة كان قد بعث بها الى المفتي العلامة أبي الثناء محمود شهاب الدين الألوسي يوم كان في اسلامبول ، وقد وردت في مجموعة الأخرس ، وفي « غرائب الاغتراب » مع تخميس الأخرس ، منها قوله :

وكيف أرى بغداد للحُرّ منزلاً
اذا كان مَفْرِيّ الأديمِ نزيلُها
ويسطو على آسادها إبنُ عِرْسِها
ويَرْقى على هام السّماك ضئيلُها
فما منزل فيه الهوان بمنزلٍ
وفي الأرض للحر الكريم بديلُها
وأصعبُ ما ألقى رئاسة ناقصٍ
مساويه إنْ عُدّت كثيرٌ قليلُها
وما ساد في أرض « العراقين » ماجد
من النّاس إلا قَدْمُها ورذيلُها
فسِرْ عن بلاد طوّحت لا ترى بها
مَقيلَ كريمٍ للعثار مُقيلُها

ومنهـــا :

عفـا اللهُ عنيّ كم أجوب متَها مِـهاً
من الأرض يستاف التّرابَ دليلُـها !
لعلّي ألاقي عصبـةً عبشميّــــةً
فـروعٌ مناجيبٌ كرامٌ أصـولُها
ينـمّ بيـهـم مجـدٌ رفيـع ومنطِـقٌ
ويُنْبِـي عن الخيـل العِتاق صهيلُـها
متى يلثِمُ اللّبات رُمْحي وترتوي
سيوفٌ بأعنـاق اللِئام صَليلُـهـا
وحـولي رجـالٌ مـن مَعَدٍّ ويعربٍ
مَصـاليتُ للحـرب العَوان قَبيلُـهـا

★

ونظم أيضـاً قصيدة رائية طويلة بعث بهـا الى صديقه العــلامة أبي الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي ، يؤرخ فيها واقع بغداد . منها قوله :

لهـفـي عـلى بغـداد مـن بـلـدة
قـد عَشَّشَ العِـزُّ بهـا ثم طـارْ
كانـت عـروساً مثلَ شمسِ الضـحـى
لمستعيـرٍ حَـلْيُهـا لا يُـعــارْ
كانـت لآساد الـوغـى منـزلاً
والخـائـفُ الجـاني بهـا يستجـارْ
واليـوم لامـأوى لـذي فـاقـةٍ
فيـهـا ، ولا في أهـلـهـا مستجارْ

حـلَّ بهـا قـومٌ وهُـمْ في عـمـىً
مـا مَـيَّـزُوا شِـرارَهـا والخِـيـارْ
والليث قـد غـاب ، وفي غـابـه
قطبـاً غـدا الثـورُ عليـه المـدارْ
بـارت بـهـا أسنى تجـاراتهـا
وهـكـذا عـادة دار البـوارْ !
قـد نعـق البـومُ على جُـدْرهـا
يَصيـح بالنـاس : البَـوار البَـوارْ!
و « الكرخُ » قد أقفر من أهلـهِ
من بعـدِ مـا كانـوا كوَرْد البَهـارْ
مـا سُـمِّـيَتْ « زوراءَ » إلا لمِا
فيهـا عـن الرشـد من الإِزورارْ
قـد خـلـع النـاس عِـذارَ الحيـا
فجـار فيهـا الـوغـدُ والحُـرُّ حارْ
والـكل فيـهـا قـادح زنـدَهُ
وأوّلَ الإِحـراق يبـدو الشّـرارْ
لا يشـتفي غيظ أخـي نـخـوةٍ
الا اذا جَـرَّدَ بِـيـضَ الشِـفـارْ
أيـا شـهـاب الـديـن ! ياسيـدي !
قـد هـجـم النَّـذْلُ عـلـيـنـا وجارْ
وأصبح القـردُ بهـا مـقـتـدًى
يلعـب بـالألـبـاب لعـب القـمـارْ
بغـدادكـم أخنـى عـليـهـا الذي
مـن أسره لا يستطـاع الفـرارْ

قد بليت بالغمرات التي
قد علّمت مثلك خوضَ الغمارْ
يانازحاً عنّا وما قد درى
من بَعْدِه ما قد جرى في الديارْ
لو أن لي ماسكةً من قُوًى
أتيتكم حَبْواً الى « أسكدار » (١)

★

شوق وحنين :

وقال العلامة شهاب الدين أبو الثناء السيد محمود الألوسي المفسر الشهير ، وهو في « إسلامبول » يتشوق الى صبيته ، ويَحِنّ الى وطنه ، ومنها لجده لأمه الشاعر الفقيه الشيخ حسين العُشارِيّ ، قال رحمه الله :

حَدانِي إلى « الزوراء » شوقٌ مُبرّحٌ
فليس الذي حدثت عن حالها سهلُ
اذا ما نَبَتْ دارُ السلام بأهلها
فلا جبَل يُؤوي الكرامَ ولا سَهْلُ
وإن قلّص الظلّ الذي في جَنابها
فأيْن من الرَّمْضاء في غيرِها ظِلُّ ؟
وإن نَضُبُ الماء النَّمير بأرضها
فأيُّ شرابٍ في سِواها لنا يحلو ؟
ديارٌ بها نيطت عليّ تَمائمي
قديماً ، ولي فيها نما الفرع والأصلُ
بها سَكَني ، في ربعها الخِصْب ناقتي ،
بها جَمَلي يرغو ، بها قيمتي تغلو

---

(١) اسكدار : القسم الآسيوي ، من اسلامبول .

ألا لَيْتَ شعري ! هل أراني بربعها
مقيماً ؟ وبالأحباب يجتمع الشملُ ؟
وهل روضها يَخْضَرُّ بعدَ ذُبولِه
ويَهْمي على أوراقه الوَبْلُ والطَّلُّ ؟
وهل أنا في يومِ العَرُوبة قاصدٌ
لحضرة بازٍ شأنُه الفَصْلُ والوصلُ[1] ؟
وهل كلَّ يوم ماسِكٌ كفَّ والدي
أبي المصطفى ذِي همة أبداً تعلو ؟
وهل أدباءُ الجانِبَيْن يضُمُّهُمْ
وإيّاي طاقٌ نَقْلُه الأدَبُ الجَزْلُ ؟
سلامٌ على تلك الديار وأهلها
فهم في فؤادي دائماً أينما حلُّوا
فوالله لا أسلو هواها وماءها
اذا كان قلبي عندَها ، فمتى أسلو ؟
أحِبَّتَنا ! هل من وصول اليكمُ ؟
فقد تعبت بَيْني وبينكم الرُّسْلُ
ألا هِمّةٌ تُزْجي ركائبَ عزمتي
اليكم إذا شئتم بها اتّصل الحبلُ
وإني بناديكم على سوء فعلكم
أرى أبداً عندي مرارتَهُ تحلو

★

شوق وحنين :

وقال أحمد بك الشاوي الأديب الضليع الذي تطفح قصائده بالحس العربي :

---

(1) يوم العروبة : يوم الجمعة . والباز : لقب الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ويقال أيضاً ، الباز الأشهب .

تذكرتُ مابيني «الرُّصافة » والجسْرِ
عهودَ الصبا ، فاشتاق قلبيَ للذِّكْرِ
وعاودني الشوق الذي كنت ناسياً
لِسُعْدَى ، فزاد القلب جمراً على جمرِ
خليليَّ ! هل عصرُ الشبيبة راجعٌ
إلينا بـ « بكَرْخايا » ؟ وناهيك من عصرِ !
تركنا خيولَ الجهل فيه مُغِيرَةً
على اللهو واللذات من غيرِ ما سِتْرِ
لكلِّ فتىً يُعطي الخلاعةَ أهلها
بيومٍ به للكأس ما شئتَ من كَرٍّ
وكم قد شددنا شَدَّةً جاهليةً
على ساقيِ الخمار في طلب الخمرِ
فَرُحْنا نَجرُ الأُزْرَ تيهاً ، كأننا
ملوكٌ يجرُّون الذّيولَ من الكِبْرِ
فيا لائمي ! إن كنت في ذاك لائمي
رُوَيْداً ، فإنّ اللوم أعهَدُهُ يُزْرِي
حنانَيْكَ ! لا تُكْثِرْ من اللوم إنّني
كفتني من اللوم الملامةُ لو تدري
اذا المرءُ لم تَأْبَ الدنيّاتِ نفسُهُ
فقل لي : لماذا سُمِّيَ الحُرُّ بالحُرِّ ؟
وإن لم يكن بالشيب للمرء زاجر
عن اللهو واللذات ، لا خير في المرِ (١)

---

(١) اي المرء .

ومنها يخاطب الخليفة :

ولو لم تغث أهل « العِراق » بعزلـه
رَغَـتْ بينَهـم بالشَّرِّ راغيـةُ البَـكْرِ

وأجلاهُمُ عن أرضهـم فتفرّقـوا
أيادي سَبَا في مُوحِشِ البرّ والبحرِ

وما ذاك الا من مـقادير قـادر
ليبلُـوَ من قد ساد بالخيرَ والشَّـرَ

وكم من يَدٍ أتبعتَ في إثرها يـداً
لهـا أثرٌ باقٍ حميـدٌ مدى الدهرِ

بهـا الله قد أحيا الورى ، فكأنّهـا
يَدُ الغيث بعد المحْـلِ في البلد القَـفْرِ

فلسنا نؤدّي شكرهـا ، ولـو اننـا
ملأنا جميع الأرض بالنّثر والشِعرِ

لقد شَمِلَتْنا من أياديك نعمـة
عظيمـةُ قدرٍ ، فهي واجبـةِ الشكرِ

فأضحك مَـنْ قد كان بالأمس باكياً
ببغداد ، لا ينفكُّ مدمَعُـهُ يجري

★

وفي الحنين والشوق :

كتب الشيخ عبد الحسين محيي الدين النجفي من شعراء المئـة الثالثة عشرة (١٩ م) قصيدة ، أثبتها العلامة السيد محمود شكري الألوسي في « كتاب أخبار بغداد » ، قال :

هي الدارُ بالزوراء ، هـلّا نزورُها
فقد راقَ منها وَفْرُهـا ونَزُورُها

مُعَرَّسُ أيّامِ الصِبّا وعِراصُها
وأوطارُ أيّامِ التصابي وُدورُها

معاهد لا أنسى لها عهدَ أُنسِها
وإنْ سلفت أعوامُها وشهورُها

يروقُك منها نافراتُ ظبائها
وأحسن مازان الظباءَ نُفُورُها

رِباعَ الظِبّا « بالكرخ » ! بوركْتِ أربُعاً !
سقاكنّ من صَوْبِ الغوادي مَطِيرُها

وزارك مُعْتَلُّ النّسيم ، وحبَّذا
مرابعُ مُعْتَلُّ النّسيمِ يَزورُها

مَغانٍ ، عليها اليُمْنُ ألْقى رِواقَه
ودام على مَرِّ الليالي حُبُورُها

تضيءُ . فإمّا بازغاتٌ شمُوسُها
لديها ، وإمّا ساطِعاتٌ بدُورُها

فياصاحبي ! عُجْ بي اليها ، فانّها
الى الخُلْدِ والغيدُ الكواعِبُ حُورها

★

وقال الحاج عبد الرزاق الشواف والسيد عبد الغفار الأخرس البيتين الآتيين ، رواهما الألوسيّ في « أخبار بغداد » :

مَنْ قاسَ « بغدادَ » في مصرٍ وساكنها
بساكنيها ، فقد أخْطا بما قاسا

أوحلّ في غير « بغداد » وساحتها
قاسىَ بها لافتقار الأنس ما قاسى

★

احبتنا بزوراء العراق :

وقال السيد راضي القزويني ، وهو في تبريز ، يتشوق الى بغداد :

أحِبّتَنا بزَوْراءِ العِراقِ
لقد طال النّوى ، فمتى التلاقي؟

وما « تبريزُ » للفصحاء مأوى ،
وأين التّركُ من عرب العِراق ؟

★

وله مخمساً بيتين لعبد الغنى الجميل :

أفي « الزوراء » ذو الهمم العوالي
ينال من العلى أقصى المنال ؟
فيامتكلفاً طلب المحالِ
(دعِ الزوراء إنْ رُمْتَ المعالى)
(وسِرْ عنها تَجِدْ عنها بديلا)

وقُمْ متبدّلاً رَفْعاً بخَفْضِ
بحكم المجد من نَدْبٍ وفرْضِ
ولا تَرْضَ ببعضٍ دون بعضِ
(فإن الحرّ لا يرضَى بأرضٍ)
(يُرى فيها مُهاناً أو ذليلا)

★

ومن تخميسات الأخرس لقصيدة عبد الغني الجميل ، قوله ، وقد أثبت منه أبو الثناء إلألوسي في « غرائب الاغتراب » (٤٣ تخميسه) :

فكم قرصتني من عِدّى بقوارصِ
هوابط في وادي المساوي شواخصِ

ولاقيتُ صعبَ الملتقى غير ناكِصٍ
(وأصعبُ ما ألقاه صحبةُ ناقصٍ)
(مَساويهِ إنْ عُدَّتْ كثيرٌ قليلُها)
اذا الحُرّ في بغدادَ أصبح مبتلى
وعاش عزيز القوم فيها مُذَلَّلا
فلا عجبٌ إن رمتُ عنها تحوّلا
(وكيف أرى بغداد للحُرّ منزلا)
(اذا كان مَفْرِيّ الأديم نزيلُها)
ألم تنظر الأرزاء كيف تعددت ؟
وساعدت النحس الشقيّ وأسعدت ؟
قَعَدْنا وقامت أرذلونا فسوّدت
(وكم باسقاتٍ في «الرّصافة» أُقعدت)
(على عجزها حيث استطال فَسيلُها)

★

سلام على بغداد :

ولعبد الغفار الأخرس الموصلي شاعر المئة الثالثة عشرة (١٩ م) بالعراق من قصيدة :

سلامٌ على «بغداد» من بعد هَدْأة
سلامَ مَلُولٍ لا يَمَلُّ من الهَجْرِ
سأرحَلُ عنها غيرَ ملتفت لها
وأغدو مع النّائين في أوّل السَّفْرِ
وكم لائمٍ، ياسعدُ، قلت له : اتَّئِدْ
أعيذك من هَمٍّ يوسوسُ في صدري

لئن جهلت قدري أُناس ، فإنّني
من الجهل منّي أن أعرّفها قدري
وكيف مُقامي بين شرّ عصابة
تساوَتْ لديْها رُتبةُ الصُّفْر والتِّبْرِ

★

الشكوى والسياسة :

إتّسم شعر كثير من الشعراء العرقيين ، الذين عاشوا في المئة الثالثة عشرة (١٩ م) ، والرؤساء منهم ، بطابع الوعي العربي ، وتميز بالحس القومي ، وفي طليعتهم في هذا الشأن عبد للحميد بك الشاوي المتوفّى سنة ١٣١٣ هـ . وقد نظم هذه القصيدة ، وهو في نجد بمهمة رسمية ، يفتخر بأبيه وبسلفه الذين شاركوا الدولة في دفع الايرانيين عن احتلال بغداد ، ويذم الناس الذين لم يقدروا أهل بيته قدرهم :

تذكرتُ « بغدادَ » بعد الهُدُو
ء ، ونحن بنجدٍ وقيعانِها
وما ذكرُ « بغدادَ » من حبّها ،
ولا من مودّةِ سُكّانِها
ولكن تذكرتُها إذْ زهت
بِمِطْعام حِمْيَرَ مِطْعانِها
بسيّدها وابن ساداتها
ملوكِ الورى حَلْيِ تِيجانِها
أبي وأبي كُلِّ أكرومةٍ
تَوارَثَها صِيدُ قحطانِها
ففيم الإقامة في بلدةٍ
تَنَاكَرُنا بعد عِرفانِها

كأنْ لم نَذُدْ عن حماها الجيو
شَ ناكصةً نحو إيرانِها
ببيضٍ يعجّل تَضْرابُها
فِراقَ الرؤوس لأبدانِها
وخيلٍ اذا أقبلت في الوغى
حَسِبْتَ تتابُعَ عِقْبانِها
حَقَنّا دِما أهلِها بالدما
ء ، وصُنّا عقائلَ نِسْوانِها
ولو لم ندافع لظلّتْ تباع
سبايا بأبْخَسِ أثمانِها
« وبغداد » نَلْقَى بها جفوةً
وضَيماً لقلّةِ إنسانِها
يُضامُ أفاضلُ أشرافِها
وتسمو أراذلُ عُبْدانِها
تُدَنّس فيها صدورُ النّديّ
بِعُورِ القُرودِ وعُمْيانِها
ولا خَيْرَ يرجى لدى شيبها
وقُبْحاً وتَعْساً لشبّانها
تَساوَوْا بجمع خِصال اللئام
تساوي الحَمير بأسنانِها

★

ويقول في بغداد من قصيدة ثانية :

سقى اللهُ بغدادَ صَوْبَ الحيا
وطالَعَها الطالعُ الأسعدُ

وإنْ لم يكن ليَ في شَطِّها ،
وإن لجَّ بي ظَمَأٌ ، مَوْرِدُ
ولكنْ تركت بها معشراً
لهم طارفُ المجد والأتْلَدُ
همُ النّاسُ إن عُدَّ أهل العلى
وإنْ ذُكِرَ الأصلُ والمَحْتِدُ
وفي « الكرخ » لي كَبِدٌ غُودرَتْ
وقلبٌ أُضيعُ فما يُنْشَدُ
لقِيت من الدهر ما بعضُه
يذوبُ له الحجر الجَلْمَدُ
ولست لأحداثه ضارعاً
ولا أنا مكتئبٌ مُكْمَدُ
ولكنّني أنا جارٍ على
مدى همةٍ شأْوُها أبعدُ
ولست أبالي اذا الحادثات
عَظُمْنَ الى أيّها أعمَدُ
وقومي الأُلىَ الصّيدُ سادوا الورى
وشادوا من المجد ما يخلُدُ
فتعساً لدهرٍ أخوه اللئيم
وأكبر أعدائه الأمجدُ

★

جسر بغداد :

نصب الجسر الوسط في عهد الوالي « نامق باشا » عام ١٩٠٢ م ، فقال

عبد القادر العبادي الملقب بـ (شَنُّون) يؤرخه :

هي الحضارة ما تعلو به الرتب
وما سِوى العدلِ في الدُّنْيا هي السببُ

ومنها :

هذا « العِراقُ » أجِلْ طَرْفاً بخِطَّته
يبدو لعينَيك فيه ما هو العجب
وانظُرْ الى ساحة « الزوراء » تَلْقَ بها
لِـ « نامقٍ » همماً زالت بها الكُرَبُ
ذاك الوزير الذي « دار السلام » به
ماست من الفخر عِطْفاً هزّهُ الطَّرَبُ
كانت مريضةَ جسمٍ قبلَه ، فأتى
وَهْوَ الطبيبُ ، وفيها الداء مُنْتَشِبُ
حتى تَتَبَّعَ أقصى دائِها ، فبدا
فيها الشفاء ، وزال السُّقْمُ والوَصَبُ
فكم له من أيادٍ في مرابعها
وكم له من مساعٍ شُكرُها يجِبُ
سعى بتجديد جسرٍ من تَكَرُّرِهِ
كانت سفائنه كالماء تضطربُ
فعاد جسراً على « الشِّعْرى العَبُورِ » لمن
رام العُبُورَ عليه النيّةُ والعَجَبُ
كلُّ البدائع جاءت في صنائعه
مستبَدعَ الصُّنْع مأموناً به العَطَبُ
كأنّه ووضوحٌ من طرائقه
مُهَنَّدٌ مُنْتَضًى في مَتْنِه شُطَبُ

كأنّه كلّ فُلْك من محاسنه
فريدةٌ وشيت أثوابها القُشُبُ

تستوقف العابر العجلانَ صنعتُهُ
فيقصُرُ الخطْوَ فيه وهو مرتقبُ

إنْ قال واصفه : فاق الحديد ، فلا
تعجب ، فرُبّ حديدٍ فاقه الخَشَبُ

فقلت ، اذْ مُدّ منصوباً أُؤرّخُهُ :
جِسْراً لدِجْلَةَ في «الزّوْراء» قد نَصَبُوا

١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ م

★

وفي هذا الجسر قال الرُّصافي قصيدة أيضاً ، منها قوله :

كأنمّا « الزوراء » خَوْدٌ ، فهو في
نحيف خَصْرها نِطاقٌ عُقِدا

كأنّه عِقْدُ جُمانٍ ، إذْ به
أصبح جِيدُ نهرِها مقلّدا

كأنما « الرُّصافة » اشتاقت الى الـ
« كَرْخ » فمدّتْ لاعتناقه يَدا

فلو رأى « ابن الجهم » منه مانرى
لكان يَعْنيه بما قد أنشَدا (١)

قال فم الفخر لَدَى امتدادِه :
تأريخه « جِسرٌ غدا مجدّدا »

١٣٢٠ هـ

---

(١) يشير الى مطلع قصيدة علي بن الجهم :
عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولاادري

هولاكو والمستعصم :

من القصائد التاريخية التي وردت في الديوان الأول للشاعر الكبير معروف الرُّصافي « هولاكو والمستعصم » يقص فيها أحداث نكبة بغداد ، ويتفجع لما أصاب أهلها من السَّبي والقتل والنهب وهتك المحرمات ، وحرق معالمها ، ونهب مكتباتها وإلقائها في دجلة ، قال رحمه الله:

هو الدهرُ ، لم يَرْحَمْ إذا شَدَّ في حربِ
ولم يَتَئِدْ إمّا تَمَخَّضَ بالخَطْبِ

يزمجر أحياناً ويضحك تارةً
فيظهر في بُرْدَيْنِ للجدِّ واللعبِ

فلا هو في سِلمٍ فنأمنَ بطشَهُ
ولا هو في حرب فنقعُدَ للحربِ

يسالم حتى تأخذ القومَ عِزّةٌ
فيهجم زحفاً في زعازعه النُّكْبِ

أدال من العرب الأعاجمَ بعدَما
أدال « بني عباسها » من « بني حَرْبِ »

ولم أرَ للأيام أشنعَ سُبّةً
لَعَمْرُكَ من مُلكِ العُلُوجِ على العُرْبِ

صفت لـِ « بني العباس » أحواض عِزّهِمْ
زماناً ، وعادت بعدُ مُخْلَبَةَ الشُّرْبِ

عنت لهم الدنيا ، فساسوا بلادها
بعدل ، أضاء الملكَ في سالف الحُقْبِ

فكانوا طِفاحَ الأَرْض عزّاً ومَنْعَةً
خلائفَ ساسوا بالسّيوفِ وبالكتبِ

لقــد ملكوا مـلـكاً بكـت أُخريَاتـُهُ
بـدمع على « المستعصم » الشهم منصَبِّ
تشاغل باللذات عـن حـَوْطِ مـلـكــه
فدارت « على ابن العلقمي » رحى الشَّغْبِ
أطـال هـُجـوداً في مضـاجـع لهــــوه
على تـَرَفٍ ، والـدهـر يقظانُ ذو ألْبِ
لقد غـَرَّهُ أنَّ الـخـطـوبَ روابضٌ
ولـم يـدرِ أنَّ الليث يـَرْبـُضُ للوثبِ
فـكان كـ « مروان الحمار » إذِ انقضت
بـه دولـة مـدّت بـد الفـتـح للـغـربِ

★

جرث فتنة مـن شيعة الكرخ جـلَّحـَتْ
على شيعةٍ في الكرخ بالقتـل والنهـبِ
فقامت لدى « ابن العلقمي » ضغـائنٌ
تـحـَجـَّـرْنَ مـن تحـت النـِّياط على القابِ
فأضمرَ « للمستعصم » الغدرَ ، وانطوى
على الحِـقـْد مدفوعاً الى الغشّ والكـِذْبِ
وخادعــه في الأمر ، وهــو وزيــرُه ،
مـوارَبـةً ، إذْ كان مستضعفَ الإرْبِ (١)
فأبعد عنـه في البـــــلاد جـُنـُودَه
وَشـَتـَّتـَهم من أوْبِ أرضٍ الى أوْبِ (٢)
ودسَّ الى الطاغي « هـُلاكو » رسالةً
مغلغلــةً يـدعـوه فيـهــا الى الحــربِ

---

(١) الارب : الدهاء . (٢) الأوب : الجهة والصوب .

وقال لـه : إنْ جئت بغـداد غازيـاً ،
تملكتَهـا مـن غيرِ طـَعْنٍ ولا ضَرْبِ
فثار « هـُلاكو » بالمغـول ، تـؤُمُّـه
كتائبُ خُضْرٌ تضربُ السهلَ بالصَّعْبِ[1]
وقاد جيوشاً لـم تـَمـُرّ بمخْصبٍ
من الأرضِ إلا عاد ملتهبَ الجـَدْبِ
جيوش تـردّ الهُضْبَ في السير َصفْصَفاً
وتعرك في تَسْيارها الجَنْبَ بالجَنْبِ
فما عتَّمَتْ حتّى بَنَت بغُبارهـا
سماءً على أرض العراق من التُّرْبِ
ولما أبادت جيشَ « بغداد » هالكاً
على رُغْـم فتح الدين قائده النَّدْبِ
أقامت على أسوار « بغداد » بُرْهَـةً
تعَضُّ بها عَضَّ الثِقـافِ على الكَعْبِ
فضاق عليها بالحصار خِناقُهـا
وغَصَّتْ بكربٍ ، يا لهُ الله من كربِ !
وقد حُـمَّ فيها الأمْنُ بالرّعب فانبرت
له رُحَضاءٌ من عيونِ أولي الرُّعْبِ[2]

ومنهـا :

فلما رأى « المستعصم » الخَرْقَ واسعاً ،
وأنْ ليس للداء الّذي حَـلَّ من طِبِّ

---

(١) خضر : تضرب الى السواد لكثافة الجيش .

(٢) الرحضاء تصبّب العرق بعد الحمى .

مشى كارهاً والموتُ يُعْجِل خَطْوَهُ
يؤمّ لفيفاً من بنين ومن صَحْبِ
وراح بعقد الصلح يجمَعُ شمله
كمن راح بين النُّون يجمَعُ والضَّبِّ (١)
فأمسكه رَهْناً وقتّلَ صَحْبَه
« هُلاكو » ، ولم يسمع لهم قَطُّ من عَتْبِ
وأغرى ببغدادَ الجُنودَ كما غدا
بأدماء يضري كلبَهُ صاحبُ الكلبِ (٢)
فَظَلَّتْ بهم بغداد ثَكْلَى مُرِنَّةً
تَفَجَّعُ بين القتل والسَّبْي والنَّهْبِ (٣)
وجاسُوا خِلالَ الدّور ينتهبونها
وصَبُّوا عليهم بطشهم أيّما صَبِّ
وأمسى بهم قصرُ الخِلافة خاشعاً
مُهتّكةً أستارُهُ خائفَ السِّرْبِ
وبات به من واكفِ الدمع بالبكا
عيون المها شَتْراءَ منزوعة الهُدْبِ
وراحت سَبايا للمغول عقائل
من اللاءِ لم تُمْدَدْ لهُنّ يدُ الثَّلْبِ
لقد شرِبُوا بالهُون أوشالَ عزّها
وما أسْأَرُوا شيئاً لَعَمْرُكَ في القَعْبِ (٤)

---

(١) أفهم الخليفة أن هلاكو يرضى بعقد الصلح ويوافق على تزويج ابنته لابن الخليفة ، وضرب المثل لامتناع هذا الجمع بين الحوت والضب .
(٢) الأدماء : الظبية . (٣) مرنة : معولة .
(٤) ما اسأروا : لم يبقوا في الكأس بقية ، اي شربوا المصائب اجمعها .

فَقُلْتِصَ ظِلٌ كان في الملك وارفاً
وأمْحِلَ ملكٌ كان مُغْلَولِبَ العُشْبِ
لقد بات إذْ ذاك الخليفةُ جاثماً
على الحسَفْ مرقوباً بأربعةٍ غُلْبِ
وخارت قُواه بالسُّعار لمنعه
ثلاثة أيام عن الأكل والشُّرْبِ[1]
هنالك « والطُّوسِيّ » أفتى بقتله
قَرَوْهُ بقتل آدِبٍ أفجع الأدْبِ[2]
أشار « هُلاكو » نحو عِلْجٍ ، فَتَلَّهُ
فخرَّ صريعاً لليدَيْنِ وللجَنْبِ
فأُدْرِجَ في لِبْدٍ ، ودِيس بأرجلٍ
الى أن قضى بالرَّفْس ثَمَّةَ والضَّرْبِ
وقد أثْخنَتْ « بغداد » من بعدِ قتله
جروحُ بوارٍ جاء بالحُجَجِ الشُّهْبِ[3]
وما انْدَمَلَتْ تلك الجروح ، وانما
ببغداد منها اليومَ ندْبٌ على نَدْبِ

(١) السعار : قوة الجوع وصوت البطن .
(٢) الطوسي : هو نصيرالدين أفتى بقتل الخليفة . وهلاكو وجنده لا يحتاجون الى فتوى في ازهاق الارواح ، وانما هي طبيعتهم التي ينزعون اليها . .
قروه : من القرى ، وهي الضيافة .
(٣) السنون الشهب : كناية عن سني الجدب والحرب .

كتاب اخبار بغداد :

للشاعر الكبير معروف الرُّصافي يقرّظ كتاب أستاذه العلامة محمود شكري الألوسي والقصيدة لم تنشر في الديوان . قال رحمة الله عليه :

آثارُ « محمود شُكْرِي » دام يشكرُها
بينَ الوَرَى حاضرُ الأقوامِ والبادي

قد أصبحتْ وَهْي بعضٌ من مناقبه
عَدَّ الكواكب لا تُحْصَى بتَعْدادِ

أسفارُ علمٍ بَدتْ كالصُّبْح مُسْفِرَةً
عمَّا له من مَدى علمٍ وإرشادِ

قد أظهر اليوم سِفراً في صحائفه
للناس أسفَر عن أحوال (بغدادِ)

وشّته أقلامُه وَشْيَ البُرُود لنا
فراقَ في حسن إيجاز وإيجادِ

جَمّ المباحث في ذكر الحوادث عن
لحن المثالث يحكي نغمة الشادي

أبحاثه تُحَفٌ في طيّها طُرَفٌ
أبرادها شَرَفٌ للناس في النادي

أبدى من الفضل علماً في مؤلَّفِه
ما عنه يَعْجِزُ إنشائي وإنشادي

أطروفةٌ يرتضيها كلُّ ذي أدب
ونُجْعَةٌ يبتغيها كلُّ مُرْتادِ

★

وقرظه السيد عبد القادر العبادي المعروف بـ (شنُّون) أيضاً ، فقال :

آثارُ « محمود شكري » قد حوَت طرُفاً .
كم مجلسٍ قد زَها فيها ، وكم نادي !

علامـة الفرق هادينا الى طـرُق الـْــ
خيراتِ ، أكْرِمْ به من سيّـدٍ هادِ !

أدنى معاليـه ليس العبد يَحْـصُرُها
لو ساعد الدهرُ في ضَبْطي وتَعْدادي

اللهُ أكبر ! إنّي قـد رأيتُ لــــه
أسنى كتابٍ حـوى « أخبـار بغدادِ »

أمُّ البلاد التي كان « العِراق » بهــا
يزهـو ، وأيّـامُهـا فيـه كأعيــادِ

مُـؤلَّـفٌ ، ما رأينا مثلَــه أبــداً
وَافى إلـينـا بإسعافٍ واسعــادِ

شكـراً لشُـكْـري على تـأليـفه ، فَبِـهِ
سُرَّ الأَنـامُ ، وأحيا قـلبيَ الصّـادي

* * *

معـاهد العـلم الكبرى في « بغـداد »

١ ـ النظامية

اطلال العـلم :

نظمها الشاعر الكبير معروف الرُّصافي على لسان « النظامية » ، وهي الجامعة التي أسسها نظام الملك وزير الدولة السلجوقية في المئة السادسة الهجرية ، وطار صيتها في الآفاق ، ونهل من علومها طلاب العلم ، ودرس فيها جهابذة العلماء .

قَوَّضَ الدهرُ بالخراب عِمادي
ورمتني يداهُ بالأنكادِ
كم ، أُنادي وليس لي من مُجيبٍ
واضياعاه ! جهرةً كم أُنادي
ضعضع الدهر من بنائيَ أركا
نا شِداداً طالت على الأطوادِ
طالما رفرفت من العلم رايا
تُ فَخارٍ منّي على « بغدادِ »
كنتُ للعلم روضةً باكرت أز
هارَها الغُرَّ بالعِهاد الغَوادي
وجميعُ الأنام تضربُ أكبا
دَ المطايا كي تجتني أورادي
فالغَزاليُّ سَلْهُ بي ، وأبا إِس
حاقَ عمّا حَوَيْتُ من إرشادِ [1]

---

(١) الامام أبو حامد الغزالي ، والامام أبو اسحاق الشيرازي .

سَلْه ُ إذْ في طِلابيَ الإِبِلُ النُّجْـ
بُ تُحَفِّي مضروبةَ الأكبادِ

فرمتني صواقع الدهر فانهدَّ
بنائي ، وصرت بعضَ الوِهادِ

فبكتني من السماء دَرارِيـــ
ـهــا وكانت تُعَدُّ من حُسّادي

أهلَ بغدادَ ! ما لأعينكم تُغْـ
ـمض ُ عنّي ، كأنكم في رُقادِ ؟

أهلَ بغداد ! هل ترِقُّ قلوبٌ
منكمُ راعها انقضاضُ عمادي ؟

رَقَّ حتّى قلب ُالجَمادِ لفقدي ،
فلتكونَنْ قلوبُكم من جَمادِ

أفلا تنجدون مدرسة العلـــ
ـم ، وعهدي بكم أولي إِنْجادِ ؟

أين ما شيدَ من نظاميَّ رَبْعي
فلقد كان نُجْعَةَ المُرْتادِ

أين تلك العلوم ، وهي التي كا
نت ربوعي تُذيعها في البلادِ ؟

كيف قَضّت خيامَها زعزعُ الده
ـر ، وكانت رصينة الأوتادِ ؟

أقفــرت سوحها وقد نُعي العِلـ
ـمُ ، فلا حتَ تَجُرُّ ثوبَ الحِدادِ

وتوارتْ بالجهل ظلماً ، وكانت
خافقاً فوقَها لواءُ الرَّشادِ
أيها الدهرُ ! كلَّ ماشئتَ فافْعَلْ
اذ حدا في ركائبي غيرُ حادِ
ورعاني من راح من ظلمه العَدْ
ل فقيداً ميعادُه في المَعادِ
فَرَّقوا جمع أمّةٍ مثلهم كا
نت لَعَمري وحيدةَ الاتّحادِ

★

٢ ـ المستنصرية

قال الأستاذ جميل صدقي الزهاوي :

وقفتُ على « المستنصرية » اليومَ باكيا
ربوعاً بها للعلم أمست خواليا
وقفتُ بها أبكي قديمَ حياتها
وأبكي بها الحُسْنى ، وأبكي المعاليا
وقفتُ بها أبكي بشعري بناتَها
وأنْعيَ سجاياهم وأنعي المساعيا
أكفكف بالأيدي بوادر أدمعي
ويأبَيْنَ إلا أنَّ يَفِضْنَ جواريا
بكيتُ بها عهداً مضى في عِراصها
كريماً ، فليت العهدَ لم يك ماضيا
بكيت بها المدفونَ في حُجُراتها
من العلم حتى بلَّ دمعي ردائيا

وطأطأتُ منّي الرأس فيها تواضعاً
وحَيَّيْتُ بالتسليم منها المغانيا
وسرّحت أنظاري بها ، فوجدتها
بناءً لتشييد المعارف غاليا
بناءً جُساماً عَزّ للعلم مثلُه ،
فقلت : كذا فَلْيَبْنِ مَنْ كان بانيا
وألْفَيْت قسماً قد تداعى جِدارُه ،
وقسماً على ما كان من قبلُ باقيا
تهُبُّ رياحُ الصّيف في حُجُراتها
فتُلْبِسُها ثوباً من النَّقْع هابيا
وتسعى على الجدران منها عناكبٌ
تُجِدُّ لها فيما تَداعى مبانيا
فألممت فيها بالرسوم دوارساً
وساءلت منهن الطّلولَ بواليا
وقلت لدار البحث : عُظّمتَ محفِلاً ،
وقلت لنادي الدرس : حُيِّيتَ ناديا
أجامعةَ العلم التي كان روضُها
نضيراً كما شاء التقدم ناميا
بأيّةِ ريحٍ فيكِ هبّت زعازع ؟
تَصوَّحَ ذاك الروضُ فاجتُثّ ذاويا
لقد كنتِ فيما قد مضى دارَ حكمةٍ
بها يعلم الناسُ الحقائقَ ما هيا

فكنتِ بأُفْق الشمسِ شمساً مضيئة
تُشِعّين نوراً للمعارف زاهيا
وكانت بلاد الغرب اذْ ذاكَ في عَمىً
تقاسي من الجهل الكثيف الدّياجيا
فأين رجال فيك كانوا مشايخاً
اليهم يحُثُّ الطالبون النّواجيا ؟
وكانوا بِحاراً للعلوم عميقة
وكانوا جبالاً للحُلُوم رواسِيا
وكانوا مصابيح الهدى ونجومَها
بهم يَهتدِي من كان في الليل ساريا
يُميتون في نشر العلوم نهارَهم
ويُحْيُون في حَلِّ العَويص اللياليا
نواحيك من طُلّابِها اليومَ أقفرت
وكانوا ألوفاً يملؤون النّواحيا
فقالت : وقاك الله ! لا تسألَنَّني
فما لك نفعٌ في السؤال ولا ليا
فقلت : أجيبيني كما كنت سابقاً
تُجيبين من قد جاء للعلم راجيا
فقالت : ألَمّتْ حادثات عظيمة ،
وجَرّت على هذي البلاد دواهيا
هناك استبدَّ الدَّهر بالناس مبدلاً
فرفّع مخفوضاً وسَفّلَ عاليا
هناك اضمحلّت دولةٌ عربيّةٌ
بها كانت الأيام ترفع شانيا

وعـوّض عنهـا دولـة ثم دولــــة
تُسَرُّ بكَـوْنِ الجهـل في النـاس فاشيا
وذاك لأن العلـم في النـاس مـرشـد
يُعلِّمُـهُ عـن حقـه أن يُحـاميـا
عرت نكَبَاتُ الدهر «بغدادَ» بعدَما
بهـا رَدَحـاً ألقى السلام المراسيـا
فأذهبَ ما للعلـم من رونق الصِّبـا
تتابعُ أحـداثٍ يُشـيبْـنَ النـّواصيا
وأدنى الذي قـد نـابهـا من نـوائب
خـرابي ، ولـولاهـا لمـا كان دانيـا
فكابدتُ منُهنّ الصروف نـوازلا
وقـاسيتُ مِنهنّ الخطـوب عـواديا
وأدنى الذي قد نابهــا من نوائب
خرابي ، ولولاها لمَـا كـان دانِيا
وأبـدى عـلى عـزّي القـديم إهـانتي
رجـالٌ لشخص العلم كانـوا أعـاديا
وأهملتُ حتّـى انهـدّ منّـي كما ترى
مبـانٍ لنشر العـلـم عـزّت مبانيــا
وصـرت عـلى حـكـم الذيـن تخوفوا
من العـلـم ياهـذا الى ما تـرانيـا
وقـد ذوي الغصن الـذي كان ناضراً
وقد عطّـل الجِـيدُ الذي كان حاليا
وكنـتُ أرجّـي أن تعـود عمـارتي
اذا بعـث (الرحمن) للعلم راعيــا

لقد نَقضَ الأيام بالعَجْم مَرْوَتي
ومَرُّ الليالي يتّبعنَ اللياليا
ورَنَّقَ عُدوانُ الزمانِ معيشتي ،
فمن ليَ أنْ ألْقى الزمانَ مُصافيا؟
فقد صيّروا للفحم بعضي مخازناً ،
وبعضي حوانيتاً ، وبعضي ملاهيا ! (١)
ولاقيتُ منهم كل خَسْفٍ وجَفْوَةٍ ،
فماذا عسى من بعدِ ذا أن ألاقيا ؟
أبيتُ بلا ضوءٍ ينير دُجُنَّتي
ويدفع عني وحشتي وظلاميا
وأصْدى فلا أسقى من الماء شربةً
و« دجلةُ » تجري بالنَّمير أماميا
فياليتني كنت اندرست بأجمعي
ولا كان ذُليَ هكذا اليومَ باديا
كما قد عرا أختي « النِظاميَّةَ » الردى
ولم يُبْقِ من آثارها الدهر باقيا
وكلّ جديدٍ سوف يَرْجِعُ للبلى
اذا لم يكن منه له اللهُ واقيا

---

(١) قبل أن تتسلمها مديرية الآثار العامة كانت مرفأ لمديرية الكمارك والمكوس، تكدس في جنباتها البضائع ، وتستودع في حجراتها الواسعة أكياس الفحم وصناديق البضاعة . ومن حجراتها ما صُيّر حوانيت للباعة وكانت منها مقاهٍ وملاهٍ . فأعادت مديرية الآثار العامة جميع ما أُخذ منها وأصلحت رونقها وزخارفها كما كانت ، ثم جرى افتتاحها رسمياً باحتفالات ١٤ تموز ١٩٦٠ م وأصبحت أثراً تأريخياً يؤمها رُوّاد الآثار والسائحون طوال أيام السنة .

وقال الأستاذ معروف الرصافي ، ولم تنشر في الديوان :

أمَا لزمانيَ الماضي ارتجاعُ ؟
أما لِمُشتَّتِ الشمل اجتماعُ ؟
زمانٌ ضَرَبْتُ فيه من المعالي
رِواقاً للعلوم به اتّساعُ
وكنتُ مَشيدةَ الأركان حتّى
بِنائي لا يُخاف له انصداعُ
وكان لواء مجدي في البرايا
على هام السِمّاكِ له ارتفاعُ
وكم قِدْماً هزمتُ جيوشَ جهلٍ
وعُدْتُ ومن مواضِيَّ اليراعُ
وكم قد كان للأقوام طُرّاً
لِغَيْثِ الفضل في رَبْعي انتجاعُ
فألوَتْ بي يد الحَدَثان حتّى
خَلَتْ منّي المرابِعُ والبِقاعُ
ومرّتِ بالهوان عليَّ تعدو
ليالٍ ما لأنْجُمِها شُعاعُ
رُميتُ بها بثالثة الأثافي
وصِرت بكلّ حادثةٍ أُراعُ
وضَيّعنيَ الأُلى عرفوا بمجدي
وبي كم قد غدا لَهُمُ انتفاعُ
وبعد أولئك العلماء صارت
بعين الجهل ترمُقُني الرّعاعُ

وبِعْتُ بأبخس الأثمان بَيْعاً
على زُهْدٍ كما بيع المتاعُ
فيا « بغداد » ! كيف نبَذْتِ عهدي
كما نبَذَتْ بُرايَتَها الصُّنّاعُ ؟
وكيف لديك ساغَ حرامُ بيعي ؟
لحاك الله ! هَلْ مثلي يُباعُ ؟
أعندك لم أكن قَدْراً أداني
« سَكابِ » فلا أعارُ ولا أباعُ (١)
فها أنا فيك أنشد عند بيعي :
« أضاعوني وأيَّ عُلىً أضاعوا » (٢)

★

وللشاعر السيد عبد القادر العبادي البغدادي الملقب بـ (شَنُّون) المتوفى سنة ١٩١٠ م يبكي « المستنصرية » :

يادارُ ! ما بال ربعِ العلم ينعاكِ
فما دَهَى في الورى أعلى مزاياكِ
يادارَ علمٍ عَفَتْ منها معالمها
يدُ الخمول ، فمن أفتى فأغواكِ ؟
يادارَ « مستنصرٍ بالله » مادهمت
تلك الدروس التي أغنت بمغناكِ؟
أين الخزائن فيها الكتب قيمةً ؟
كانت لها منظراً يزهو بمراكِ ؟

---

(١) سكاب : اسم جواد أصيل لبعض العرب القدماء ، قال فيه صاحبه :
لعمرك ان « سكابِ » عِلْقٌ نفيسٌ لايُباع ولا يُعارُ
(٢) من قول العرجي :
أضاعوني ، وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسِدادِ ثَغر

أيـن المشايخ ؟ أين الطالبون ؟ فقـد
سرى لهـم خـَبـَرٌ عالٍ بمـرآكِ ؟
أين الطبيب وأيـن الطبّ ؟ ما نفعتْ
آلاتُـهُ حيـن صـَرْفُ الدهـر فاجاك ؟
وأين دائرة دارت عـلى الفلك الـ
أعْلى َالـّذي كان طُول َالـّدهْرِ يرعاكِ ؟
أين الشّموسُ التّي قد كان مطلعها
في بـرجه؟هل زَوّتْ هذا زواياكِ ؟
لهفي على ربعك المأنوس ! إذْ خليت
منـه أفـاضـل حَلـّـوا في ثناياكِ
لهفي على حَلـَقـات الـعـلـم ما صَنَعَتْ
أبحـاث علمهـم في ظل ّجـَدْواك

★

وقال الشيخ صالح التميمي من شعراء داوود باشا متشوقاً :
هي لـوعـةٌ كشـَفَ الفـِراقُ غطاها
فالقلبُ بين َ حريقها ولَظاهـا
فإلى متى لاينتهي حكم النّـوى
وأرى اصطباري ، يا أُمَيم َ تـَناهى
وهل يجمع الشمل المشـَتّـت أو أرى
بلداً بـه تعطى النفوس مناها ؟
وأَلـِمّ في فتيانها وكهولهـــــا
ويروق عيني خِـدْرُهـا وخِـباها ؟
زيد َالمُـدامُ ملاحةً مُـذْ شَبَّهَـتْ
أهلُ الفصاحة بالمُـدام لمـَاهـا ؟

وأشاهد القصر المُنيفَ ودولةً
بالعزّ أرَّجَها عبيرُ ثَناها ؟

★

وللشيخ عبد اللطيف بن علي فتح الله البيروني ، بعث بها الى أبي الثناء الألوسي :

أحسِنْ ببغداد التي
تحوي المكارم والكرامْ
فاقت على كل البلا
دِ بحُسْنِها عند الأنامْ
فكم انتشى من عالمٍ
وكم نتشى فيها إمامْ
من حسنها أن قد غدت
دار المحاسن والسلامْ

★

نكبة بغداد بالغرق

اصداؤها في شعر الشعراء العراقيين

استهدفت « بغداد » لطغيان دجلة غير مرة ، وتوالت عليها نكبات هذا النهر ، فكم طغى على ديار واستولى على عمائر ومزارع وبساتين ، وكم أتلف مباني ضخمة ! وقد ذكر العلامة محمود شكري الألوسي في كتابه « أخبار بغداد » فيضان سنة ١٢٥٥ هـ نقلاً عمن شاهده قال : « فان دجلة ، على ما حكاه الجدّ عليه الرحمة ، قد طغى يومئذٍ ماؤها ، حتى تساوى من بغداد أرضها وسماؤها ، وغدت جُدْران بيوتها بين ساجد وراكع ، وخاضع وخاشع ، ومبطون أضرت به علّة الاستسقاء ، ومحموم استلقى على ظهره يتفكر في ملكوت السماء ، وباك قد استغرق بالبكاء ليله ونهاره ، وتفجرّت منه العيون ، فتلا (وإن من الحجارة) ، والملائكة تتيمّمُ في سمائها بغُبار البيوت ، وتنادي يا أهل الأرض عزاءً ، فبيت العنكبوت كثيرٌ على من يموت ، والألباب أمست لفَرْط البلبال حيارى ، وترى النّاس سكارى وماهم بسكارى . وكم من مُخَدَّرة أراقت ماء المُحَيّا ، وسخت بما يعِزّ عليها لنجاة نفسها . وبالجملة لقد فار التَّنّور ، وأمست الأرجاء كالبحر المسجور ، وعادت ولا أطيل حادثة الطُّوفان .

وقد أشار الشاعر الفاروقي [الى ذلك] ببيتين ، وشطّرهما الفاضل أمين أفندي العمري ، عليهما الرحمة :

لاتعجبوا من « نهر دجلة » إذْ جرى
هو و« الفُرات » كمعظم الُّطوفان
وطغى على « الزَّوْراء » كلٌّ منهما
حتّى انتهى لحضيرة « الكيلاني »

هو للحقيقة والطريقة بحرها
وبها ترى البحرين يلتقيانِ
آوى اليه الماء معتصماً بـه
والبحر مأوى جملة الخلجانِ

★

وقد توالت الفيضانات الى عصرنا ، ثم انتهى أمرها بإقامة سد « الثرثار » ذلك المشروع النافع الذي أقام ناظمه وجسوره وعمده الفن الهندسي ، والمال المتوفر من خيرات النفط . وقد أحصى العلامة الألوسي في كتابه « أخبار بغداد » جملة من هذه الفيضانات :

في سنة ١٢٦١ هـ ، وظلت المياه تحاصر بغداد ٤٠ يوماً .

وفي سنة ١٢٦٥ هـ ، » » » ٥٠ يوماً .

وفي سنة ١٢٧٠ هـ فاض نهر دجلة ، وأتلف ما مرّ به من الزروع ، وأحاط الماء نحو شهر .

وفاض في سنة ١٢٧٩ هـ .

وفاض في ١٢٩٠هـ فيضاناً عظيماً ، ومكث الماء حول بغداد نحواً من شهرين .

وفي سنة ١٣٠٠ هـ فاض وأحاط الماء ببغداد أربعين يوماً .

وفي سنة ١٣٠٣ هـ فاض فيضاناً خطراً ، وأحاط الماء ببغداد أربعة أشهر ، وحصل من جراء ذلك ضرر على المباني والزروع والبساتين .

وفي سنة ١٣١٥ هـ فاض وأحاط الماء ببغداد نحو شهرين .

وفي سنة ١٣٢٥ هـ فاض دجلة والفرات وديالى ، وغرق « الكرخ » من « الفرات » ، وفي هذا الغرق قال « الرُّصافي » قصيدته « سوء المُنْقَلَب » .

وما مرت سنة وأخرى بعد هذا التاريخ الا حصل طغيان في دجلة .

وأعظم ما رأيناه طوفان ١٩٥٤م الذي دمّر المزارع والبساتين والغروس والمباني ، وقدرت الخسائر في الأموال والحاصلات بعشرات الملايين . وبسدّ « الثرثار » قضي على الفيضانات قضاءً تاماً ، وإن الستة عشر مليوناً من الدنانير التي

أنفقت عليه لا تُعَدّ شيئاً مذكوراً بالقياس الى دَفْع أضرار هذا العاتي الجبار كل عام عن مدينة السلام .

★

سوء المنقلب :

وفي سنة ١٣٢٥ هـ المصادفة سنة ١٩٠٧ م ، فاضت أنهر « العراق » الثلاثة ، فتدفقت المياه من الفرات ، وكسرت السداد ، وكانت واهية مهملة ، فسالت السيول بقوة حتى أغرقت الكرخ ، وتلاطمت أثباج دجلة والتقتْ بسيول ديالى ، فحاصرت الرُّصافة ، فهاجت الكارثة كوامن في نفس الأستاذ معروف الرُّصافي الشاعر الثائر ، فقال هذه القصيدة الخالدة ، وفيها يذكر الكثير من معالم بغداد التأريخية وأنهارها وقصورها ، ولم تُقَلْ يومئذ قصيدة أخرى في صميم الموضوع كمثلها ، ولذلك أثبتّ أكثرها :

« بغدادُ » ! حَسْبُكِ رقدةٌ وسُباتُ
أو ما تَمُضُّك هذه النّكَبَاتُ ؟
ولَعَتْ بكِ الأحداثُ حتّى أصبحَتْ
أدواء خَطْبِك ما لهنَّ أُساةُ
قَلَبَ الزّمانُ إليك ظهرَ مجنّهِ
أفكانَ عندكِ للزّمان تِراتُ ؟
ومن العجائب أن يَمسّكِ ضُرُّهُ
من حيثُ ينفعُ لو رعَتْكُ رُعاةُ
إذ من «ديالى» و «الفُراتِ» و « دجلة »
أمْسَتْ تَحِلُّ بأهلك الكُرُباتُ
إنّ الحياةَ لفي ثلاثة أنهُر
تجري ، وأرضُك حَوْلَهُنَّ مَواتُ
قد ضَلَّ أهلُك رشدَهم ، وهل اهتدى
قوم أجاهلُهم هُم « السَّرَواتُ » ؟

قومٌ أضاعوا مَجدَهم وتَفرَّقُوا
فتراهُمُ جمعاً وهُمْ أشتاتُ !
لقد استهانوا العيش حتّى أهملوا
سَعْياً مَغبَّةُ تركهِ الإعنات
ياصابرين على الأمور تسومهم
خَسْفاً على حينَ الرِّجالُ أباةُ
ومنها :
تلك « الرُّصافةُ » والمياهُ تَحُفُّها
و« الكرخ » قد ماجت به الأزمَاتُ
سالت مياه الوادِيَيْن جوارفاً
فطفَحْنَ والأَسْدادُ مُؤتكِلاتُ
فتهاجم الماءانِ من ضَفَتَيْهِما
فتناطحا وتوالت الهجماتُ
حتى اذا اتّصل «الفُرات» بـ «دجلة»
وتساوت الوَهَدَاتُ والرَّبَواتُ ،
زحفت جيوش السَّيْلِ حتى أصبحت
« بالكرخ » نازلةٌ لها ضَوْضاةُ ،
فسقت بيوت «الكرخ» شرّاً مُقَيِّءٍ
منها ، فقاءت أهلَها الأبياتُ
واستنقعت فيها المياه فطحلبتْ
بالمَكْث ترغو تحتَها الحَمْأتُ
حتى استحال « الكرخ » مشهد أبْؤُسٍ
تبكي به الفِتيان والفَتَياتُ
طُرُقاتُه مسدودةٌ ، وديارُه
مهدومةٌ ، وعِراصُه قَذِراتُ

بالكرخ عَزَّ على المروءة أنّهُ
لُجَجُ المياه عليك مزدحماتُ
فلئن أماتتك السُّيول ، فإنّما
أمواجُهنَّ عليك ملتطماتُ
مَنْ مبلغٌ «المنصور» عن « بغداده »
خبراً تَفيضُ لمثله العَبَراتُ ؟
أمست تُناديه وتندُبُ أربُعاً
طَمَسَت رسومَ جَمالِها الهَبَواتُ
وتقول : ياَلأَبِي الخلائف ! لوترى
أركان مجدي وهي منهدماتُ ،
لغدوتَ تُنْكِرني ، وتبرَحُ قائلاً
بتعجُّبٍ : ماهذه الخَرِباتُ ؟
أين البُروجُ بنيتَهُنّ مَشِيدَةً ؟
أينَ القصورُ عَلَتْ بها الشُّرُفاتُ ؟
أين الجِنانُ بحيث تجري تحتها الـ
أنهارُ يانعةً بها الثَّمَراتُ ؟
أتَرى : أبوُ الأمناء يعلم بعده
بغدادَ كيف تروعها النَّكَباتُ ؟
لا « دِجلةٌ » ، ياللَّرزيَّة ! دِجلةٌ
بعدَ « الرَّشيد » ولا « الفراتُ » فراتُ
كان « الفُرات » يَمُدُّ « دجلةَ » ماؤهُ
بجَداولٍ تُسقى بها الجنّاتُ
وله فروعٌ أصلهنَّ لشارع الـ
ـكبْش المجاري منه متهياتُ

تنمو الزُّروع بسَقْيِه فغِلالُه
كلٌّ « العراق » ببعضها يقتاتُ
لهفي على « نهر المُعَلّى » إذْ غدت
لا تستبين جِنانُه النَّضِراتُ (١)

نهرٌ هو « الفِرْدَوْسُ » تدخل منه في
قصر الخلافة شُعبةٌ وقَناةُ
كالسَّيف منصلتاً تضاحك وجهه الـ
أنوار وَهْيَ عليه ملتمعاتُ
إذْ « نهرُ بِينٍ » عند « كَلْواذَى » ، به
مُلْدُ الغُصونِ تَهزُّها النَّسَماتُ (٢)
وبقربه من « نهرِ بُوق » دارةٌ
تَنْفي الهُمومَ مُرُوجُها الخضِراتُ (٣)
ياقصرَ « باب التِّبنِ » مُقَرَّناً
والنَّفْيُ يصدُرُ منك والإِثباتُ
إذْ بين « دِجلة » و «الفُرات » مصانع
تَفْتَرُّ عن شَنَبٍ بها السَّنَواتُ
يا « نهرَ عيسى » أينَ منك مواردٌ
عَذُبت؟ وأين رِياضُك الخَضِلاتُ؟ (٤)
ماذا دهى « نهرَ الرُّفَيْل » من البلى
حيثُ المجاري منه مُنْدَرِساتُ ؟ (٥)

(١) نهر المعلى : نسبة الى المعلى بن طريف ، وكان من كبار قواد المهدي والرشيد ، ويسمى بنهر الفردوس .
(١) نهر بِين : نهر عند كلواذى ، وهي من قرى بغداد ومتنزَّهاتها .
(٢) نهر بوق : في سواد العراق . وقصر باب التبر من قصور الخلافة .
(٣) نهر عيسى : منسوب الى عيسى بن علي العباسي . والخضلات : اليانعة والكثيرة الخضرة والماء .
(٤) الرُّفَيل : نهر يصب في دجلة قرب بغداد .
(٥) بركة زلزل : حضرها زلزل الضَّارب ، واليه نسبت .

يا « نهرَ طابقَ » ! لاعَدِمْتُكَ مَنْهَلاً !

أين « الصَّراةُ » تَحفُّها الرَّوضاتُ (١) ؟

أم أين « كَرْخايا » تمُدُّ مياهُهُ

« نهرَ الدَّجاج » فتكثر الغَلاّتُ (٢) ؟

أم أين « نهر الملك » حين تسَلْسَلَتْ

فيه المياهُ وهُنَّ مُطَّرِداتُ (٣) ؟

قد كان تُزْدَرَعُ الحبوبُ بأرضه

فتَسِحُّ منه بفيضها البَرَكاتُ

أيّامَ تُطْلِعُكَ العدالة شمسَها

وتَرِفُّ فوقَكِ للهدى راياتُ

أيّامَ تُبْصِرُك الحضارة في العلى

بدراً ، عليك من الثّنا هالاتُ

أيّامَ تُنْشِدُكَ العلوم نشيدَها

فتعودُ منك على العلوم صِلاتُ

أيّامَ تقصِدُكَ الأفاضل بالرَّجا

فتَفيض منك لهم جَداً وهِباتُ

أيّامَ يأتيك الشَّكِيُّ بأمره ،

فيروح عنك وما لَدَيْهِ شَكاةُ

تمضي الشُّهورُ عليك وَهْيَ أنيسةٌ

وتَمُرُّ باسمةً بك السّاعاتُ

ماذا دهاك من الهوان ، فأصبحتْ

آثارُ عِزِّكَ وَهْيَ منطمساتُ ؟

كم قد سقاها السَّيْلُ من أنهارها

ضُرّاً ، وهنَّ منافعٌ وحياةُ

واليومَ قُلْتَ بجانبيها : أرّخُوا
دفَقَ السُّيُوْل ، فماجَتِ الأَزَماتُ

١٨٤	١٣٧	٥٢٤	٤٨٠

١٣٢٥ هـ

★

غرق بغداد سنة ١٣٣٣ هـ ـ ١٩١٤ م :

وفي تشرين الثاني من سنة ١٩١٤ م طغت مياه « دجلة » ، وفاضت روافد النهرين : الزّابان ، والعُظَيْم ، وانحدرت كالأَتِيّ فغطّت محالّ باب الشيخ والفَضْل والباب الشرقيّ ، وبلغت « العُوَيْنَة » وكثيراً من محلات الرُّصافة ، فهرع الناس فزعين ينقلون ما خفّ حمله وغلت قيمته من أموالهم ، يؤمُّون الكرخ والحارات المرتفعة ، وأَوَوْا الى المساجد والجوامع القريبة ، وكانت كارثة لم يتوقع البغداديون وقوعها ؛ لأن موسم الفيضانات عادة في الربيع ، ولا يتوقعون حصولها في الخريف ، فقال عبد الرحمن البَنّاء مؤرخاً :

عوّذتُ داري ومن قد حلّ ساحتها
بـ « قُلْ أعوذُ برَبِّ النّاسِ» و«الفَلَقِ»
عامٌ به الماءُ في تشرينَ حين طغى
على « الرُّصافة » قد أرختُ : بالغَرَقِ

ب	ا	ل	غ	ر	ق

١٣٣٣ هـ

★

وقال الرّصافي حين زار « بيلك أوغلي » في إسلامبول ، فذكر « الطرق » :

شقاءٌ تمطّى في « العراق » تمطّياً
وألقى جِراناً لايُزَحْزَحُ واستلقى

فإنّ « العِراق » اليومَ قد نشبتْ به
نُيوبُ الدّواهي فَهْيَ تَعْرِقُه عَرْقا
تمشّت به حتّى أعادت سَوادَهُ
بياضاً ، ومَدَّتْ للْبَوارِ به رِبْقا
فلَهْفي على « بغداد » ! إذْ قد أضاعها
بنوها ، فَسُحْقاً للبنين بها سُحْقا
جَزَوها عُقُوقاً ، وَهْيَ أمٌّ كريمةٌ
وألأم أبناء الكريمةِ مَنْ عَقّا
أدامت لها الأحداث مَخْضاً ، كأنّها
قد اتّخذتْها الحادثاتُ لها زِقّا
وأندُبُها عندَ الأغاريد شارباً
من الدمع كأساً لا أُريد لها مَذْقا

★

وقال من قصيدة « بَعْدَ البَيْن » :

لقد طَوَّحَتْني في البلاد مُضاعا
طوائحُ جاءت بالخطوب تِباعا
فبارَحْتُ أرضاً ما ملأت حقائبي
سوى حُبّها عندَ البَراح مَتاعا
عتبت على « بغداد » عَتْبَ مودِّعٍ
أمَضَّتْهُ فيها الحادثاتُ قِراعا
أضاعتنيَ الأيّامُ فيها ، ولو درت
لَعَزَّ عليها أن أكونَ مُضاعا
لقد أرضعَتْني كلَّ خَسْف ، وإنّني
لأَشْكُرُها أنْ لم تُتِمَّ رَضاعا

وما أنا بالجاني عليها ، وإنَّما
نَهَضْتُ خِصاماً دُونَها ودِفاعا
وأعملت أقلامي بها عربيَّةً ،
فلمْ تُبْدِ إصغاءً لها وسَماعا

ومنها :

وَقَفْتُ غداةَ البَيْن في « الكرخ » وقفةً
لها كَرَبَتْ نفسي تَطيرُ شَعاعا
أودّع أصحابي وهم محدقون بي ،
وقد ضِقت بالبَيْن المُشِتّ ذِراعا
أوَدّعهم في « الكرخ » والطَّرْفُ مُسْبِلٌ
الى الجانب الشَّرْقيّ منه شُعاعا
رعى الله قوماً بـ « الرُّصافة » كلَّما
تذكّرتُهم زاد الفؤادُ نِزاعا
سلامٌ على « وادي السلام » ، وإنّني
لأجعَلُ تسليمي عليه وَداعا

★

شكوى وسياسة :

للأُستاذ جميل صدقي الزّهاوي :

أتعود بعد تَصَرُّمٍ ونَفادِ
أيّامُ « بغدادٍ » الى « بغدادِ »؟
أيامُ بغدادَ التي في مَرِّها
كانت عوادي الدّهرِ غير غوادي
إذْ ليس بغدادٌ كما تلفى ، ولا
حكّام بغدادٍ ذوي استبدادِ

كانت محطّاً للعلوم وأهلها
وقرارة للمجد والإيجادِ
اليوم هاتيك العلوم بأسرها
مدفونة بمقابر الأجدادِ
قد عاش دهراً في نعيمٍ أهلُها
فاذا النَّعيم وأهلُها لِنَفادِ
أيّامَ مَدّ الأمنُ وارِفَ ظلّه
فيها فكانت جَنَّةَ المُرْتادِ
أيّامَ «بغدادٌ» تُضيءُ جميلةً
فتلوحُ مثل الكوكب الوَقّادِ
أيُعادُ ما قد مَرَّ من عمرانها ؟
أم ذلك العمران غير مُعادِ ؟
لا تَرْجِعُ الرَّغَباتُ نحوَ عِراصها
أو تَرْجِعَ الأرواحُ للأجسادِ
فتقوم فيها بالسَّدادِ حكومةٌ
وتزول عنها دولة الأوغادِ

★

وفي قصيدة ثانية يقول :

ماكنت في «بغدادٍ» أخا دَعَةٍ
ولا بعيشيَ في بغدادَ مغتبطا
كالعندليب شدا النّاس في قفصٍ
بحيثُ يحيا بحبّاتٍ لها التقطا
مازلت في كلّ يومٍ ذَرَّ شارقُهُ
مكرّراً عملاً لي طالما حَبِطا

إنّ القُنُوطَ من الأعمال مهلكة
ويل لمن هو من أعماله قَنَطا
تغيّرت فوق وجه الأرض أنظمة
حتّى التوى الأمر بين الناس واختلطا
بين الشّعوب كفاح ثار ثائره
وليس خوف على الشّعب الذي نشطا
وليس بين الفتى يوماً وحاجته
إنْ كان ذاهمّة قعساءَ غيرُ خُطا
رأى القوي ضِعافاً فهو يَغْمِطُهم
ولو رأى الأقوياءَ الغُلْبَ ماغمطا
ماشَمّرَ الليل عن ساقيه منهزماً
حتّى رأى الصُّبح مثلَ السَّيْف مُخْتَرَطا
لقد رأيتُ حياة الذُّلّ فاشية
والنّاس منقبضاً منها ومنبسِطا
وللمعيشة أنماط قد اختلفت
وكلّ قطر يراعي أهلُهُ نَمطا

★

وقال وقد أزمع الرحلة عن بغداد :

مقامُك في « الزوراء » غيرُ حميدِ
ولِينُك للأعداء غيرُ مفيدِ
وظنُّك حسناً بالليالي سفاهة
ورأيُك في الأيّام غيرُ سديدِ
سأرحلُ عن « بغدادَ » رحلةَ عائفٍ
فقد طال في دار الهوان قعودي

وأخرج من آلي ومالى وموطني
وما كان لي من طارفٍ وتليدِ
ولم أرَ في عمري كبغداد منزلاً
به العلم لايُجزَى بغير جُحُودِ
رأيت بها بُؤْساً وشاهدت نعمة
فلم أسترح من شامتٍ وحسودِ
وكافحت أيّاماً بها ولياليا
تكرّان من بيضٍ هناك وسُودِ
إيقاظ الرقود :

★

من قصيدة موشحة للرُّصافي بعنوان « ايقاظ الرقود » نظمها في استبداد السلطان عبد الحميد الثاني ، وعنوانها يدل على موضوعها ، شكا واستنهض ، وذكّر واستشهد ، وتساءل وأجاب ، وأخبر عن جور الحكام ، وبشر كل حكومة مستبدة بالزوال وبتمزيق الحدود ، منها :

إليكِ اليكِ يا(بغداد) عنّي
فإنّي لستُ منكِ ولستِ منّي
ولكنّي وإن كَبُرَ التّجنّي
يَعِزُّ عليَّ يا (بغداد) أنّي
أراكِ على شفا هَوْلٍ شديدِ
تتابَعَتِ الخطوب عليك تترى
وبُدِّل منك حُلْوُ العيش مُرّاً
فهلاَّ تُنْجِبين فتىً أغرّا
أراكِ عقمتِ لا تَلِدِينَ حُرّا
وكنت لمثله أزكى وَلُودِ

أقام الجهل فيكِ له شهودا
وسامَك بالهوان له السُّجودا
متى تُبْدِين منك له جُحودا
فهلّا عدتِ ذاكرةً عهودا ؟
بهنَّ رشدت أيّامَ « الرَّشيدِ » ؟
زمانَ نفوذُ حكمِك مُسْتَمِرٌّ
زمانَ سحابُ فيضِك مُسْتَدِرٌّ
زمانَ العلمُ أنتِ له مَقَرٌّ
زمانَ بناءُ عِزّك مُشْمَخِرٌّ
فصِرْتِ بأوجهٍ للذُّلّ سُودِ
حكومةُ شعبنا جارت وصارتْ
علينا تستبدّ بما أشارتْ
فلا أحداً دَعَتْهُ ولا استشارتْ
وكلُّ حكومةٍ ظلمت وجارَتْ
فَبشِّرْها بتمزيق الجلودِ

★

السَّدّ في بغداد :

وقال يخاطب حازم بك والي بغداد ، بعد خروجه إلى سد « الحويوة » من شاطىء الفرات ، الذي انكسر فأغرق (بغداد) :

نَجّيْتَ بالسَّدّ (بَغداداً) من الغَرقِ
فعَمَّها الأمنُ بعدَ الخوفِ والفَرَقِ (١)
قد قُمْتَ بالحزم فيها والياً ، فجرتْ
أمورُها في نظامٍ منك مُتّسِقِ

---

(١) الفرق : الخوف الشديد .

لقد نجحتَ نجاحاً لا يفوزُ به
من خالقِ الحزمِ إلاّ حازمُ الخُلُقِ
وَيْحَ الفراتِ ! فلو كانت زواخرُهُ
تَدْرِي بعزمك لم تَطفحْ على الطُّرُقِ
ولا غدت تجرُفُ الأسدادَ قاذفةً
منها بسيلٍ على الأنحاء مُنْدَفقِ
حيثُ « الحُوَيْوَةُ » أمست منك طالبةً
رَتْقاً لسدٍّ بطامي السيلِ مُنفتِقِ
باتتْ تجيش بتيّارٍ ، وبات لها
أهلُ (العراقَيْن) في همٍّ وفي قلقَ
حتى إذا أيقنت أرضُ (العراق) بأنْ
تفنى من الظمْءِ أو تفنى من الغرَقِ
شمّرْتَ عن هممٍ تعلو النُّجومَ ، وقد
أمسى الزّمان إليها مُتْلِعَ العُنُقِ
فكدت تملأُ فَرْغَ الواديَيْنِ بما
حشرْتَ مِن طَبَقٍ يأتيك عن طبَقِ
لمّا خرجتَ وكان الخَرْق مُتّسعاً
والنّاس ما بيْن ذي شكٍّ ومُتّشِقِ
قالوا : نحا شُقّةً قُصْوى ، وما علِموا
بأنّ عزمَكَ يُدْني أبعدَ الشُّقَقِ
فصدّق اللهُ ظنّاً فيك أحْسَنَهُ
قومٌ ، وكذّبَ ظنّ الجاهل الخَرِقِ
إذ جئتَ والسّدُّ تحتَ الغمْرِ مكتسَحٌ
والنّهْرُ يرغو بموجٍ فيه مُصْطَفِقِ

وثُلْمَةُ السَّدِّ كالمهْواةَ واسعةٌ
يَهْوي بها السَّيْلُ من فوقٍ الى العُمُقِ
سَلْلتَ صارمَ رأيٍ قد أزلت به
ما كان في السّيل من طيش ومن نَزِقَ
فما تَموَّج ماء النَّهْر من غضب
وإنّما أخذته رِعدةُ الفَرَقِ
ثَبّتَّ عزمك في أمر يذِلّ به
عزم الحصيف لِما يحوي من الزَّلَقَ
تَقْضِي النَّهارَ برَأْب الثأْي مجتهداً
وتقطعُ الليلَ بالتَّدْبير والأَرقِ
حتّى بنيتَ وكان النَّهْرُ منفلقاً
سَدّاً عليه رَصيناً غيرَ مُنْفلقِ
أرسيته جَبَلاً قامت ذُراه على
أصل مع الموجِ تحت الماء مُعْتَنِقِ
فراحت النّاس تمشي فوقه طَرباً
والنّهْرُ ينسابُ بينَ الغيظِ والحَنَقِ
وصار مَعْكِسَ فخرٍ أنت مَرْجِعُه
كالنُّور يُرجِع مُعكوساً الى الحَدَقِ
وقد رَكَزْتَ به الرّايات خافقةً
ما بين طاقين مرفوعَيْنِ في نَسَقِ
من كل أحمرَ قانٍ وَسْطَهُ قمرٌ
يتلوه نجمٌ بلونٍ أبيضٍ يَقَقِ
فظلّ حاسدك المغبون منطوياً
على فؤاد بنار الجهل مُحْترقِ
وَدَّ الفراتُ حياءً منك يومئذ
لو غارَ يَسْلُكُ تحتَ الأرضِ في نَفَقِ

لمّـــا اقتدحتَ زناد الـرّأي مفتكـــراً
في الخَطْب ألهَبْتَ منه فَحْمَةَ الغَسَقِ
فأدبَرَ الهَمُّ وانشقَّتْ غياهبُــهُ
كما قد انشقّ سَجْفُ الليل بالفَلَقِ
إنّ الأمورَ إذا استعصتْ نَوافرُهــا
أخذتهنّ من التَّدْبير في وَهَــقَ
وإن تصامَمَتِ الأيّــامُ عن طلب
أسمعتَهُنّ بصوت منــك صَهْصَلِقِ
تنحــلّ بالـرأى منك المشكلات لنا
كالنّور ينحــلّ ألواناً مــن الشَّرَقِ
وكلَّما زدتَ تفــكيراً بمُعضِــلة
زادت وضوحاً لنا حتّى على الشَّفَقِ
فالفــكر منك كأبعـاد الفضـاء بــلا
حَدّ يسابقُ خَطْفَ البرق في الطَّلَقِ
يحكي الأثيرَ إذا أجرى تلاطُمَــهُ
أبدى سواطعَ نُورٍ منه مُنْبَثِقِ
لك الثَّناءُ علينا أن نخلّـــدَهُ
نقشاً عــلى الصَّخْر ، لا رقماً على الوَرَقِ
تالله لـو بلغت زُهْـرَ النُّجوم يدي
من كلّ جِرْمٍ بصدرِ الليـل مؤْتلِقِ
رتَّبْتُهـا حيثُ كلُّ النّاسِ تقرؤُهـا
سَطْـراً بمدحك مكتوباً عـلى الأُفُقِ

★

الباب الثالث

بغـــــداد

في

الشعر المعاصـــر[1]

(١) بعد عصر الدولة العثمانية .

نواح دجلة :

للأستاذ معروف الرصافي، قالها بعد سقوط بغداد في أثناء الحرب العامة، جواباً عن قصيدة الشاعر التّركي الشهير سليمان نظيف بك :

هِيَ عيني ودَمْعُها نَضّاحُ
كلُّ حُزنٍ لمائها يَمْتاحُ

كيف لا أذْرِفُ الدموعَ وعِزّي
بيدِ الذّلِ هالكٌ مُجْتاحُ

قد رمتني يدُ الزمان بخطب
جَلَّلٍ ما لليله إِصباحُ

حيثُ غَممّت عليّ وجهُ سمائي
ظُلُماتٌ تخفى بها الأشباحُ

وتوارَى عن أعيني مضمحِلّاً
شَرَفٌ في مواطني وضّاحُ

يومَ أمسيتُ لا حُماةَ تذود ال
ضّيمَ عنّي، ولا ظُبىً ورماحُ

فأنا اليومَ كالسّفينة تجري
لا شِراعٌ لها ولا مَلّاحُ

ضقتُ ذرعاً بمحنتي فتراءَتْ
قِيدَ شبرٍ لِيَ الفِجاجُ الفِساحُ

أخرسَ الحزنُ مَنْطقي بنحيب
ألسنُ الدّمعِ فيه ذُلْقٌ فِصاحُ

نُحْتُ حتّى رثى العدوّ لحالي
واعتراني من العويل بُحاحُ

فمياهي هي انسكابُ دموعي
وخَريري هو البُكا والنُّواح
أوَ ما تبصرُ اضطرابي إذا ما
خفَقَتْ في جوانبي الأرواحُ
ليس ذا الموجُ فيّ مَوْجاً ، ولكن
هو مِنّي تَنَهُّدٌ وصياحُ
إن وجدي هو الجحيمُ ، ولولا
أدمعي أحرقتنيَ الأتراحُ
لو درى منبعي بما أنا فيه
من أسىً جفّ ماؤه الضَّحْضاحُ
علّه قد درى بذاكَ ، فهذا
هو باكٍ ، ودمعُهُ سَفّاحُ
أينَ أهلُ الحِفاظ ؟ هل تركوني
نُهْبَةً في يد العدوِّ وراحوا ؟
بَرِحُوا (واديَ السّلام) عِجالاً
أفَجِدٌ برَاحِهُمْ ، أم مُزاحُ ؟
ما لهم يَتْعدون عنّي انتزاحاً
وعزيزٌ منهم عليّ انتزاحُ ؟
أوَ ما يعلمونَ أن حريمي
للمعادين بعدهم مستباحُ
فلئن يبعدوا ، فإنّ فؤادي
لَإليْهِمْ بِوُدّه طَمّاحُ
لو رأوني سَبْيًاً بأيدي الأعادي
لبكوا مثلَما بكَيْتُ وناحوا

لا مسائي بعد البِعادِ مساءٌ
يومَ بانوا ، ولا الصَّباحُ صباحُ
أتمنَّى بأنْ أطيرَ إليهم
بجَناحٍ ، وأين منّي الجَناحُ ؟
أنا أدري بأنّهم بعدَ هجري
لم يذوقوا غمضاً ، ولم يرتاحوا
بل هم اليوم عازمون على الزَّحْـ
ـف بجيشٍ به تَغَصُّ البِطاحُ
إن تَأنَّوْا فربضةُ الليثِ تأتي
بعدَها وَثبةٌ له وكِفاحُ
كيف يُغْضُونَ عن إغاثة وادٍ
زانه من وِدادهم أوضاحُ
فعليه من فخرِ (عثمان) تاجٌ
وله رايةُ الهلالِ وِشاحُ
أنا باقٍ على الوفاء ، وإن كا
نتْ بقلبي ممَّن أُحِبّ جِراحُ
فإليهمْ ومنهمُ اليومَ أشكو
بَلِّغيهمْ شِكايتي يا رِياحْ

★

الشارع الكبير في بغداد :

شق والي بغداد والقائد العام للجيش السّادس هذا الشّارع ، وسمّي باسمه (خليل باشا جادّه سي) ، أي شارع خليل پاشا ، وكانت قطعة من القاشاني في جدار مئذنة جامع السيد سلطان علي ، كتب فيها اسم هذا الشارع ومنشئه ، وكان كثير الأوحال يتراكم فيه التراب ، واذا هطلت الأمطار استحال الى برك وأطيان تعاني منها المارة ما تعاني .

وفي سنة ١٩٢٢ م قال فيه الشاعر الكبير معروف الرصافي هذه القصيدة يصف حاله . وفي سنة ١٩٢٨ م عُبّد وقُيّر ، وسمي (بشارعَ الرشيد)، وكانت الأمانة التأريخية تقضي ببقاء البلاطة التي تحمل اسم فاتحه :

نَكَبِ الشّارع الكبير ببغدا
دَ ، ولا تمش فيه إلّا اضطرارا
شارعٌ إن نكبْتَ متْنَيْه يوماً
تَلْقَ فيه السُّهُولَ والأوْعارا
تترامى سَنابِكُ الخيل فيه
إنْ تَقَحَّمْنَ وَعْثَه والخَبارا
فَهْيَ تحشو التُّرابَ فيه على الأَوْ
جُهِ حَشْوًا وتقذِفُ الأحجارا
لو ركبتَ «البُراق» فيه أو البر
قَ نهاراً ، لما أمِنْتَ العِثارا !
تحسَبُ العابرين فيهُ سُكارى
من هواءٍ تَنَسَّمُوه غُبارا
ساطعاً يملأُ الفضا مستطيراً
حاملاً في ذرّاته الأقذارا
مُستجيشاً من الجراثيم جيشاً
مُسْبَطِرّاً عَرَمْرَماً جرّارا
هو إن رُشّ جاشَ وَحْلاً ، وإلّا
جاش نَقْعاً على الوجوه مُثارا
تصهر الشَّمْسُ فيه أدمغة القو
مِ اذا هُمْ تَخَبَّطُوه نهارا
واذا مامشيتَ في جانِبَيْه
فتجنَّبْ رَصيفَهُ المُنهارا

واذا مــاأرسلت فيــه الى الأطْــــ
ـراف لَـحْظاً أنكرته إنكــارا
لا ترى فيــه مــا يَسُرُّك بالصَّنْـ
ـعة حُسناً ، ويبهــج الأبصارا
بل تـرى العيـن فيـه كلَّ جِدارٍ
تكره العيـن أن تراه جِــــدارا
فجـــدارٌ عـالٍ وفي الجنب منه
مُتَـــدانٍ تَقِيُسُـــهُ أشبـــارا
ودكاكيـنُ كالأفاحيـص تمتــدّ
يميناً بـطُـولــه أو يســارا
أيـن هـذا من الشَّوارع في الأمــــ
ـــصار زانت بِحُسْنها الأمصارا ؟
عَبَّدُوهـا ومهَّـدُوهـا ، فجاءت
لا اعـوجـاجاً بهـا ولا ازْوِيـرارا
وأَعَـدُّوا بهـنَّ كلَّ رَصيـف
يَحْمَدُ السَّيْرَ فوقَه مَنْ سارا
وأقـامـوا لهـم بهـا كلّ صَرْح
مشمخـرٍّ بنـاؤُهُ اشمخــرارا
فعلى الجانبين كلُّ بنـــاءٍ
خِيـل في الحُسْن كوكباً قد أنارا
ثمّ لـم يكتَفُـوا بذلك حتّـى
غـرَسُوا في ضِفافهـا الأشجــارا
فَـوَقَتْهُـمْ ظِـلالهُـا وَهَـجَ الشمـ
ـــسِ ، وسرَّ اخضرارُها الأنظارا

هكذا فلتكن شوارعنا اليو
مَ ، وإلاّ فما عَمَرْنا الدّيارا

★

الفيضان :

وطغى نهر « دجلة » سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م ، فقال الشيخ محمد رضا الشبيبي يصف طغيان مياهه :

كفّى يامسقطَ الوادي اندفاقا
ألا ترعى الجزيرة والعراقا ؟
طغى الوادي كشَعْبٍ أحرجوه
فما احتمل الهوانَ ولا أطاقا
ولما قَيَّدُوه ليستقيدوا
أبى من قيده إلاّ انطلاقا
برَبّكَ أيُّها الوادي ، أفِدْنا
وعلّمْ كيف نَفْتَكُّ الوثاقا
ألَسْنا أمّةً ضجِرت وَملّتْ
من الباغين رِقّاً ، لا انعتاقا
توخّيْتَ العمائرَ باذخاتٍ
وجانبتَ الصّغائرَ والدّقاقا
كأنّك إذْ تخيّرتَ المباني
هَمَمْتَ بِهِن قصداً لا اتّفاقا
كسا الفَيَضانُ أربُعَنا ثياباً
مُصَنْدَلَةً ، وأرْدِيَةً رِشاقاً
فأونةً مضاعفة غِلاظاً
وآونةً مُهَلْهَلَةً رِقاقا

★

وقال فيه الجواهري أيضاً :

بَدَتْ خَوْداً لها الأغصانُ شَعْرُ
و« دجلةُ » رِيقُها ، والسَّفْحَ ثَغْرُ

على « بغداد » ما بقيت سلامٌ
يَضُوعُ كما ذكا للورد نَشْرُ

سَمَتْ تزهو على السَّفْحَيْن منها
قصورٌ ملؤها زَهْوٌ وكِبْرُ

يُظلّل « دجلةً » منها جَناحٌ
كما باهى بقادِمَتَيْه نَسْرُ

نزلتُ فما رأيت أَبَرَّ منّا
وضيف كريمة بِرٌّ يُبَرُّ

قَرَتْني الرّيح لم يَفْسُد مَهَبٌّ
له [1] ، والماء لم يسدُدْ مَمَرٌّ

سكرت وما سُقِيت بغير ماءٍ
و« دجلةُ » ماؤها عَسَلٌ وخمرُ

كريمة سادة عَرّقْنَ فيها
عروقٌ من بني « عدنان » نُضْرُ

كفى « العبّاس » ما أبقت بنوه
فما تربو على « بغدادَ » مِصرُ

مضَوْا غُرَّ الوُجوه وخالّدتهم
نقابات من الآثار غُرُّ

فمَنْ يكُ ذِكره حَسَناً جميلاً
فَحَسْبُ القوم في « بغداد » ذكْرُ

فيا « بغدادُ » ! لا يَنفَكُّ سِرٌّ
لحسنك يَنْجلي فيَدِقُّ سِحْرُ

---

(١) الريح من المؤنثات السماعية .

أكنْتِ و « بابلاً » بَلَداً سـواءً
فللملكين باقٍ فيك سِحْرُ
سقى الجِسرَ المطيرُ من الغوادي
فمَلْقى اللهو واللذّاتِ جِسرُ
هو البُرْجُ الّذي كادت عليه
نجومُ الأفقِ ساجدةً تَخِرُّ
رأيت بأُفْقِه شمساً وبدراً
كأحسنِ ما تُرَى شمسٌ وبدرُ
نهاراً كلُّهُ أُصُلٌ لِذاذٌ
وليلاً كلُّهُ سَحَرٌ وفَجْرُ
وقَفْتُ عليه وِقفَةَ مستطير
من الأحزان مِلءُ حصاهُ ذُعْرُ
وللأمواج من حَنَق نشيشٌ
كما يَغْلي على النّيرانِ قِدْرُ (١)
و « دجلة » كالسّجين بَغَى فِراراً
وأزبَدَ حيث أعوزه المَفَرُّ
وذاك الثّابت الأركان أمسى
عليها ريشة لا تستقِرُّ
فما أدري غداةَ نَزا عليه
من الأمواج مُغتلمٌ يُؤَرُّ
أتحتَ الماء غاصُوا حينَ جازوا
عليه ، أم فويق الماء مَرُّوا ؟
أحقّاً أن « أمَّ الخير » منها
بعاصمة « الرشيد » أحاط شرُّ ؟

---

(١) القِدر : من المؤنثات السماعية .

وبات الماء منها قيدَ شِبْرٍ
لقد أسدى لها الإحسانَ شِبْرُ
و « دجلةُ » حرّةٌ ضَجّتْ فجاشت
ويأبى الضَّيْمَ والإِذلالَ حُرُّ
أضاعوا ماءها هَدَراً ، وأخْنى
على مُسْتَوْدَعِ البُرْكان قصرُ
وإن َتكُ « دجلةٌ » هدأت وقرّتْ
فالمغضبان « شِقْشِقةٌ » تَقرُّ
وإن ثُبْتُم فذالكُمُ ، وإلاّ
تُصِرَّ على البليّة إن تُصِرُّوا
رأوا حُسن « العراق » فأعجبتهم
أبا طحٌ من ربيع فيه خُضْرُ
وقد حنّوا اليه ، كما تلظّى
فطيمٌ حولَ مرضعةٍ تَدِرُّ
فباوطناً جفوه وَهْوَ راضٍ
وعقّتْهُ بنوه وَهْوَ بَرُّ
برغمي أن تروق لهم فتحلو
مواردهم ، وعيشي فيك مُرُّ
نصيبي منك دمعٌ ليس يَرْقا
على البلوى ، وجَنْبٌ لا يَقرُّ
رِضىً بالحالتَيْن : ضَنىً وبؤسٌ
فضرٌّ من بلادي لا يضُرُّ
ولست ببائعٍ أرضي بأرضٍ
وإن لم ألْقَ فيها ما يَسُرّ

ومن لم يرضَ موطنه مَقرّاً

من الدّنيا ، فليس له مقرُّ

تتابعت الخطوب على بلادي

فواحدةٌ لواحدةٍ تُجَرُّ

وقد مرّت نحوس واستمرت

وذُلُّ القوم نحسٌ مستمرُّ

فلو قالوا : تَمَنَّ ، لقلتُ يوماً

يَكِرُّ وما بها خطبٌ يَكِرُّ

اليكِ الشّعرَ ، يابغدادَ ، عِقداً

تناسق لؤلؤٌ فيه ودُرُّ

بيانٌ جاش فيك فجاء عَفْواً

وحسن رَقَّ منكِ فَرَقَّ شِعْرُ

جرى بالأفْق من قلبي لساني

وأظهرت القوافي ما أُسِرُّ

★

طوفان سنة ١٩٥٤ :

لم تشهد بغداد طوفاناً كالّذي شهدته في ٢٢ آذار سنة ١٩٥٤ م ، فقد كان فيضان « دجلة » المفاجيء طُوفاناً بحقيقته ومعناه ، بالنظر لما خلف من تخريب وأضرار . فقد جاشت غوارب النهر ، واندفعت كأثباج المحيط الهائج ، واندفعت المياه بقوة ١٦ ألف قدم مكعب في الثانية ، وفي ليلة وضحاها ارتفع منسوب « دجلة » الى أعلى مستوى عرفته « بغداد » ، ثم تجاوزته بمترٍ ونصف المتر ، وأصبحت « بغداد » بكفّ القدر ، يتوقّع الخبراء غرقها في كلّ لحظة ، وزاد الخطر حين انحدرت « ديالى » هادرةَ كالرّصاصة في سرعتها . فصَدّت مياه « دجلة » وعاقتها عن الجري ، فاضطرّت الحكومة

الى كسر كثير من السدود الشمالية ليخففوا من ضغط الماء عن بغداد ، فتدفقت المياه وطغت على مساحات شاسعة ، فأغرقت المزارع والبساتين ، وعزلت خلقاً كثيراً ، وأصبحوا يتهددهم الغرق ، وأووا الى مرتفعات لتعصمهم من الماء ، وكونت مياه الكسرات بحراً لاساحل له ، ولا يبصر المرء له مدىً ، وأخذت تضغط على السدود الشرقية خلف بغداد ، وانهمرت السماء أياماً متوالية بأمطار غزيرة ، مما زادت حراجة الوضع . ومما زاد في رعب الناس اشتداد الرياح الجنوبية الشرقية ، فكانت تثير أثباج هذا البحر المتلاطم ، فيزيد تآكل السدود . ولولا عناية الله ثُمَّ نجدة أولئك الجنود البسلاء من أفواج الجيش وأهل الحمية من شبابنا وشاباتنا ، طلاب المدارس وطالباتها ، لما بقي في « بغداد » حجر على حجر ، ولأصبحت خراباً وأثراً بعد عين . وإذا نسي البغداديون ، فلن يَنْسَوْا ليلةً من تلك الليالي السود ، ليلة الثلاثاء ليلة الهلع والرعب ، فقد كثرت أمطارها ، واشتدت عواصفها ، واحلولكت سماؤها ، وكثرُ البرق والرعد ، وراجت الإشاعات ، وكثرت الأراجيف ، وأشاع المتربصون بالبلد الدوائر أن الحكومة قررت إخلاء العاصمة والاستسلام ، وتوقع الناس شراً مستطيراً ، وعِشنا ساعات على أعصابنا ، مرةً نهرع الى الشارع ، وأخرى ننصت الى المذياع ، الى أن طلع علينا وزير الداخلية ببيان بعد منتصف الليل ينفي الإشاعات ، ويطمئن الناس ، ويهيب بالمواطنين أنْ يخلدوا الى السكينة ، وأن يهب ذوو الغيرة الى المعاونة على تعلية السداد .

في هذا الجو الراعب ، وهذا الخطر المحدق بالبغداديين ، نظم أديبنا محمد بهجة الأثريّ الشاعر المبدع قصيدته الخالدة هذه :

يا « نُوحُ » . . ! قُمْ ، دارتْ بنا الأزمانُ

عُبِدَ الهوى ، وتَجَدَّدَ الطُوفانُ

قد غِبْتَ عنهُ ، فأينَ منك سَفينةٌ

يانوحُ — يَفْزَعُ نَحْوَها الإنسانُ ؟

كانتْ مَلاذَ اللاجئين ، ومالنا
يانوحُ ما ينجو به الحَيْرانُ
قد كنتَ أحزَمَ مِن « شخوصٍ » عندَنا
زعموا الرُّقيَّ ، وما دروْهُ ، ومانُوا
عشِقُوا تهاويلَ النُّعوتِ، ومالهم
في الصالحات ، إذا ذُكِرْنَ ، مكانُ
هُمْ مِثلُ قومِك في الضَّلال ، وإنمَّا
جَهِلُوا ، على علم الزَّمانِ ، وهانُوا
مَنْ عاصمٌ للخلق من متوعّدٍ
جاشتْ غوارِبُهُ وهُنَّ رِعانُ ؟
البَرُّ عادَ به عُباباً ثائراً
كالشّعْبِ حرَّقَ غيظَهُ الطُّغْيانُ
غطّى الأديمَ ، فليس إلّا ماؤُهُ
أرأيتَ بحراً مالَهُ شُطْآنُ ؟
فإذا سجا خرَقَ القُلُوبَ تَفزُّعاً
واذا تَحرَّكَ زاغَتِ الأذهانُ
غَرثانُ وَهْوَ يكادُ يبتلعُ الدُّنا
وكأنمَّا أمواجُه الحِيتانُ
هو والسَّماءُ كلاهما مُتَغَضِّبٌ
متفجّرٌ ، وكلاهما هَتّانُ
باتا على وعدٍ ، فليس بمنقضٍ
يومٌ اذا مالم يكُنْ حَدَثانُ
والنَّوْءُ يأتي بالصَّواعق مُنْذِراً
ومن العواصف مارِجٌ ودُخانُ

وكأنّما (بغدادُ) في أثْباجه
فُلْكٌ ، ولكنْ ماله رُبّانُ !
قامت على فمِ « ماردٍ » مُتلمِّظٍ
أرأيتَ كيفَ تلمَّظَ الثُّعْبانُ ؟
إنشقَّ « قُمْقُمُهُ » ، فهام على الثرى
وبه على « سَجّانه » غليانُ
لولا العنايةُ لاحظت رُحماءها
لم يبقَ لاناسٌ ولا بُنْيانُ
ولقيلَ : كان هُنا ــ زماناً قبْلَنا ــ
مُلْكٌ ، وناسٌ مثلُنا قد كانوا

★

قدَّسْتُ برَّ المحسنين وجهْدَهم ،
وقوامُ هذا العالَمِ الإحسانُ !
وذكَرْتُ مأسدةً كأنَّ لُيُوثَها
في « السّدِ » ممّا رَبَّهُ « خفّانُ »
لِلّهِ درُّ الجيشِ من متحمّسٍ
قامتْ على إخلاصه الأوطانُ
نضَدَ التُّلُولَ على التلولِ مجالداً
الله . . . ماذا تفعل الشُّجْعانُ !
صانته عينُ اللهِ ! لم يَهْدأ له
بالٌ ، ولم تَغْمُضْ له أجفانُ
ياكالِيءَ الأوطانِ في أزماتِها
هل ينقضي منها لكَ الشُّكرانُ ؟
وَقَفَتْ وراءَكَ ، والحياةُ تعاوُنٌ
والنّاسُ في تبِعاتِها إخوانُ

كُلٌّ يُقَدِّمُ قِسطَهُ من جهده
ضَلَّ المقصِّرُ واهتدى المِعْوانُ

★

حَيِّ الشبابَ المُرْخِصِين نُفُوسَهُمْ
ونفوسُهُمْ تُغْلَى بِها الأثمانُ
المانِعينَ إذِ البليّةُ أحْدَقَتْ
والحافِظينَ وليسَ ثَمَّ أمانُ
قاموا وراءَ عَرِينهم يَحْمُونَهُ
فِعْلَ الضّياغِم هاجَها العُدوانُ
تحدوهُمُ النَّخَواتُ لم يَعْصِفْ بها
جُبنٌ ، ولا أَلْوى بها سُلْوانُ
واخْصُصْ كواعِبَ كالأزاهر نضرةً
نُوراً حَرائِر حَلْيُها العِرفانُ(١)
غالَبْنَ كاللّبوات ما اجْتاحَ القُرَى
والمُدْنَ واسْتَعْلَى له السُّلْطانُ
وَفَدَيْنَ بالمُهَجِ الغوالي مَوْطناً
كَرُمَتْ لهنَّ بظِلّهِ الأزمانُ
باللّهِ لا تَصِمُوا الشُّبول بوَصْمَةٍ
همُ عُدَّةٌ وذَخيرةٌ وحَنانُ
أكبادُنا . . . . صانَ الإلهُ حياتَهُمْ
لقلوبنا بوِدادِهِم خَفَقانُ
قامتْ سواعدهم على إخلاصِهم
كالصُّبْحِ قامَ بِنورِهِ الإعلانُ

★

---

(١) نور : جمع نوار ، وهي المصون العفيفة .

المعجزة الجديدة :

وقال في هذا الغرق أيضاً الأديب الشاعر الأستاذ خالد الشوّاف :

يا أيُّها السَّيْل ! لاضعفٌ ولا وَهَنُ
جلَتْ معادنَ هذي الأنْفُسِ المِحَنُ
والنَّفْسُ كالذَّهب المخبوءِ منكشِفٌ
إن تحرق النّارُ أو إن تُغرِق المُزَنُ
مَشَتْ الى المارد الطّاغي جبابرةٌ
يحدو بها البَذْلُ لا أَجْرٌ ولا ثمَنُ
دَعا بها الوطن المرزوء ، فانبعثت
إنّ المواطن بالأرزاء تُمْتَحَنُ
ظنّوا التّنابذ يُوهي من عزائمها ،
هَيْهاتَ ! لم يكِ إلا السَّيْلُ والوَطَنُ
أحاط « بغدادَ » سَدٌّ من مناكبها
تبدَّدَتْ عنده الأضغانُ والإِحَنُ
مناكب الشّعب لا « الأسدادُ » مانعةٌ
وأعينُ الشعب لا « المقياسُ » مايَزِنُ
للّه سَيْلانِ من ماءٍ ومن بشرٍ ،
يَحُبُّ هذا ، ولكن ذاك لا يَهِنُ
إن الطَّبيعة والإنسان ما احتربا
كاليوم قَطُّ ، كلا الخَصْمَيْنِ مُضْطغِنُ
ياسيلُ ! معجزةً أطلعتَ مُنْذُ رَسَتْ
بـ « نوحٍ » الفُلْكُ لم يطلُعْ بها زَمَنُ
لولا الجبابرةُ المُرَّاد ما قهرت
عُبابَ مائك أسدادٌ ولا سُفُنُ

أرسى بـ « نوح » على « الجوُدِيِّ » مركبه
يقودها الطَّيْرُ لمّا ضلّتِ السُّفُنُ
وفُلكُ « بغدادَ » أرست عند صخرتها
يقودها طائر للشعب مؤتمنُ
إرادة الشعب جُودِيٌّ يُهيب بنا :
أنا الملاذ إذا ما غاصت القُنَنُ

★

وقال أيضاً في هذا الغرق وجمع التبرعات :

ليس عُذرٌ عن النَّدى أو عَذيرُ
بعض أهل الحمى بكم مُستَجِيرُ
إخوَةٌ في الحِمى وأهْلٌ حداهُمْ
للأكفّ الرِّطابِ خَطْبٌ كبيرُ
جَرَفَ السَّيْلُ مالديهم ، وأنتم
أيّهُا الماكثون نِعْمَ المجيرُ
الضّحايا لسَيْبِ أيديكُمُ با
توا ظِماءً ، والماء طامٍ غَزيرُ
فابذُلوا للمشَرَّدين ، وجودوا
إن أمْرَ المشرَّدينَ عسيرُ
لا تَصُدَّنَّكمْ عن البذل نَزْرٌ
فقليلٌ الى قليلٍ كثيرُ
كيف يغفو ، وألْفُ طَرْفٍ وألفٌ
يجتويها الرُّقادُ ، طَرْفٌ قريرُ

الشوق والحنين :

قال الشيخ عبد المحسن الكاظمي من قصيدته (ذكرى الفتوح) يناجي « بغداد » ، وهو اذ ذاك مقيم في القاهرة :

عسى « بغدادُ » يُوقظها بياني
فتقرأ فيه أبكار المعاني

مضى أمسٍ ، فلا يُرْجَى لأمْسٍ
مآبٌ أو يؤوبَ القارظانِ

فلا العهد التّذميمُ له بباق
ولا الذِّكرُ الحميدُ لنا بفانِ

اذا ماراعنا الحدثانُ شدْنا
على أنقاضه صَرْحَ الأماني

عسى « بغداد » تُدرك كيف أضحت
مجالاً للمراثي والتّهاني

وربَّ مأتمٍ قامت ، فكانت
قيامتها مواسِمَ مِهرَجانِ

هل « الزّوراء » تعلَمُ ماعراها
غداةَ دنا النّفيرُ وما عراني ؟

أبوح بما أكنّ وكنتُ دهراً
أحاذر أن أبوح بما أُعاني

أصون لها المصوّنَ من ودادي
ولم أُطْلع على سرٍّ جَناني

أباعد من يباعد ، غير أنّي
أُداني في هواها من يُداني

اذا ما قيل : « بغداد » كَواها
بلا عجهِ الحنينُ ، فقد كواني

أشاطرها الحنينَ ولا أبالي
أأسعدني المُداجي أَمْ لحَاني

ومن شاء الوقوف على اعتقادي
فديني أوّلٌ و « الكَرْخُ » ثاني
أُحِبُّ « الكرخ » أسمع أو أراه
وليت « الكرخَ » يسمَعُ أو يراني !
وأهوى في « الرُّصافة » ما جنته
وما أهوى سِوى غُرَرِ المجاني
الى « العرب » الكرام بكلّ أرضٍ
أَمُدُّ يدي ، وأُطلق من لساني
وما أرض « العراق » لمن جناها
وأرض الشام إلاّ جنّتانِ
هما الأختان والعليا مجال
اذا ما قيل فيها ضَرَّتانِ
وإنّهما ، متى لَقِحَتْ بطونٌ
وأنتجت المعاليَ ، تَوْأمانِ
إن ائْتَلَفا فقبلهما رأينا
تألَّفَ في السماء الفَرْقَدانِ
أو اختلفا فإنّهما يَدانِ
على نظر الحقيقة تعملانِ
جميعُ العرب إخوان ، فهذا
لهذا في العلى أقوى ضَمانِ
فلا هذاك نجديٌّ ، ولا ذا
حجازيٌّ ، ولا هذا يماني
لعلَّ اللّهَ يُدْنِينا جميعاً
ويَجْمَعُنا السُّرورُ على خِوانِ

ويَـرْجِـعُ مثلَـمـا كـنّـا وكانت
حـواسدُنـا الأقاصـى والأداني
متى كنّـا جميعـاً في بنـــاءٍ
بلغنا الشّامخـات مـن المبـاني
أ« بغـدادُ » ! ابشِري وثِـقـي بأنّي
بحبّـك سالكٌ سُبُـلَ التّـفـاني
ولـو أُعطيت مُـلْـكَ الأرض طُـرّاً
بغيـر هـواكِ ، عيشي ما هناني !

★

الحنين الى بغـداد :

من قصيدة في « صيداء » للأستاذ للشيخ محمد رضا الشبيبي :

وفي أرض « بغدادِ » هواءٌ هو المُنى ،
وعيشٌ هو السَّلْوَى ، وماءٌ هو الخَمْرُ
أأنسى زمان « الكرخِ » والكرخُ مُعْرِسٌ
وتذهب عن ذكري «الرُّصافةُ» والجَسْرُ
وأزعجني من بلدتي مزعج القَطا
فهل أنتِ ياصيداء لا بلدي وكـرُ
نعـم لـم يزل يعتـاد قـلبي اضطرابه
كما اضطربت ضِمنَ الشّباك القطا الكُدْرُ
لقـد أطلقت « صيداء » طائرَ أيكـة
بـ « بغداد » أعياه وأرهقه الأَسْرُ
غريبـاً من الأطيار فيـهـا توافـرت
خـوافيهِ واشتدّتْ قـوادِمُه العَشْرُ
هـوى البحث أقصاني وما لي جانب
أبى اللّـه عن « زَوْراءَ دجلة » مُزْوَرُّ

متى خنتُ « بغداداً » وبغداد بلدةٌ
اذا رمت عنها الصبرَ خانني الصَّبْرُ

★

الهيام بين العراق والشام :

وله أيضاً :

« ببغدادَ » أشتاقُ الشّآمَ ، وها أنا
الى الكرخ من « بغداد » جَمُّ التَّشَوُّقِ
فما أنا في أرضِ « الشآم » بمُشْئِمٍ
ولا أنا في أرض « العراق » بمُعْرِقِ
هُما وطنٌ فَردٌ ، وقد فرَّقوهما
« رمى اللهُ بالتشتيت شمَلَ المفرِّقَ »
اذا قُمْتَ نُصْبَ القلبِ ياعهدَ «تَدْمُرٍ»
ذكرت ادِّكارَ الطّيفِ عهدَ «الخَوَرْنَقِ»
أرى اليوم ماءً في « الفُراتين » آسناً
متى عَبَّ منه عاطشُ النَّفْسِ يَشْرَقِ
سيحدو غوادي الدمع بالدّمع حُفَّلاً
سنا بارقٍ من « بابلٍ » متألِّقِ
رهنتك ، يا « بغداد »، قلبي . ومن تكن
رهينتهُ قلباً بـِ « بغدادَ » يَقْلَقِ
علا الشَّيْبُ آمالي ولم يَعْلُ عارِضي
وبَيَّضَ قلبي قبل تبيِضِ مَفْرِقي

★

شكوى وسياسة :

وقال الأستاذ الرصافي في قصيدته « بعد النزوح » ، وكان قد برح بغداد سنة ١٩٢٢ على أن لايعود اليها لِما رأى من مضايقة البلاط والملتفين حوله :

هِيَ المواطنُ أُدْنِيها وتُقْصِيني
مثلُ الحوادث أبلوها وتبلوني
قد طال شكواي من دهرٍ أُكابدهُ
أمّا أصادِف حُرّاً فيه يُشْكِيني
كأنّني في بلادي إن نزلت بها
نزلت منها ببيتٍ غيرِ مسكونِ
حتى متى أنا في البُلْدان مغتَربٌ
نوائبُ الدّهْر بالأنياب تُدْمِيني ؟
فتارةً في المَوامي فوقَ مُوقَرَةٍ
وتارةً في الطّوامي فوق مشحونِ (١)
كم أغرقتني الليالي في مصائبها
فعُمتُ فيهنّ من صبري بدُلْفِينِ (٢)
أنا ابن « دجلة » معروف بها أدبي
وإنْ يَكُ الماء منها ليس يُرْوِيني
قد كنت بُلْبُلَها الغِرّيدَ أُنْشِدُها
أشجى الأناشيد في أشجى التّلاحينِ

ومنها :

ويلٌ لبغداد ممّا سوف تذكُرُه
عنّي وعنها الليالي في الدّواوينِ
لقد سقيت بفيض الدّمْع أرْبُعَها
على جوانبِ وادٍ ليس يَسْقيني

---

(١) الموامي : الصحاري المقفرة ، مفردها مَوْماة . الطوامي : جمع طامٍ ، وهو البحر .

(٢) الدلفين : حيوان بحري ، أراد به السفينة التي على شكل ذلك الحيوان . وأول سفينة صنعت على صورة الدلفين كانت على عهد محمد الأمين العباسي .

ومنهـــا :

ماكنت أحسَبُ بغـداداً تُحَلِّئُني
عن ماء دجلتها يوماً وتظميني [1]

حتّى تَقلَّدَ فيها الأمْرَ زِعْنِفَةٌ
مِن الأُناس بأخلاق السَّراحِين

ما ضرّني غيرَ أنّي اليومَ من عرَب
لا يغضبون لأمرٍ ليس يُرْضيني

تاللّه ! ما ضاع حقّي هكذا أبداً
لو كنت من عَجَم صُهْب العَثانِين

علامَ أمكُثُ في « بغداد » مصطبراً
على الضَّراعة في بُحبُوحَةِ الهُون ؟

ابن لبغـداد :

للأستاذ جميل صدقي الزهاوي . وقد أقام له المجمع العلمي العربي بدمشق حفل استقبال سنة ١٩٢٤ م حين هاجر الى مصر وقد مرَّ بدمشق ، فألقى فيه قصيدته النُّونية ، ومنها :

ظننتُ بأنّ الشعر يُغنِي ، فما أغنى
وكم شاعرٍ في موقفي أخطأ الظّنّا

ولست أبالي بعد ستّينَ حِجَّةً
أأبكى الزّمانُ العينَ أم أضحك السِّنّا؟

ولكنّني ألْفيت أنّ احتمالَهُ
يشُقُّ على من يشتكي مِثلِيَ الوَهْنا

يُريدون منّي أن أغنّيَ باسْمِهم
وأيُّ هَضيمٍ باسم أعدائه غَنّى ؟

(١) تحلّئني : تمنعني الماء والشرب .

على أنَّ في « بغدادَ » لي من شبابها
اذا ضقت،أنصاراً، ومن حولهم حِصْنا
وهل أنا إلاّ ابنٌ لبغدادَ نازحٌ
اذا ذكروا « بغدادَ » يوماً له حَنّا
نهبتُ فِجاج الأرض في ليلة دَجَتْ
بسَيّارةٍ تَطْوي البعيدَ ولا تَضْنَى
الى أن بدا صبح يشُقّ بضوئه
قَديراً إِهابَ الليلِ من بعدِ ما جَنّا
سأثني على قوم رعوني بفضلهم
ومن نالَ ما قد نلت من حُظْوَةٍ أثْنى

★

وفي مصر قال قصيدته الرائية ، ومنها :

وصبري على ضيمي ببغداد حِقْبَةً
فما سرت إلاّ بعد أن نَفِدَ الصبرُ
وفي الأرض للرّواد مَرْعىً ومَوْرِدٌ
وفي الأرض مَنْأىً عن مكان به الضُّرُّ (١)

★

بغداد في العصر الذهبي :

للأديب سعد صالح(١) نشرتها « مجلة اللسان » في الجزء الخامس قالها (سنة ١٣٣٨ هـ ١٩٢٠ م) :

---

(١) نظر الى قول الشَّنْفَرَى :
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلى مُتَعَزَّلُ

---

(١) سعد صالح ، وكان يوقع « سعد جريو » ، ينتمي الى أسرة آل جريو العلوية النجفيّة . درس في النجف والتحق بدار المعلمين سنة ١٩١٩ م وتخرج فيها معنا . ثم دخل كلية الحقوق ، وتقلب في الوظائف ، ثم أصبح نائبا ، واستوزر في وزارة توفيق السويديّ ، ثم راس حزب الأحرار ، وابتلي بمرضِ احتراق العضلات ، وتوفي في شباط سنة ؟ .

رفعتَ منار العلم في الشّرق كلّه
وأعليتِ من شأن الحضاراة ما انحطّا
وما اختطّك « المنصور » للنّاس بلدةً
ولكنّه للعلم داراً قد اختطّا
أعاصمةَ العلم التّي نهجَتْ له
مناهجَ رُشْدٍ كم هدَى للعُلىَ رَهْطا
مدارِسُكِ اللائي غدَوْنَ دوارساً
أنرْنَ دَياجي الجهلِ في الأعصر الوُسْطَى
وأبْرَزَكِ « العصرُ الرَّشيديُّ »» غادةً
يزيد حِلاها من مدارسِه سِمْطا
فصَيَّرَ أرض « الشّام » طوقاً لجيدها
وأضحت لها « زهراءُ قُرْطُبةٍ » قُرْطا
وأعطاك ، يا«بغدادُ» ، « مِصْرَ » قِلادةً
و« مِصْرُ » اذا جاز العطا خيرُ ما يُعْطَى
وأنتِ « التي » طاولتِ كيوانَ في العُلى
وقد فُقْتِه شأْواً وشاطَرْتِه شَوْطا
ولا بِدْعَ أنْ صيرّتهِ لك مَوْطئاً
فمنزلُك الأعلى ومنزلَهُ الأوْطا
وكنتِ تُلاقِين الزّمان ورَيْبَهُ
مغالِبةً أبْدى رِضاً لك أم سخطا؟
وكنتِ محطَّ العلم أصبح خالياً
ومنزلُك السّامي غدا اليومَ منحطّا
صحائف مجدٍ فيك خُطَّتْ ببيضنا
فكيف غدوتِ اليوم تمحين ما خَطّا

نَـوادٍ بنُور العلـم فيـك منيـرةٌ
فكم قد هَدَت شَعباً! وكم هذّبت رَهْطا !
وكم لك في « المستنصريّة » من يَـد
على العلـم زادت في مباحثه بَسْطـا
أمدرسةَ العلـم إستهان بك البـلى
فسام البِـنا خَسْفاً ، وأوسعه ضَغطا
وقد شاب فَـوْدُ الشَّرْق بعـد شبابه
فأخرجكَ الدَّهْرُ الخؤون به وَخْطا
حنانَيْـكِ ! إنَّ الشَّرْقَ من بعد عِزَّة
تَحَكَّمَ في أبنـائه الذُّلُّ واشتطّا
فأصبح إن رام النُّهوض الى العلى
تَعَثَّرَ ، أو للمكرمات خُطاً أخطـا
نَشَدْتُك : هل للعلـم في الشَّرْق رجعة
فتحيي لنـا آثار أعصرنا الوُسْطى ؟
وبالله قل ، يا شَطَّ « دِجلةَ » ، هـل لنا
من المجد ما أقوى يعود وما شَطّا[1]؟
وأنت أجِبْ يامنبع النيـل : هل ترى
تعيد بظامى قُطْرِنا ذلك الشّطّا ؟
وإنْ أنس لا أنسى شواطئك التي
عليهـا أكفُّ الزَّهْر قـد نسجت مِرْطا
وترسم شهب النَّجْم فوق سطوحها
سطوراً فتُهدي من لآلِئها سِمْطا
نشدتُك ما أبلى الرّياض وزهرها ؟
وكيف غبار الحزن بهجتَها غطّى ؟

(١) الشط : جانب النهر ، وليس النهر . ـ شَطَّ : بَعُدَ .

فهل غَضٌ ذاك الزّهْر حالَ الى غضاً
تَضرّمَ ، والماء استحال له نِفْطا ؟
وصوتك قد أبكى « الجزيرة » لوعةً ،
وأعدمها خِصباً ، وأورثها قَحْطا
وسهم الرَّدى لم يَفْرِ قلبَكِ وحدَهُ ،
ولكن فرى قلبَ « العراق » وما أخطا

★

احلام الحضر :

للشيخ علي الشرقي ، نظمها عام ١٩٣٣ م :

تجاذبت « دجلة » من حِضْنِ الشجرْ
رواضعٌ تروعُ عيناً وأثَرْ
تجري وقد رَفَّ النّبات فوقَها
وفوقَهُ الأغْصانُ فوقَها الثَّمَرْ

ومنها :

أطيبُ أوقات الليالي سَحَرٌ
والليلُ في « بغدادَ » كلُّهُ سَحَرْ
كواكب غَرْقَي بأُفْقٍ مُتْرَعٍ
من بهجةٍ فاضت عليه فانفجَرْ
وسائر الألطاف قد تسامرت
ليلاً ببغداد ، فما أحلى السَّمَرْ !
تَنَفَّس القَدّاحُ صبحاً مخبِراً
عن ليلةٍ ، فاشمُمْ روائحَ الخَبَرْ
و « دجلة » قابَلَها بدْرُ السَّما
في ليلةٍ كُلُّ نواحيها غُرَرْ

طاحَ عمود النّور فوقَ صرْحها
فصيّرتْه بارتجاجها كِسَرْ
زفّت عروس النّهْر جسراً ساخراً
بالشّاطئين في غرور وبَطَرْ
كافٍ وتختال العذارى فوقه
في الليلة القمراء واليوم الأغَرّ

★

بغداد :

قال الشاعر الكبير « أحمد شوقي » من قصيدته (نهج البرودة) يمدح بها النّبيَّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، ويصف بغداد :

دَعْ عنك « رُوما » و « آثينا » وما حَوَتا
كُلُّ اليواقيت في « بغدادَ » والتُّؤَمُ
دارُ الشّرائع « روما » كلّما ذُكِرتْ
« دارُ السّلام » لها ألقتْ يدَ السَّلَمِ
ماضارَعَتْها بياناً عندَ ملتأمٍ
ولا حَكَتْها قضاءً عندَ مختَصَمِ
ولا احتوت في طِرازٍ من قياصِرها
على « رشيدٍ » و « مأمون » و « معتصمِ »
من الّذينَ إذا سارت كتائِبُهم
تصرّفوا بحدودِ الأرضِ والتُّخُمِ
ويَجْلِسُون الى علمٍ ومعرفة
فلا يُدانُوك في عقلٍ ولا فَهَمِ
يطأطئ العلماءُ الهامَ إنْ نَبَسُوا
من هيبة العلمِ لا من هيبة الحكَمِ

ويُمطرون فما بالأرضِ من محلٍ
ولا بمن بات فوق الأرض من عدمَ

★

ولحافظ ابراهيم :

جَبَيْنَا السُّحْبَ في عهد «الرَّشيدِ»
وباتَ النَّاس في عيشٍ رغيدِ
وطوَّقتِ العوارفُ كلَّ جيدِ
وكان شعارُنا رِفقاً ولينا
سَلُوا «بغدادَ» والإسلامُ دينُ
أكانَ لها على الدُّنْيا قرينُ ؟
رجالٌ للحوادث لاتلينُ
وعِلمٌ أيَّدَ الفتح المُبينا
فلسنا منهُمُ والشَّرْقُ عاني
إذا لَمْ نَكْفِهِ عَنَتَ الزَّمانِ
ونَرْفَعْهُ الى أعلى مكان
كما رَفَعُوهُ أو نَلْقَى المَنُونا

★

بغداد :

أنشدها الشاعر المصريّ الأستاذ علي الجارم في حفل افتتاح المؤتمر الطبّيّ العربيّ ببغداد في ٩ شباط ١٩٣٨ م :

بغدادُ يابلدَ الرَّشيدِ
ومنارةَ المجدِ التَّليدِ
يابسمةً لما تزَلْ
زهراءَ في ثغر الخلودِ

يــامــوطــنَ الحُبِّ المقـــيـ
ـم ومضِربَ المَثَــلِ الشَّــرُودِ
يـا سطـرَ مجـدٍ لـلـعــرو
بــةِ خُــطَّ في لوح الــوجــودِ
يــا رايـــــةَ الإِســــلام والـ
إســـلامُ خــفــاقُ البُــنُــودِ
يـــا مــغــربَ الأمـــل القــديـ
ـمِ ومشرقَ الأمــلِ الجــديدِ
يا بنتَ دجــلــةَ قــد ظَـمِـئْـ
ـتُ لرشفِ مبسمك البَــرُودِ
يا زهــــرةَ الـصـحـــراء رُدِّ
ي بهـجــة الدُّنْـيــا وزيــدي
ياجنَّــةَ الأحـــلام طــــا
لَ بقــومـنــا عـهــدُ الرُّقودِ
يابُـهــرةَ المُــلْك الفسيـــــ
ـحِ ، وصخرةَ المُـلْكِ الـوطيدِ
يــازورةً تحيــي المُـــنـــى
إن كـنــتِ صــادقــةً فـعُــودي
بغـــــدادُ يـــادارَ الــنـــهـــى
والـــفــنِّ ، يــابـيــتَ الـقـصـيـدِ
نَـبَـتَ الـقـريـض عـــلى ضِـفــا
فِـكِ بيـــنَ أفنـانِ الـورودِ

سرقَ التَّدلُّلَ من «عنا
ن» والتَّفَنُّنَ من «وحيدِ»[1]
يشدو كأنَّ لهاتَهُ
شُدَّت على أوتارِ عودِ
بغدادُ، أينَ البُحْتُري؟
وأينَ أينَ ابنُ الوليدِ[2]؟
ومجالسُ الشعراء في
بيت ابن يحيى والرَّشيدِ[3]؟
أين القيانُ الضاحكا
ت يَمِسْنَ في وشي البُرودِ
السّاحراتُ الفاتنا
تُ النُّجْلُ من هِيفٍ وغِيدِ
السّاهرات مع النُّجو
م الآنفات من الهجودِ
من كلّ بيضاء الطُّلى
مهضومة الكشحين رُودِ[4]
يَخْطِرْنَ حتّى تعجبَ الـ

---

(1) عنان : جارية الناطفي . كانت مغنية رائعة الحسن فاتنة الدلال والتصرف والتنويع في فنون الغناء . (ووحيد) اسم مغنية اشتهرت في العصر العباسي ، ولابن الرومي قصيدة في وصفها تقدم ذكرها في باب مغاني بغداد .

(2) ابن الوليد : هو مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني . كان من الشعراء الفحول في عصر الرشيد .

(3) ابن يحيى : هو الفضل بن خالد بن برمك ، وكان هو واخوه جعفر من وزراء الرشيد .

(4) الطلى : الاعناق أو أصولها ، واحدتها طلية او طلاة . ومهضومة : ضامرة . والكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف ، ومعناه هيفاء ضامرة البطن .

أغصانُ من لين القدودِ
واذا سَفَرْنَ فأين ضو
ءُ الشّمس من شَفَقِ الخدودِ
يَعْبَثْنَ بالأيّام ، والـ
أيّامُ أعبثُ من وليدِ
خَبَأَ الجمالُ لهنّ كَنْـ
ـزاً بينَ سالفةٍ وجيدِ
كم جاشَ جيشُكَ بالفوا
رسِ من أساورةٍ وصيدِ (٥)
للنّصْر في أعلامهم
صِلةٌ بأبْناء الغُمودِ
مُلْكٌ ، إذا صوّرْتُه
عجز الخيال عن الصُّعُودِ
وجهود جبّارين تَصْـ
ـغُرُ دُونَها شُمُّ الجهودِ
الرُّسْلُ تتلو الرُسْلَ من
بيضٍ صَقالبةٍ وسُودِ
ساروا لـ « قَصْر الخلد » يُغْـ
ـشِي طَرْفَهمْ وَهَجُ الحديدِ
يتعثّرون ، كأنّهم
يمشون في حَلَقِ القيودِ
الجَوُّ يَسْطَعُ بالظّبا
والأرضُ تزخَرُ بالجُنودِ

---

(٥) جاش جيشك : ماج واضطرب لكثرته ، والفوارس : جمع فارس والاساورة : جمع أسوار بضم الهمزة وكسرها ، وهو القائد الجيد الرمي بالسهام . والصيد : جمع أصيد وهو الشريف .

حتّى إذا رَجَعُوا ، بدا
بجباهِهم أثرُ السُّجُودِ
الفلسفاتُ عَرَفْتِها
والعِلمُ طِفلٌ في المهودِ
والغرب ينظُرُ في خمو
دٍ نحوَ قاتلةِ الخمودِ
كم مَوْئلٍ للمستجيـ
ـر ، ومَنْهَلٍ للمستفيدِ
والجاحظُ المَرِحُ اللَّعُو
بُ يَغوصُ للدُّرِّ الفريدِ
بغدادُ ، يا وطنَ الأديـ
ـبِ وأيكَةَ الشّعْرِ الغَرِيدِ
جدّدتِ أحلامي وكنـ
ـتُ صحوتُ من عهدٍ عهيدِ
جَمَحَ الخَيالُ ، فما أطمـ
ـأنَّ ولا آستقرّ الى خُلُودِ
جاز القرونَ النّائيا
تِ ، وفكَّ أسرارَ العُقودِ
ذكَرَ العهودَ ، فأنَّ للذّ
كرى ، وحنَّ الى العهودِ
واهتاجه الطّيف البعيـ
ـدُ ، فجُنَّ للطّيف البعيدِ

وصبا الى ظلِّ (العُرو
بة) في حمى المُلْكِ العتيدِ
يا أمَّةَ (العَرَبَ) ارْكُضي
مِلْءَ العِنان ولا تَهيدي[1]
سُودي ، فآمالُ المُنى
والعبقريّة أن تَسُودي
هذا أوانُ العَدْوِ ، لا الـ
إبطاءِ والمشي الوئيدِ[2]
المجدُ أن تتوثّبي
واذا وثَبْتِ فلا تَحيدي[3]
وتحلّقي فوقَ النُّجو
م بلا شبيهٍ أو نَديدِ
واذا شدا الكونُ المَفا
خِرَ كنتِ عُنوانَ النَّشيدِ
لا تُخْطِئي حدَّ العُلى
ما للمعالي من حدودِ
مَن يصطدِ النَّمِرَ الوثُو
بَ يَعِفَّ عن صيد القُرُودِ
هذي طلائع نهضةٍ
ذهَبت بآثار الرُّكُودِ
بغدادُ ، أشرق نجمها
وبدا بها سعدُ السُّعُودِ

---

(١) لا تهيدي : لا تخافي ولا تبالي .
(٢) الوئية : التأني والسير البطيء والاهمال .
(٣) لا تحيدي : لا تميلي عن الصراط المستقيم .

سلكتْ الى المجد القديـ
ـم مَحَجَّةَ النَّهْجِ السَّديدِ
وزهت بأقمار الهدى
وسطت بأظفار الأُسودِ
بغدادُ ! إنّا وَفْدُ (مصـ
ـرَ) نفيض بالشَّوْق الأكيدِ
جئنا نُحيّي العلمَ والـ
آدابَ في العدد العديدِ
مرآكِ عيد للمُنَى
فُزْنا به في يومِ عيدِ [1]
أهلوك أهلونا وأبْـ
ـناءُ العشيرة والجدودِ
بين القلوب تَشَوُّقٌ
كتَشَوُّق الصَّبِّ العميدِ
حتّى يكادُ يُحِبُّ نخـ
ـلُكِ نخلَ أهلي في « رشيدِ »
شطّت منازلنا وما احْـ
ـتاج الفؤاد الى بريدِ
الرّافدانِ ، تمازجا
في الحبّ بالنّيل السَّعيدِ
وتعانق الظّلان : ظِلُّ
الطّاق والهَرَمِ المَشيدِ

---

(١) تاسع شباط ٩٣٨ صادف يوم عرَفةَ (وقفة عيد الاضحى من ذي الحجة سنة ١٣٥٦ هـ) .

طالت بنا الصَّحراء حتـ
ـى خِلتُها أبدَ الأَبيدِ
يتخلّص المرمى المديـ
ـدُ بنا الى مرمى مَديدِ

★

بغداد تاج الحقب الخوالي :

أمّتِ « العراق » من مصر ، في سنة ١٩٣١ م ، بعثة من « الجامعة المصريّة » ، ضمت الأستاذ أحمد أمين رئيساً ، والأساتذة الدكتور عبد الرزّاق السَّنْهُوري ، والدكتور عبدالحميد العبادي ، والدكتور عبدالوهاب عزام ، والدكتور شفيق غربال ، وأربعة عشر طالباً من طلاب الجامعة . وقد كان ذلك بتشجيع من الأستاذ ساطع الحصري ، واحتفل البغداديون بهم في الحفلات التي أقيمت لهم روح الأخوَّة ، وتعالت فيها مفاهيم القومية ، وعرف الأساتذة الضيوف الكرام أبعاد الدعوة الى القومية والوحدة العربية لأول مرة ، فكان لذلك أثر بليغ في تعميق الوعي القومي وصدى بعيد في التوجيه التربوي الجامعي ، وتجسد هذا الأمر في هذه الموشحة للدكتور عبد الوهاب عزّام ، وقد أنشدها في احتفال السيد تحسين قدري كاتب سر الملك فيصل الأول بهذه البعثة الكريمة . قال :

« بغدادُ » تاجُ الحُقُبِ الخوالي
ودُرَّةُ المستقبَلِ المكنونِ
« دارَ السَّلام » ! لاعداكِ المجدُ
وارفةً ظلالُه تمتدُّ
ولاحدا نجمكِ الا السَّعْدُ
موصولةَ الآجالِ بالأَجالِ
لابسةً مُجَدَّدِ القرونِ

فكم لبستِ عُمُرَ الدُّهُورِ
مليكةَ الأقطارِ والعصورِ
وموئلَ الصُّعلوكِ والأميرِ
والدِّينِ والعلومِ والمُجُونِ

ورُبَّ يومٍ باسمِ الصَّباحِ
بينَ المياهِ والرِّياضِ ضاحِ
وهَبْتِه لشاعرٍ صَدّاحِ
منظّمٍ في مدحكِ اللآلي
مطرِّبٍ في شعره مبينِ

ورُبَّ يومٍ بالوغى مشهودِ
بعثتِ فيه شُهُبَ الجنودِ
ترعاهُمُ خفّاقةُ البُنُودِ
يُذَلِّلُون ثائرَ الأهوالِ
ويأسِرُون الأُسْدَ في العرينِ

ورُبَّ يومٍ ملؤُهُ الوفودُ
يلوحُ في غُرّتِه «الرّشيدُ»
محكِّماً يبدئُ أو يعيدُ
الظُّلمُ فيه ضيِّقُ المجالِ
والعدلُ فيه مشرقُ الجبينِ

ورُبَّ يومٍ للنَّدَى جوادِ
يَفيضُ فيه بالعطاءِ النّادي
وتُنْجَزُ الآمالُ بالأصفادِ
يشهَدُ فيه جيّدُ المقالِ
مذلّةَ الألوفِ والمئينِ

وربَّ دارٍ مَوْرِدِ العلوم
يَؤُمُّها الطُّلّابُ وِرْدَ الهِيمِ
ويُصدِرُون حُفَّلَ الحلومِ
زلالها الحياة للجهادِ
من مغرب الشّمس لأرض الصّين
الرَّأيُ فيها محكم وثيقُ
والقولُ فيها مرسلٌ طليقُ
والعقلُ للدّين بها شقيقُ
تبعَثُ في الآفاقِ بالأقوالِ
جوّابةَ السُّهُول والحزونِ
ومجلسٌ بالباحثين حافلُ
يقرَعُ فيه الحجّةَ المُجادِلُ
تجول في حَلْبَتِهِ الفطاحلُ
الحقُّ فيه مُطْلَقُ العِقالِ
يجول حُرّاً في حِمى «المأمونِ»
«أبو العلاء» أزمعَ الرَّحيلا
إليكِ فيما ينقَعُ الغَليلا
فصادف المَشْرَعَ سلسبيلا
وسار عن مَغْناك غيرَ سالِ
يقطّع الأوقات بالحنينِ
يشهَدُ أنَّ العلم فيكِ جارِ
كالماءَ في «خَضَارةَ» الزَّخّارِ
وكالحصى في ساحة الجِمارِ
«أبو العلاء» كان لايُغالي
وكان لايرمي عن الظّنونِ

سارت علـى هـامتـك الخطـوبُ
عـانيـةً صَرصَرُهـا هَبـوبُ
شُؤبُوبُهـا يـتبعُـه شُؤبُـوبُ
حتّـى كستك حلَكُ الليـالي
تُسلمك الشّجـونُ للشّجـونِ
فزلزلت صروحـكِ الشّمّـاءُ
وصوّحت جِنـانـك الغنّـاءُ
وغـمـرت ضيـاءكِ الظّـلمـاءُ
مـن بـعـد مـا قضـتَ بـك المعالي
أوطـارَهـا سِتّـاً مـن القـرون
حتـىّ دهـاك الجحـفـلُ الجرّارُ
يـرعـد فيـه المـوتُ والـدّمـارُ
وحَــلّ في ساحـتك التّـاتـار
لَشَـدّ مـا رُميتِ بالأهـوالِ
يـاسنـةَ الستّـة والخمسيـن
دجـلــة والـفـرات بـاطّـرادِ
مـا غـضّ منـهمـا الـزّمـانُ العـادي
وفي بنيـك السّـادةِ الأمجـــادِ
كلّ كـريمٍ قـائـلٍ فـعّــالِ
يبغـي الـعـلاءَ غيـر مستكينِ
القـلـبُ مـن قـريضـه خـلـيُّ
للـهـمّ في أرجــائـه دويُّ
ينفِـرُ منه الـوزنُ والـرّويُّ
« بغـدادُ » في الآلام والآمـالِ
أوحتْ لـقـلـب جـامـد ضَنينِ

أوحى « الزّهاوي » لِيَ القوافي
من بعد عهد بالقريض عافِ
وهاج من أشجانيَ « الرُّصافي »
فانجاب همٌّ كان كالرّمالِ
عن مَنْهَلٍ مستعذَبِ المَعينِ
أسْرِقُ فيه الشّطْرَ بعد الشّطْرِ
وأُكْرِه الفكرة بين السَّفْرِ
[illegible]تَ الفؤادِ ، لست أدري
ماذا نظمته ولا أُبالي
بسالم الأوزان والمخبونِ
آيات شعر ترجمت أشجاني
رديئُهُ وجودُهُ سيّانِ
وما نظمته لكي يزهاني
قولٌ بدا مقطَّعَ الأوصالِ
ألِفَ في حبٍّ لكم مَكينِ
يا « مَيُّ » ! ما شطَّ بي المَزارُ
فإنّني دانٍ لكم وجارُ
أبوكِ لم تبعُدْ به الدّيارُ
مُنَعّمٌ في قومِهِ والآل
وضاحكُ الفؤادِ والجبينِ
ياقومَنا أعود من « بغدادِ »
مقسّماً بينكمُ فؤادي
ومبلغٌ سلامكم بلادي
تحيّةَ اليمينِ للشّمالِ
ووُصْلَةَ الشّمال لليمينِ

أهلَ « العِراقِ » ! شكرُنا الجزيلُ
وحُبُّنا المخلصُ لايحولُ
كيما يَفِي ثناؤنا الجميلُ
مكارماً في الحِلِّ والتَّرحالِ
كيما نفي بها على السِّنين [1] .

★

من جحيم الظلم في القاهرة
الى سعير الوجد في بغداد :

للدكتور زكي مبارك رحمه الله ، ألقاها في « نادي القلم العراقي » سنة ١٩٣٨ م [2] :

وَفَدْتُ على « بغدادَ » والقلبُ موجَعٌ
فَهلْ فرَّجَتْ كَرْبي ؟ وهل أبرأت دائي ؟
عفا الحُبُّ عن « بغداد » كم عِشت لاهياً
أُكاثر أيّامي بلَيْلَى وظَمْيَاءِ
فكيف وقعْتُ اليومَ في أسرِ طَفْلة
مُكحَّلَةٍ بالسِّحر ملثوغةِ الرّاءِ
أُصاوِلُ عينيْها بعينيَّ ، والأوى
يشيع الحُمَيّا في فؤادي وأعضائي

---

(١) جريدة السياسة ، ١٩٣١/٢/١٧ م .
(٢) [درس الدكتور زكي مبارك في دار المعلمين العالية (كلية التربية اليوم) . وكان ندبه للتدريس في بغداد كسباً للأدب ، فقد كان عاملاً من عوامل النشاط الأدبي . كتب في الجرائد والمجلات ، وخطب وحاضر في المنتديات الأدبية ، وكان خير سفير للعراق من وادي النيل . ألَّفَ « ملامح المجتمع العراقي » و « من وَحْي بغداد » و « ليلى المريضة في العراق » وهو أول كتاب في الغزل نثراً ، وملأ « الرسالة » وغيرها بمقالاته وقصائده ، وبعثَ في المتأدبين حركة ونشاطاً منقطع النظير] .

أكاتم أهليها هُيامي ولو دَرَوْا
هامَتْ بجَنْب الشّطّ أرواحُ أصدائي
الى الحُبّ أشكو بل الى الله وحْدَهُ
أُفوِّضُ بأسائي لَدَيْها ونَعْمائي
أحبّايَ في « مصر الجديدة » ! سارعُوا ،
فقد صرعتني حولَ « دِجْلةَ » أدوائي
أدجلةُ ! ما بيني وبَيْنَكِ ؟ أفصحي ،
فقد طال في مغناك تبريحُ إِضنائي
وردتك أستشفي ، فثارت بليّتي
وأرمضني حزني وأضرعني دائي
أدجلةُ أين الحبُّ ؟ قولي فإِنّني
على الشّطّ أستهدي دياجيرَ ظلمائي
أدجلةُ واسيني فللضيفِ حقّهُ
اذا شئتِ من زادٍ وحُبّ وصهباء
طغى موجك الصّخّاب فاهتاج لوعتي
وأيقظ أشجاني وبلبلَ أهوائي
وقفت أُبُثُّ الجسرَ مابي ، فلم أكن
سوى نافثٍ في أذن رقطاء صَمّاء
وقفت أرجّيهِ ، ولم أدرِ أنّني
أسطّرُ أحلامي على ثَبَجِ الماء
الى أين هذا التّبرُ يجري وحولَهُ
حرائقُ من أرضٍ على الرّيّ جدباء
تحدّرتَ مختالاً فلم تُغْنِ أمّةً
تَشَهّى لطولِ الجدب أوشالِ أنهاءِ[1]

(١) الانهاء : جمع نِهي ، بكسر النون ، وهو الغدير .

تَشكّى (العراق) الجدبَ ، وارتعت أبتغي
نصيبي ، فلم أظفر لديكِ بإرواء
أعندكَ ياصوب الغَوادي تحيّةٌ
لناسٍ على شطّيك ذاوينَ أنضاء
شكا الزَّهْرُ في شطّيك فاخجَلْ ونجِّه
من الظّمأ الباغي ومن حيّةِ الماء
أ(بغدادُ) هل تدرين أنّي مودّعٌ
وأنّ سموم البين تلفح أحشائي
وردتك ملتاعاً أصارع في الهوى
دموع رفاقٍ وامقين إخِلّاء
تنادَوْا الى (باب الحديد) فودّعوا
بقايا فؤادٍ وافر العطف وُضّاء
وردتك مطعوناً تثور جروحه
فكان بنوكِ الأكرمون أطبّائي
لحبّك (يابغداد) والحُبُّ أهوجٌ
رأيت فنائي فيكِ شوق أحبّائي
تناسيت في (مصرَ الجديدةِ) صبيةً
هم الزَّهَرُ الظّمْآن في جوفِ بيداء
يناجون في الأحلام أطيافَ والدٍ
لعهد بَنِيهِ والبنيّات نَسّاء
أ (بغدادُ) هذا آخر العهد ، فاذكري
مدامعَ مفطورٍ على الحُبِّ بكّاء
أ (بغداد) يُضنيني فراقُك ، فاذكري
لدى ذمّةِ التأريخ بيني وإضنائي

خلعتِ على الدّنيا جمالك ، فانثنتْ
تَخايَلُ في طيبٍ وحُسنٍ وآلاءِ
سيذكرني قومٌ لديكِ عهدتهم
يحبّون ظلاّمين ضُرّي وايذائي
يَتشْمسِي خصومي بعد حين أحبّةٌ
يُذيعُون مشكورين أطيب أنبائي
ستذكر أرجاء الفراتين شاعراً
تفجَّرَ عن مكنونةِ الدُّرِ عصماءِ
سيسأل قومٌ : من زكيٌّ مبارك؟
وجسمي مدفون بصحراءَ جرداءِ
فإن سألوا عني ، ففي (مصر) مرقدي
وفوقَ ثرى بغداد تمرح أهوائي

★

يوم الجسر(١) :

للدكتورة عاتكة الخزرجيّة :

---

(١) [الجسر هو « جسر الشهداء » الذي يربط الرصافة بالكرخ ، ويقع في نهاية « جسر المأمون » ، وينتهي بساحة الشهداء ـ ساحة السويدي ـ ، وعلى هذا الجسر سارت جموع الطلاب سنة ١٩٤٨ بمظاهرة صاخبة ينادون باسقاط « معاهدة بيفن ـ صالح جبر » ، وفتح أعوان الاستعمار النار على هؤلاء العزّل الا من رايات الاحتجاج ومن أصواتهم التي هزت المشاعر ، فسقط على الجسر عدد من الشهداء والشهيدات . وفي هذا الحادث الفاجع نظمت الشاعرة الدكتورة عاتكة الخزرجيّة أحاسيسها الملتهبة متفاعلة مع تلك المشاهد الوطنية التي شملت الجماهير الساخطة ، وعلى أثر هذه الاحتجاجات وما أعقبها من تأزم اضطر الوصيّ على العرش مُكرَهاً لا بطلا أن يقيل وزارة صالح جبر هذه] .

ما بـ « العراق » ؟ أصفوةٌ أمجادُ
تودي بها السُّفهاءُ والأوغادُ ؟
مافيك ، ياوطني ؟ أشِرْذمةٌ طغت
تبغي السِّيادةَ فيك وهي تُسادُ ؟
ماذا ؟ أيرجو الخائنون وَلاءَنا
وخضوعنا ؟ ألمثلهم نَنْقادُ ؟
أنُحِبُّ مَنْ باع البلاد بمنصب
فيه الصَّغارُ وفيه الاستعبادُ ؟
أنُحِبُّ مَنْ ضَربَ البلاد ببعضها ،
فإذا بها شُعَلٌ ، وثَمَّ رَمادُ ؟
أنُحِبّ من أورى الضَّغائن بيننا
فإذا القلوب بطيّها الأحقادُ ؟
أنُحِبّ جَلّاداً تخفّى هارباً
إذْ هاله الإجرام والإفساد [1] ؟
« بغداد » ! مهلاً ، لا ترُعْك فجيعةٌ
هي من جراحك بَلْسَمٌ وضِمادُ
قد ماءُ فتيتك البريئة قد مَحَتْ
صَفَحاتِ عارٍ كلُّهُنَّ سَوادُ
نادَوْا بحقّك في الحياة وجاهدوا
وكذا حياة المخلصين جهادُ
نادَوْا بحقّكِ فاستثار نداؤهم
غضب الذُّنابَى الخانعين وكادوا

(١) هرب نوري السعيد وصالح جبر من العراق اتقاء غضبة الشعب الذي كان يغلي غضباً على الرجلين اللذين سعيا لعقد المعاهدة .

لم يَثْنِهم كيدٌ ، ولم يعبَثْ بهم
غدرٌ ، ولم يُرْهِبْهم الإيعادُ
وسروا الى سوح العُلى أسداً ، على
طَلَعاتهم تتلألأ الأمجادُ

متظافرين على هواك ، وهل سوى
هذا الهوى زادٌ لهم وعَتادُ ؟
«بغداد» ! يومُك في الجهادِ ملاحمٌ
غُرَرٌ بها تترنَّمُ الآبادُ
هيهات يمحوها الزَّمانُ مواقفاً
ضَجَّتْ لها في تُرْبها الأجدادُ
سيظَلُّ « يوم الجسر » أروعَ صفحة
بفخارها تتيَمَّنُ الأحفادُ
شهداؤك الأبرار أحياء ، على
قَسَماتِهم نورُ الهدى الوَقّادُ
يتباشرون مُجَلْجِلين هتافَهم :
عاش العراق ، ومات الاستبداد !
«بغدادُ» ! لا تُذْرِي الدُّمُوعَ لفتية
ذهبت وطاب لمثلها استشهاد
ودَمُ الشّهادة إن أريق ، فانمّا
بهديره تتحطّم الأصفادُ
فالأُسْدُ تأبى أن تعيش وأن ترى
بعرينها تتحكّمُ الأوغادُ
واذا تثور على الطُّغاة ، فانمّا
بزئيرها تتزَلْزَلُ الأطوادُ

بوركت ، يا « بغداد » من بَلَدٍ ، به
تُفْدَى النفوس ، وتُبْتَنَى الأمجادُ
أرْجَعْتِ عهدَ الغابرين بوقفة
شَمَّاءَ فيها تُبْذَل الأكبادُ
وجلوتِ للأجيال غضبة حرّة
عربيّةٍ ضيمت فكان جِلادُ
وكتبتِ في سِفْر الزّمان قصيدةً
صَخّابَةً ، فيها الّدماءُ مِدادُ
شُهَداءنا ! لا ، لن تُطَلَّ دماؤكم
هَدَراً ، فإنّا في التّراتِ شِدادُ
سنَهُبُّ نبغي الثّأرَ هبّةَ ثاكلٍ
لوحيدها ، إذْ ناله الأنْكادُ
في ذمّة التأريخ أبطالٌ مَضتْ
وبذمّة الحقّ المضيم جِهادُ (١)

★

ولها في بغداد ، وهي تُحيّي وفداً جزائرياً جاء بغداد بعد اعلان استقلال «الجزائر» :

قَسماً بالإله عَزَّ وجَلّا
إنَّ قلبي عن حُبِّها ما تسلّى
هيَ منّي رُوحي ، وما أنصف التّعْـ
ـبير ، لا بَلْ أعَزُّ منها وأغلى
هي عندي دُنْيا من الحسن طابت
وزكَتْ نبتةً وفرعاً وأصلا
حاشَ لله ! ليس حُبّكِ يَلْقَى
غير قلبي له مكاناً وأهلا

(١) ديوان الشاعرة « أنفاس السَّحَر » .

قسماً بالّذي براك من السّحْـ
ـر ومَن صَوَّرَ الجمال فأعْلى
والذي نَوَّرَ الجبينَ ، فكانتْ
طلعةٌ كالصَّباح يُمْناً ونُبلا
أنا أهواكِ فوق ما عَرَفَ الحبُّ
كأنّا في الحُبِّ « قيس وليلى »
ليتني مِتُّ في هواكِ ، فما أكـ
ـرَمَ في حُبّكِ المماتُ وأحلى !
إيهِ « بغداد » ! ياعروسَ الليالي ،
فُقْتِ في العزّ بدرَها إذ تجلّى
وبدنيا الأمجاد كان لك السَّبْـ
ـقُ تِباعاً والقِدْحُ فيها المُعَلّى
قِبلةً كنتِ للورى ومَحَجّاً
ومَطافاً وكعبةً ومُصَلّى
ومتى ضَلّ سائرٌ في خُطَاهُ
كنتِ هَدْياً له وبَيْتاً وأهلا
إيهِ « بغداد » ! ياسماء المعالي
ورفيفَ النّدى رَذاذاً وَوَبْلا
حاشَ لله أن أرى لك ، يا « بغـ
ـدادُ » ، ما عشتُ في الحواضر ، مِثْلا
أنت للعُرْب أوّلاً وأخيراً
تتفيا من ظلّ نخلِكِ ظِلّا
وعلى شاطئَيْك خُطّتْ سطورٌ
هي عزٌّ على المدى ليس يَبْلَى

مُرْهَفٌ أنتِ في يمين المعالي
يَبْهَرُ العالمين حدّاً وصقلا

ووِسامٌ ، به العروبة باهت
وأدلَّتْ بحسنه وأدّلا

غُرّةٌ أنتِ في جبين الليالي
تَملأُ المشرقين نُوراً ونُبْلا

وكتابٌ به المحامد تُتْلَى
سُوَراً من سنا المكارمِ تُمْلَى

كان للظّامئين وِرداً وريّاً
ومن المعتفين خِصْباً وفضلا

إيه « بغدادُ » ! رَحِّبِي بوفودٍ
تستحثُّ الخُطا من الشّوق عَجْلَى

أنْثُري الوَرْدَ والرّياحينَ في الدَّرْ
بِ ، وقولي لَقِيتَ ، ياوَفْدُ ، أهلا

وانفحي الجوَّ بالبخور وبالطِّيـ
ـب، وقولي : نزلتَ ، ياوفد ، سهلا !

ثم صُفّي النَّخيلَ كيما تُحيّي الـ
ـوفد من حيثُ سار أو حيثُ حَلّا

ومُرِي « دجلةَ » العظيم يغّني
ها فصولَ الأمجاد فصلاً ففصلا

إيهِ « بغدادُ » إنّ أعيادك الغُرَّ
صباحٌ بِهِنَّ حُسْنُكِ يُجلّى

يتلالا جبينُكِ الأزهرُ الوَضّـ
ـاءُ فيها صبحاً علينا مُطِلّا

أيُّ عـرُسٍ هـذا ؟ وأيُّ عروسٍ ؟
أأرى « شهر زادَ » ؟ بل أنت أحلى !
من مَـعِـيـنِ الحيـاة رُوِّيتِ صَفْـواً
وَسـقَـيْـتِ الفنـونَ نَهْلاً وعَـلّا
ففتنتِ الأنـامَ جِيـلاً فجيـلاً
وشغلتِ الزّمـانَ بعضـاً وكُـلّا
وسحـرتِ التأريخَ حتى غـدا فيـ
ـكِ مُـعَـنّىً لايرتَجي منكِ وصْلا
جرري الذّيْلَ واخـطري وأدّلي
وافتني النّاظرين حُسْنـاً وَدَلّا
واملئي العـالمين سعداً ويُمْنـاً
وابشري ، فـالعروبة اليـوم جَذْلَى
هـذه أختنـا « الجزائر » أضحت
حُـرّة حطمت من البَـغْـي كبْـلا
وأراهـا تلـوح في أفقنـا بشـ
ـرى بها تُـطْـرَدُ اليهـود وتُجْـلَى
وتـعـودُ الأرض الطّهـور طهـوراً
تزدهي بُـقـعـةً ورَبْـعـاً وأهـلا !

★

بلد الهدى النشوان :

ولهـا أيضـاً :
بـلـد الهـوى النّشـوا
نِ في كـأس مـن السحـر الفريدِ

السِّحْرُ في همس العيو
ن ، وبين سالفةٍ وجِيدِ
في ذاتِ دلٍّ كالنَّسِيـ
ـيم ، تروعُ بالخَطْو الوئيدِ
أو ذاتِ حسنٍ كالضُّيا
ينبثُّ للفجر الوليدِ
أو ذات لحظٍ ، إن تُصِبْـ
ـك ، فلا تَسَلْ : هل من مُقيدِ ؟
السِّحْرُ في هذا الجلا
ل بـ (دجلة) العاتي العتيدِ
في النَّخل هيمان الظِّلا
ل على الشَّواطىء والحدودِ
في رَنَّة الأذكار للـ
ـطَّيْر المسبّح بالوجودِ
في الله تتلوها بأنـ
ـغامٍ على شَفَةِ الخلودِ
السِّحْرُ في (بغداد) أطـ
ـيافٌ من الأمس البعيدِ
وكأنّني ألقى بها
بعثَ الشَّواعر من جديدِ
وأرى (عُلَيَّةَ) تُنشِد الـ
أشعار في حرم (الرَّشيدِ)
والشّاعرَ المفتونَ (عَبّـ
ـاساً) يدندن بالقصيدِ

السّحْرُ في (بغداد) ألـ
ـوانٌ من الماضي البعيدِ
صبغت بها الأجواء من
حولي بألوان الخلودِ
فتلوّن القرطاس حتّـ
ـى بان في شَفَقِ الخُدودِ
وزكا اليراع ، فمجّ عـ
ـراً شاع في روح الوجودِ
فلمحت جمع الزّاهديـ
ـن يموج بالعدد العديدِ
في زحمة مثلِ الحجيـ
ـج ، وقد تداعى في الصَّعيدِ
وتنفَّسَ (الكَرْخِيُّ) في
جوّ من التَّقْوَى رَغِيدِ
وتَحُفُّهُ زُمَرُ الملا
ئك تحت شارات المُريدِ
ورأيت للمُجّان سا
درةً على كأسٍ وعود
كرعت من الشُّرْب الحرا
م ، وزمزمت : هل من مزيد ؟
و (أبا نُواسٍ) إثْرَ (بَشْـ
ـشار) يعربد بالنَّشيدِ
في حانةٍ بالآس تعـ
ـبَقُ من قديم أو جديدِ

وتعُجّ بالغلمان والـ
ـنُّدْمان والصَّخَب الشَّديدِ
ضَلُّوا بِبَهْماء الضَّلا
ل ، وما رَعَوْا حُرَمَ الوجودِ

★

بغداد يمالؤني هواك . . :

ولها في التشوق الى بغداد ، وكانت منتدبة لخدمة العلم في (الرياض) في ١٠/٢/من عام ١٩٨٤ .

وسُئلتُ حين الدَّمعُ حا
ر وحثَّ حادي البَيْنِ رَكْبَهْ :
أتَرَيْنَ وادي الرّافديـ
ـن ؟ تِلالَه.. ؟ أتَرَيْنَ كُثْبَهْ . . ؟
أتَعِينَ وسوسةَ النَّخيـ
ـلِ ومَجْلِسَ الأحباب قُرْبَهْ . . ؟
وسَقاسِقَ العُصْفورِ إمَّا
النُّورُ شَقَّ عليكَ دَرْبَهْ . .
وغُدُوَّ أسرابِ الطُّيو
ر ، ورَوْحَها في كُلِّ رَحْبَه . .
أتلوح بغدادُ الهوى . . !
أتَجيءُ أطيافُ الأحِبَّهْ ؟
أتُهَوِّمُ الذِّكرى ؟ أيُمـ
لِي الشَّوْقُ للمشتاق كُتْبَهْ . . ؟
أفتذكرين . . ؟ وهل نَسيـ
تِ ؟ وكيف ينسى المرءُ حُبَّهْ . . ؟ !
(بغدادُ) عَفْوَكِ قد جرحـ
ـتِ القلبِ إذ أثقلتَ عَتْبَهْ

وَرَمَيْتِ بالغـــدرِ الـوَفِيِّ

ضَـلالـةً فـخـرقـتِ لُـبَّـه

أنـتِ الحبيبـةُ لا تـخـــا

فِي نبـوةٍ ، فالـغَـدْرُ سُـبَّـه . . !

حُـبَّانِ : حُـبُّ اللَّـــه والـ

أوطــان لِـلأحرار حِسْبَـه : . . !

بـغــدادُ يمـلـؤني هـــوا

كِ ، وفُـرقةُ الأحبابِ كُــرْبَـه

مـا غِبْتِ عـن عَيْنَـيَّ يـو

مـاً ، أوْ نَسِيتُ لديكِ صُحْبَـه

(بغــدادُ) أنـتِ سوادُ عيـ

نـي ، والفؤادُ سكنتِ لُـبَّـه

تَبْقِيـن أنتِ الحـبَّ والـ

ـوَحْيَ الأَمينَ لَـدَى المُحِبَّه . . !

*

اذا قيـل بغـداد :

ولهـا :

إذا قيـل بـغـدادُ قيـل العروبـةُ حَـ

سْبُ العُـرُوبـة مـن آصِـرَه . .

وقيـل « الجزيرة » قيـل « الحِجـاز »

و « مكـــة » و « الكعبة العامِرَه »

وقيل « المدينة » مَثْـوَى الرَّسـول

و « نجـدٌ » و « بطحاؤها » الشّاعِرَه

وقيل « الكويتُ » وكلٌّ « الخليـج »

أُفَـدِّي أواذِيَّـهُ الثّـائِرَه . . .

وقيل « عُمَّانُ » و « عَمَّانُ » بل
« دمشقٌ » « وبيروتُ » « والقاهرةْ » . .
وقيل « الجزائرُ » « قيل « الرِّباطُ »
و« تونُسُ » خضراؤنا السّاحِرَةْ
اذا قيل « بغدادُ » قيل الإِباءُ
وقيل العُلى واليد القادِرَةْ . .
وقيل انبعاثٌ لعهدٍ جديد
يُعَفّي على الأَرْسُمِ الداثرَةْ
وقيل بدورٌ تَجَلّى بها
تُنير طريقَ الفِدا ساهِرَةْ
وقيل الصُّقُورُ بأجوائها
تَرَبَّصُ كالأنجم الدّائِرَةْ
وقيل بها كُلَّ قَرْمٍ جليلٍ
جميلٍ كطَلْعَتِها الباهِرِهْ
إذا قيل بغدادُ قيل الإِباءُ
يسوقُ العُتاةَ لها صاغِرِهْ
وقيل افتداءٌ وقيل اعتلاءٌ
وبالبَغْي دارت بها الدّائِرَةْ
وبغدادُ نورٌ وبغدادُ نارٌ
وسِفْرُ مآثِرنا الحاضِرَةْ

★

(*) وقصائد الشاعرة في بغداد كثر يطول حصرها لذا اجتزانا بآخر ما تهيأ لها فيها .

ثورة تموز ١٩٥٨ وتأسيس الجمهورية
أصداؤها في شعر الشعراء

*

صباح الأمل
او نشيد ١٤ تموز ١٩٥٨

للأستاذ محمد بهجة الأثري :

أَفِقْ . . صَباحُ الأَمَلِ المنشودِ لاحْ حُلْوَ الوِشاحْ !

*

لاحَ ، ولاحَتْ في حَفافَيْهِ شُعَلْ (١)
أذكى الزَّغاريدَ وأَطْرابَ الجَذَلْ
واستَدْفَعَ الشَّوْقَ بمحمومِ القُبَلْ
حَرّانَ ، ظَمْآنَ إلى ثَغْرِ الأَمَلْ
يُبْرِئُ آلاماً ، ويَأْسُو من جِراحْ
ما آنَ للأشواقِ يوماً أَنْ تُراحْ من النّضاحْ (٢) ؟
أَفِقْ . . صباحُ الأملِ المنشودِ لاحْ حُلْوَ الوِشاحْ !

*

تَألَّقَتْ من السَّنا أَوْضاحُهُ (٣)
وهَزَّ عِطْفَ الوَطَنِ التِماحُهُ (٤)
آنَسَهُ ، بَعْدَ الدُّجَى ، إِصْباحُهُ
فهاجَ من سُرُورِهِ صُداحُهُ
واستضحك الكون شِعافاً وبِطاحْ (٥)
غَرَّدَ جذلانَ ، وللنَّفْسِ انشِراحْ من المِراحْ (٦)

---

(١) حَفافاه : جانباه .
(٢) النضاح : الدفاع .
(٣) أوضاحه : أضواؤه .
(٤) التماحة السنا : ابصاره له .
(٥) الشعاف : رؤوس الجبال
(٦) المِراح ، بكسر الميم : اسم من المَرَح ، وهو النشاط .

أَفِـقْ . . صَباحُ الأَمَـلِ المنشودِ لاحْ   حُلْوَ الوِشاحْ !

★

أَفِـقْ . . فـقـد أَدْبَـرَ لـيـلُ الظّـالِـمِ
أفِـقْ . . فـقـد أفـاقَ كُـلُّ نـائِـمِ
وثـابَ لِـلْـيَـقِـيـنِ كُـلُّ حـالِـمِ[1]
وقـامـتِ الأعـراسُ في الـعـوالِـمِ
وعَـجَّـتِ الأرضُ سُـروراً ومِـراحْ
مـع الصَّبـاح أرسلَـتْ شمسُ الفـلاحْ   بُشْرَى النَّجاحْ
أفِـقْ . . صباحُ الأَمَـلِ المنشودِ لاحْ   حُلْوَ الوِشاحْ !

★

بُشْراك . . صَرْحُ البَـغْـي قـد دُكَّ فزال
زالَ كلَـمْـحِ الطَّـرْفْ من قَـبْـلِ « الزَّوالْ »
زالَ مـن الـكَـوْنِ إلى أُخْـرَى اللَّيـالْ
فهـلْ عرَفْتَ الآلَ أو طيْفَ الخيالْ[2] ؟
أَيْـنَ غُـدُوُّ الـظّـالِـمِـيـنَ والرَّواحْ ؟
عفَـتْ من (الكذّاب) آثارُ السِّفاحْ   ومن (سَجاحْ)[3] !
أفِـقْ . . صباحُ الأمـلِ المنشـودِ لاحْ   حُلْوَ الوِشاحْ !

★

قُـمْ . . بـارِكِ (الثّورةَ) في نـجاحِـهـا
قُـمْ . . شارِكِ (الأحرارَ) في كِـفـاحِـهـا

---

(١) ثاب : رجع .
(٢) الآل : السراب وهو ما يُرَى في الصحارى كالماء عند اشتداد الحر .
(٣) الكذاب : لقب مسيلمة المتنبيء وقد قتل في « الردة » . وسَجاحِ امرأة ادعت النبوة كذلك بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، وتزوج بهـا مسيلمة ، ثم أسلمت بعد مقتله ، وهاجرت الى (البصرة) فتوفيت فيها .

قُمْ .. ساهِرِ (الأوطانَ) في أفراحِها
قُمْ .. واصْحَبِ (العُرْبَ) إلى طِماحِها
وامْشِ الى (العِزَّةِ) وَثْباً وجِماحْ
إنَّ مَنالَ العِزِّ والمجدِ الصُّرَاحْ [1] رَهْنُ الكِفاحْ !
أفِقْ .. صباحُ الأمَلِ المنشود لاحْ حُلْوَ الوِشاحْ !

بغداد :

وحين انطلقت هذه الثورة ، تجاوبت مصر مع ثورتنا ، فنظم الشاعر محمود حسن اسماعيل هذا النَّشيد ، وغنَّته مطربة الشرق أم كلثوم .. قال :

« بغدادُ » ! ياقلعة الأسودِ يا كعبة المجد والخلودِ
يا جبهة الشمس للوجودِ

*

سمعت في فجرك الوليد
تَوهُّجَ النارِ في القُيُودِ
وبيرقُ النصر من جديد
يعود في ساحة « الرشيدِ »

*

ثأرت في حالكِ الظَّلام
وقُمْتِ مشدودةَ الزِّمامِ
للنّور ، للبعث للأمام
لبأسك الظّافر العتيدِ
ومجدك الخالد التّليد
عصفتِ بالنّار والحديدِ
وعُدْتِ للنُّور من جديدِ

*

(١) الصراح : الواضح الخالص مما يشوبه .

يـاعـربـاً دَوَّخُـوا اللـيـالـي
وحَـطَّـمـوا صـخـرةَ المُحالِ
صـونـوا عـلى شعـلـة النّـضـال
مـواكبَ البعث والصُّعـودِ
لِـقِـمّـةِ النَّـصْـر في الـوجـودِ
عُـودوا لأيـامـكـم وعـودي
كـالـفـجـر في زَحْـفِـك المَـجـيـدِ

*

قـد أذِنَ اللّـهُ في عُـلاهُ
أن يـصـحـوَ الشّرقُ مـن كَرَاهُ
ويـرحَـلَ الـلـيـلُ عـن سَـمـاه
وتسطـعَ الشّـمْـسُ من جـديـدِ
مـن أمسِنـا الـسّاحـر البـعـيـدِ

*

« بغـدادُ » ! ياقلعـةَ الأُسُود يـا كـعبـة المجد والخلـودِ
يا جـبـهـة الشمس للـوجـودِ

ليـالي بغـداد :

للشّاعر الخالـد الأديب خليل مـردم ، نظمها أيّـام كان وزيـراً مفوّضاً لسورية في بغـداد سنة ١٩٥٣م :

ليالِيكِ ، يا « بغداد » ، في الحُسْن كالفجرِ
معطّـرةُ الأنفاس طيّـبةُ النَّشْـرِ
وللنّـور والحسن المبيـن سوادُهـا
كذاك سوادُ العَيْـن للنُّـور والسّحـرِ
ومـاروعـة الإشراق أو رَوْنَـق الضُّحى
بأحسنَ من لألاءِ أنْجُـمِـها الزُّهْـرِ

ففي كلّ سطرٍ من صفاء سمائها
يُلاقيك وجهٌ بالطّلاقة والبِشْرِ
وما القُبّةُ الزّرْقاءُ لولا نجومُها
ولولا ازدهارٌ للهلالِ وللبدرِ
اذا الرِّيحُ مَرَّتْ فوقَ « دجلةَ » رفرفت
بأجنحةٍ فيها الزّوارقُ إذْ تجري
وبات شُعاعُ النُّورِ في الماء شُعْلَةً
تَشِبُّ بأحشاء المياه وتَسْتَشْرِي
ورُبَّ فتىً أمسى على الشّطّ مُنْشِداً :
« عيونُ المَها بين الرُّصافة والجَسْرِ »
فأوردني ما قد تحاميت وِرْدَهُ
زماناً ، وهاجَ الوجد والشّعر في صدري
فياليلةً من دونها « ألفُ ليلةٍ »
سأذكرها بالخير ما مُدَّ في عمري
شهِدت بها ما يملأ النَّفْسَ بهجةً
ويَقْضي على العينين والقلبِ بالأَسْرِ
كأنَّ الحِسانَ الغِيدَ يَخطِرْنَ بينَنا
ملائكةُ الرَّحْمن في ليلة القَدْرِ
فكم غادةٍ تُصْبي الحليم بسحرها
تُضيءُ ظلام الليل كالكوكب الدُّرّي
تفتَّحَ أعلى الثوب عن غَضّ جسمِها
كما انْشَقَّ كِمُّ الزَّهْرِ عن ناضِرِ الزَّهْرِ
تَقَلَّص عن صدرٍ وظهرٍ سَوادُهُ
كما انشقّ ليلٌ عن عَمُودٍ من الفجرِ

تشبّثَ لمّا زالَ أعلاه عنهما
بناهدِ ثَدْيَيْها ودارَ على الخَصْرِ

تموّجَ دون الكَشْحِ وانْداحَ ذَيلُهُ
فكانت كمَنْ يطفو على لُجَجٍ خُضْرِ

يزيد بريقاً عِقْدُها فوقَ نَحْرِها
فنورٌ على نورٍ حِلاها على النَّحْرِ

اذا رطَنَتْ كانت لكِسْرَى وقَيْصَرٍ
وإن أعربت فهي الصّريحةُ من فِهْرِ

أرى سهري فيها ألَذَّ من الكرى
بعينيْ طَليحٍ من سُهاد ومن سُكْرِ

وما أنْسَ من شيءٍ فلا أنْسَ ليلةً
تبسّم فيها الأُفْقُ عن بارقٍ يَسْري

بدا من أهاضيب السَّحاب ، كأنّه
خوافقُ راياتٍ على عسكرٍ مَجْرِ

تألّقَ في الأُفْق الشَّآميّ مَوْهِناً
يُضيءُ ويخبو كالمُشير الى أمْرِ

فحيّا قِباباً في « العِراق » مُنيفَةً
وأيقظ من نوم « أبا الهول » في « مِصْرِ »

رجوت لـ « بغدادٍ » رجاءَ المحبَّبِ أن
تعود لياليها بأيّامها الغُرِّ

★

هدم الله ما بَنَوْا من حدود :

للشاعر سليمان الاحمد ، المعروف بـ « بَدَوي الجبل » :

إيهِ دُنْيا « الرّشيد » تفنى الحضارا
ت ، وتبقى كالدَّهْر دُنْيا «الرَّشيدِ »

صُوَرٌ للسَّنا القديم وضاءٌ

زوّقتها رؤى الخيالِ الشَّرُودِ

صُوَرٌ للقديم تعرضُها الدُّنـ

ـيا ضياءً ، وروعةً في الجديدِ

هذه « دجلة » وهذي البساتيـ

ـنُ وشَدْوُ القُمْرِيّةِ الغِرّيدِ

والأَماسيُّ والنَّخيلُ ومَلاّ

حٌ طروبُ الحُداء حُلْوُ النَّشيدِ

والليالي في النَّهْرِ والأنْـ

ـسامُ أصداءُ زَوْرَةٍ وصُدودِ

والقِيانُ المِلاح يخطِرْن في الشطّ

ـ سُكارى مُرَنَّحاتِ القُدودِ

آهة بعد آهة من « عَريبٍ »

تخلُقُ الظِّلَّ للضُّحَى المكدودِ

كلَّما هَلَّلَتْ صَباً أو حِجازاً

ضاع حلْمُ المُتَوَّجِ المحسودِ

وجوارٍ يَمْرَحْنَ في الزَّورق السّا

جي ، ويضحكن عن نَدًى وبَرُودِ

رَفَّ مِجدافُهُ على الماء وانْسا

قَ بأحلى معاصمٍ وزُنُودِ

فانتشى من طُيُوفهنّ وجُنّتْ

قَطَراتٌ عَلِقْنَ بينَ النُّهُودِ

والقصور البيضاء والحُلُم اللّـ

ـذّ جلاه دُخانُ نَدٍّ وعُودِ

فترامت مَفاوِزٌ من ضيـاء ،
ورمالٌ من لؤلؤ وورودِ
وخِيام في البِيد والحسن والنَّجْـ
ـدة والشّعرُ في خيام البيدِ
ثم لاحت « بغدادُ » بدعةَ سِحْر
قادرٍ مُتْرَفِ الخَيالِ فَريدِ
ليس بين العراق والشّام حَدٌّ ،
هَدَمَ اللهُ ما بَنَوْا من حُدُودِ !
قل كما قال للغمامة « هارو
نُ » ، وفي الجَوِّ زَمْزَماتُ الرُّعُودِ
قل لها : أيّها الغَمامَةُ جودي
شاطِئَ « الرّافِدَيْنِ » أو لا تجودي
حَوِّمِي ما أردتِ شرقاً وغرباً
في تخوم الكون الفسيح المديدِ
سترفّين مُخْصِباً من سفوحي
وتُرَوّينَ ظامِئاً من نُجُودي
أمطري أين شئتِ ، فالكون ملكي
وبنوه قبائلي وجُنُودي[1] !

★

تحية بغداد :

وحيّا بشارة الخوري شاعر لبنان بغداد في مقدمة قصيدة أنشدها في رثاء جميل صدقي الزهاوي ، وكانت حفلة ذات أبهة وجلال ، حضرتها وفود من مختلف الأقطار العربية . قال مخاطباً بغداد :

---

(١) مجلة « التفيّض » ١٩٣٩ م .

قُولي لشمسكِ : لا تغيبي
وتكبّدي فَلَكَ القلوبِ
بغدادُ ! ياوطنَ الجها
دِ ومَوْضِعَ الأدبِ الخصيبِ
غنّاكِ دجلةُ والفرات
قصائدَ الزَّمَنِ العجيبِ
رَقَصَتْ قوافيها على
نَغْم البشائر والحروبِ
أعراسُ « دارا » من مقا
طِعِها وخَيْبَةُ « سَنْحَرِيبِ »
حتّى اذا طلع « الرّشيـ
ـد » وماج في الأفق الرّحيبِ
صهر القرون وصاغها
تاجاً لمَفِرقِكِ الحبيبِ
أسْدُ العِراقِ ، وما الرّيا
حُ الهُوجُ طاغية الهبوبِ
أمْضَى وأنفذُ منكِ ، إذْ
تَثِبينَ للأمر العَصِيبِ
قَلَّمتِ أظفارَ الزَّما
ن ، ورُعْتِ داهيةَ الخطوبِ
وبنيتِ بالقلمِ الحكيـ
ـم وبالمُهَنَّدَةِ الغَضُوبِ
مجداً تنقّلَ في العُلى
بين الأشعّةِ والطُّيوبِ

بغدادُ ! ياشَغَفَ الجما
لِ ومَلْعَبَ الغَزَلِ الطَّروبِ
بَنَتِ المكارمُ للعرو
بةِ فيكِ جامعةَ القلوبِ
بيت من الأخلاق ضا
قتْ عنه أخلاقُ الشُّعوبِ
وَسِعَ الدّياناتِ السِمّا
حَ وضَمَّ أشتاتَ النُّدُوبِ
زَفَراتُ «أحمدَ» في رِسا
لَتهِ ، والآمُ الصّليبِ
(بغداد) ! ماحَمَلَ السُّرَى
مّني سِوى شَبَحٍ مريبِ
جفلت له الصّحراء والـ
ـتَفَتَ الكَثيبُ الى الكَثيبِ
وتَنَصَّتَتْ زُمَرُ الجَنا
دِبِ من فُوَيْهاتِ الثُّقُوبِ
يتساءلون وقد رَأَوْا
«قيسَ المُلَوَّحَ» في شحوبيِ
والتَّمْتَماتُ على الشّفا
دِ مُضَرَّجاتٌ بالنَّسيبِ
تبكي لها قُبَلُ الصِّبا
ويذوبُ فيها كلُّ طِيبِ
يتساءلون : مَنِ الفتى الـ
ـعربّي في الزّيّ الغريبِ؟

صحراء ! يابنت السّما
ء البكر والوحي الخصيبِ
أنا لو ذكرت أحـ
ـلامي وأنغامي وكُروبي
إحدى الشُّموعِ الذّائبا
ت أَمامَ هَيْكَلِكِ الرَّهيبِ
أنا دمعةُ الأدب الحزيـ
ـنِ رسالةُ الألم المذيبِ
من قلب (لُبْنانَ) الكئيـ
ـب لقلب (بغدادَ) الكئيبِ[1]

*

يا أمّة العرب :

للأستاذ احمد دمشقية :

سائلْ بني الغَرْب : هل ينسَوْنَ ماقبسوا
من حكمة « الشّام » أو آدابِ « بغدانا » ؟
أيّامَ « دجلة » يروي الواردين الى
نَهْلِ العلوم زَرافاتٍ ووِحْدانا
ألا ترى صور الماضي المجيد على
ضِفافه شاهداتٍ بالّذي كانا
لمّا أطَلَّ على « بغداد » موكبنا
خلنا « الرَّشيدَ » بدا حيّاً فحيّانا
وإنَّ « بغداد » دار العزّ مابَرِحت
تَسِيلُ ألْويةٌ حمراً وفتيانا

(1) ديوان الأخطل الصغير ، ص ١٤٤ .

هو « العراق » اتخذناهُ لنا مَثَلاً
أعلى ، وللنَّهضة القعساء عُنوانا
سائلْ فِلَسطينَ : هل كانت قضيَّتُها
لولاهُ تدرك نُجْحاً في قضايانا
منازلُ العُرْب قد أضحت موحَّدةً
بالفكر حقّاً وما استثنيت « لُبنانا »
وما الحواجز من حُبّ بمانعة
مادام أن الّذي نَهْواه يهوانا

★

دجلة في الليل ، أو الليل في بغداد :

للشاعر الرقيق أنور العطار الدمشقي رحمه الله ، قالها أيام كان مدرّساً في بغداد سنة ١٩٣٨ م :

اللّيلُ في (بغدادَ) لاينامُ
سهرانُ تُصْبِي روحه الأنغامَ
وَيسْتَبِيه الوَجْدُ والهُيامُ
واللهوُ والإِيناس والمُدامُ
والشِّعرُ والأَوْهامُ والأحلامُ

أسْكُبِ النّور ياقَمَرْ
واغْمُرِ النّهرَ بالصُّوَرْ

وأذِعْ فرحةَ الهوى
وأشِعْ لذّةَ السَّمَرْ

يجْمَعُ النفسِ كُلَّها
من تشهّيهِ في النَّظَرْ

هاهنا الليلُ شاعرٌ
مُلْهَمٌ خَيِّرُ الفِكَرْ
مستطارٌ اذا انتشى
مستثارٌ اذا ادّكرْ
مِلْءُ أفيَائه السَّنَا
ملء أعطافه الدُّرَرْ
في وِشاحٍ مُنَمْنَم
ساحرٍ فتنةِ البَصَرْ
والنَّسيمُ الّذي يطّو
فُ شِعرٌ لمن شَعَرْ
ونشيدٌ مسلسلٌ
في العشيّات والبُكَرْ
ما أحيلاه ساجياً !
ما أحيلاه إنْ فَتَرْ !
طافَ بالأعين الرُّقا
دُ ، وما شَفّني السَّهَرْ
يتصبّانيَ النَّخيـ
ـلُ ، ويُغريني النَّهَرْ
في ثناياه صُورةٌ
حُلوةٌ كلُّها سِيَرْ
بأبي أنت مورداً
ليس في وِرده كَدَرْ !
يتَشَهّاكَ خاطري
وتَسَلّى بك الذِّكَرْ

إنْ تَثَنَّيْتَ فالنَّدَى
أو تأوَّدْتَ فالطُّرَرْ
أو تسلسلتَ صافياً
فأخو الدَّلّ والخَفَرْ
مَرَّ بي طيفُكَ الحبيـ
ـب ، وكم طائفٍ سَحَرْ !
في أساريره فتو
نٌ وفي طَرفه حَوَرْ
المُنَى طوعُ أمْرِهِ
ما تمنّى وما أمَرْ
والشَّذا منه عابقٌ
فاغِمُ العِطْرِ منتشِرْ
فعلى الشّمس عَرْشُهُ
وعلى هامها استقَرّ
هو ريحانة العُلى
فيه من عَبْقَرٍ أثَرْ
عدتُ للغابر البعيـ
ـدِ أناجي الذي غَبَرْ
هاهنا سيرةُ الزَّما
ن وعاها الّذي ذكَرْ
هاهنا الكوخ سابحٌ
في خِضَمٍّ من العِبَرْ
ها هنا تخشع القلو
ب وتصبو وتنفطِرْ

أنت لي الحُبُّ والمنى
أنت لي القصدُ والوَطَرْ
ليس لي عنك مُبْتَغىً
ليس لي عنك مُصْطَبَرْ
أتناسى بك الأسى
غمرَ النّفسَ ما غمرْ
واحنيني الى الضِفا
ف تزاحمن بالشَّجَرْ !
أنت يانهرُ عاشقٌ
من صَباباتك القمرْ
مرَّ بالماء صورة
فتَنَتْ كلَّ من نظرْ
وينابيعَ حُفَّلاً
باللآلي وبالدُّرَرْ
والنُّجوم الّتي ترِفُّ
إطارٌ من الزَّهَرْ
وربيعٌ من المُنَى
ورياضٌ من الثَّمَرْ
يَتَوَهَّجْنَ باللظى
يتراقصْنَ كالشَّرَرْ
فيك ما يملأ النُّهى
فيك ما يَبْهَرُ البَشَرْ
آية أنت للعلى
راية أنت للظَّفَرْ

يتثنّى بك الزّما
ن ، ويُزْهَى بك العُصُرْ
ويباهي بك الجلا
ل ، ويَنْدَى ويزدَهِرْ
رُبَّ ماضٍ بعشته
مثلما يجمع البشرْ
رَفَّ كالحُلْم خاطفاً
وتوارَى وما انتظرْ
أنت كالحُبِّ ساربٌ
أنت كالعُمْر مختَصَرْ
أنت كون من الشّمو
س سنا ضوئها بَهَرْ
بِتُّ أستلهم الرُّؤى
بتُّ أستقرئ الذّكَرْ
والهوى طائفُ يجـ
ـدّ ، وكم يركب الغَرَرْ
لا يخاف الرّدى الرّهيـ
ـبَ ، ولا يعرِفُ الحَذَرْ

ومنها :

إيهِ « بغداد » هل يعو
دُ الجلال الّذي اندثَرْ ؟
فأرى تاجَكِ النَّضِيـ
ـرَ على الكون ينضفِرْ
وأرى الأرضَ كُلَّها
وَهْيَ مَهْدٌ ومُستقرٌ

آيَــةٌ أنـتِ فَــذَّةٌ
كلُّ ما فيكِ مُبْتَكَرْ
حفِظَ الدّهرُ ذكرَها
وروى للغدِ الخَبَرْ

★

وحدة العرب :

لحليم دَمُّوس الشاعر العربي اللبناني :

أنا كيف سِرتُ أرى الأنامَ أحِبّتي
والقومَ قومي والبلادَ بلادي
بَرَدَى كدِجلةَ والفرات محبةٌ
والنّيلُ كالأُرْدُنّ طَيَّ فؤادي
والغُوطَتَينِ وكَرْمَ وادي زَحْلة
كنخيل مصرٍ في ظِلال الوادي
وحفيفَ هذا الأَرْزِ في لبنانِه
كحفيفِ ذاك النّخلِ في «بَغْداد»

★

عيناك يابغداد :

زار نزار القباني الشاعر الشّاميْ المعروف بغداد في آذار سنة ١٩٦٢ م فحيّا بغداد بهذه الأبيات الرقيقة التي تتسم بالنعومة والعذوبة ، تطيف على حواشيها الأضواء والأطياف . قال :

مُدِي بساطكِ واملئي أكوابي
وانسي العتاب ، فقد نسيتُ عتابي !
عيناك (يابغداد) منذُ طفولتي
شمسانِ نائمتان في أهدابي

لا تنكري وجهي ، فأنت حبيبتي
وورود مائدتي وكأس شرابي
(بغداد) جئتك كالسفينة مُتْعَباً
أخفي جراحاتي وراءَ ثيابي
ورميت رأسي فوقَ صدرِ أميرتي
وتلاقت الشّفتانِ بعدَ غيابِ
أنا ذلك البَحّار يُنْفِقُ عُمْرَهُ
في البحث عن حبٍّ وعن أحبابِ
(بغداد) طرت على حرير عباءةٍ
وعلى ظفائر زينبٍ ورَبابِ
وهبطتُ كالعصفور يقصد عُشّهُ
والفجرُ عُرْسُ مآذنٍ وقِبابِ
حتّى رأيتُك قِطعةً من جوهرٍ
ترتاح بين النّخل والأعشابِ
حيثُ التفتّ أرى ملامح موطني
وأشُمُّ في هذا التُّراب ترابي
لم أغتربْ أبداً ، فكل سحابةٍ
بيضاء فيها كبرياءُ سَحابي
إنّ النُّجومَ السّاكناتِ هضابَكم
ذاتُ النّجوم السّاكنات هضابي
(بغدادُ) عشتُ الحسنَ في ألوانه
لكنّ حُسْنَكِ لم يكن بحسابي
ماذا سأكتب عنك ، يافيروزتي
وهواكِ لا يكفيه ألفُ كتابِ

يغتالني شعري فكلُّ قصيدة
تمتصُّني ، تمتصُّ زيتَ شبابي
الخِنْجَرُ الذهبيّ يشرب من دمي
وينام في لحمي وفي أعصابي
(بغدادُ) ياهزج الخلاخل والحِلى
يامخزن الأضواء والأطيابِ
لاتظلمي وَتَرَ الرَّبابة في يدي
فالشَّوْقُ أكبرُ من يَدِي وربابي
قبلَ اللقاء الحُلْوِ كنت حبيبتي
وحبيبتي تَبْقَيْن بعدَ ذهابِي

★

تحية حب لبغداد :

أرسلها الشاعر نزار قباني بعيد انبثاق فجر ثورة ١٤ تموز التي أردناها للحرية ، وتوحيد الكلمة لتقضي على الاستبداد والاستغلال وتعيد الى العراق كرامته ، ولتجعل منه قوة لأمته العربيّة .

باسْمِ مليون عراقي قتلته
بيدَيْك
ورغيف منفم الشعبسرقته
باسم شعب
باسم حلفٍ بدم الشعب كتبته
وانتهى
عربيٍّ الوجه للأحلاف بعته
ياحذاء الضَّرْب
لا رحمة الله عليه
أو عليك
للشَّيْطان بِعْته
باسم رب انكليزي عبدته
وضمير ما عرفته
باسم آلاف المقاصل
وضرعات الثكالى
والحوامل

باسم شعبٍ
طيّب كالطفل بالنّار حكمتِه
باسم مــن شردتــه
مـن أصدقـائي أو صلبتـه
في سبيـل الكلمـة
أبـداً ليس تموت الكلمـة
هي خبز الطيبين وضريح الظالمين
باسم بغداد الحبيبـة
مرفأ الأنـجم . . . والفيروز
شلال العذوبـة
باسمها . . . من كتبت أول حرف في العروبةْ
وآلاف العباءات مظلات الرطوبة
باسم أمي باسم أختي
باسم أحزان السنين الماضيه
باسم أحداق الصغـار الصـافيـه
باسمهـم ياطاغيـه .
أيهـا الجاعـل من « رومـا » ثانيَـهْ
باسم من ماتـوا على أرض «العراق»
من رفـاقي
في سبيـل القـافيـة أتكلم
صار في إمكاننا أن نتكلـم
ياعميل الليل والإرهـاب والـدم
صـار في قدرتنا أن نـتَـبسّـمْ
نحن في قصرك في ساحاتـه

لهب غـنّى... وبركانٌ تضرَّمْ
ياحـذاء الغـرب يادميتـه
بيننا ألف حسابٍ سوفَ
يُحْسَمْ
هـذه « بغـداد » . . . ياباـئعها
رَجَعَتْ
أشهـى من الحلم وأكـرم
كلّ جـرح ولـه ميعـادُهُ
يلعـق الجرحُ ولكـن ليس يفطم
مـا كرِهنـا الظلم ماضقنـا بـه
يصبـح الشعبُ إلهاً حين يظلـم
رَبُّنـا مـاتَ قتلنـا رَبَّنـا
ورمينـاه الى قعرِ جهنّمْ
كان ربّاً تافهاً من ورق
كان مِسْخاً ، كان أعمى
كان أبكَمْ
كان رَبّاً أجنبيّاً
ربُّنـا . . .
كان في إنكلترا
يُسقى ويطعـم
كل ربّ أجنبي صُنْعُـهُ
سوف يلقى حَتْفَـهُ
سوفَ يُحَطَّمْ (١)

(١) مجلة الآداب ، جزء خاص .

تحية الشعر :

للشاعر حافظ جميل :

أضيافَ (بغدادَ) هذا وجه (بغدادِ)
صحائفٌ من بطولاتٍ وأمجـــادِ

ما حبَّرَ الدَّهرُ تاريخاً كأسْطُرِها
في لـوحِ خُلـدٍ ولا في سِفْـرِ آبادِ

في كلِّ صدرِ كتابٍ من روائعها
يُتلى ، وفي كل ثغرٍ حلْـوُ إنشادِ

هاتوا الصحائفَ من عزٍّ ومن حَسَب
إن كنَّ أندادَها أو شبهَ أندادِ

إرثُ العباقرة الأفذاذ ، إنْ وقفوا
بينَ الجبابر كانوا شُمَّ أطوادِ

مآثرُ الخلفاءِ الغُرِّ ، ما تركوا
لسادة الأرضِ رأساً غيرَ مُنْآدِ

السّالكينَ طريق النَّصْرِ ، ماوَهَنُوا
من طُولِ مرحلةٍ أو بُعْدِ آمادِ

الرّافعين لواءَ الحقِّ ، ما فترت
سيوفُهم بين إشهار وإغمـادِ

ما شأنُهم ويمين اللهِ تُسنِدهم
أن يشركوا السَّيفَ في دعمٍ وإسنادِ

تبارتِ البيض والأقلام ، فانطلقت
لم يَثْنِها طولُ آفاقٍ وأبعـادِ

إذا نبا السيف في زيغ يقوّمه
سلّ اليراع عليه سيفَ جلادِ

وحكمةُ السيف في زجرٍ وفي رَهَبٍ
كحكمةِ الله في وعدٍ وإيعادِ

تبقى العقائدُ تستوحي شَجاعتَها
من غِيلِ أفئدةٍ لاغِيلِ آسادِ

والحربُ ساحةُ آراء وفلسفةٍ
طلائعُ الحقّ فيها خيرُ أجنادِ

وما الحضارة إلا كَدُّ أدمغةٍ
وقدرة العقل في خلق وإيجادِ

وثروة الفكر طاقات نفجّرُها
في غيرِ مصنعِ بارودٍ وفولاذِ

لم تحتضن غيرَ أقلام وألسنة
مُشَهَّرات لتهذيب وإرشادِ

ما أعجزَ السّيفَ حسنُ الرأي يُعْوِزُهُ !
وما أضَلَّ السُّرى من غيرِ ما هادِ !

رَبُّ البطولة خلف الطِرس مقعدُهُ
لافوقَ « بارجةٍ » أو فوقَ « طَرّادِ »

لولا المخلَّدُ من شعرٍ ومن أدبٍ
أخنى الزّمانُ على ذكر (ابن شدّادِ)

حسبُ اليراعةِ أن تسقى إذا ظمئت
من جَوْفِ مَحْبَرَةٍ ، لاجوفِ أكبادِ

وما الحُسامُ بلا دينٍ ولا خُلُقٍ
إلا النّهاية في كفرٍ وإلْحادِ

من زيّفَ الحقّ إلا غِشُّ أنظمةٍ
واستعبدَ النّاسَ إلا ظلمُ أفرادِ ؟

ومن قضى أن يكونَ البعضُ آلهــةً
وأن يَـظَـلَّ سِـواهــم محض عُبّادِ ؟
هاتوا العبيدَ أُقَطِّـع ْ كَفَّهُم ْ قُبَلاً
ولا أصافحُ كَـفَّ الظّالمِ العادي
أهْي الكرامـةُ في جاهٍ وفي نسبٍ
وليس في عملٍ مُـضْنٍ وإجهادِ ؟
وَلى الّذي كان إنْ غنّى بمَحْتِده
خلّى الورى بيـنَ عشّاقٍ وحُسّادِ
فما رفيقـك في جَـهْـد وفي عملٍ
إلّا شريـكك في بُـؤْسٍ وإسعادِ
أيحسَـبُ الجَشِعُ المنهومُ أنّ لـه
ديناً بذمّـةِ هـذا الجائعِ الصّادي؟
وأن يعيشَ أخو اللذّاتِ في رَغَـد
والكادحونَ بلا مأوىً ولا زادِ
بِئس الشّعارُ شعارُ العدلِ يرفعُـهُ
باغٍ يعيشُ على مجهودِ أنكادِ

•

أضيافَ (بغداد) ، أوْجَزْتُم ْ زيارَتَكُم ْ
عِدُوا بطُولِ زياراتٍ وتَرْدادِ
طُوفوا بـ (بغدادَ) لايُلْهِبْ مشاعرَكُم ْ
ما شاقكم من حديث الرّائح الغادي
واستعرضوا وجهَ ماضيها وحاضرها
بما شَهِدتم ، وكُونوا خيرَ أشهادِ
(بغدادُ) هذي ، أمِ الدُّنيا وما شهدت
مواكبُ الفتحِ من عُرسٍ وأعيادِ ؟

(بغدادُ) هذي، أَم الفِرْدَوْسُ ناشرةً
أعلامها بين مُفْتَرٍّ وَميّادِ ؟
(بغدادُ) هذي ، ومن أولى بتكرمةٍ
منها طَوالَ المدى ، أم عيد ميلادِ ؟
وتلك (دجلةُ) ، أَمْ عذراءُ حالمةٌ
تُضاحك النَّجْمَ عن فِضّيِّ أبرادِ ؟
جَرَّتْ على صفحة الوادي مَطارِفَها
فسحسح الخير يسقي ساكنَ الوادي
كأنّها وجَناحُ النَّخْلِ يحضُنُها
فجرٌ تلألأ في أكنافِ أورادِ
ساحت على القَفْر فاخْضَرَّتْ جوانبه
فالنّاسُ ما بينَ رُوّادٍ ووُرّادِ
من قَيَّضَ السحرَ (للمنصور) فانتفضت
كفّاهُ عن كوكبٍ في الأرض وَقّادِ؟
ومن أحالَ كثيبَ الرَّمْلِ زنبقةً
تُناظرُ الشَّمْسَ في حُسنٍ وآرادِ؟

★

في مهرجان الشعر :

للشاعر خالد الشواف :

عوجوا على عُدوة الوادي نُبَشِّرُهُ
فمنبرُ الشّعر في (بغدادَ) منبرُهُ
قولوا لِـ (عبقر) : هذا المهرجانُ له
فالشعرُ من عنصر في المرج عنصرُهُ
أعياده اليومَ عادت بعدما طُويت
حيناً من الدهر أغفى فيه مِزْهَرُهُ

تلمَّسَ الوترَ الغافي فنَبَّهَهُ
وراح بالسَّلْسَل الصّافي يُفجِّرُهُ
بقيّة من بنيه ، فهو يُؤثِرُها
بمعجزات القوافي وَهْيَ تُؤْثِرُهُ
قامت مَهارِجُها بالأمس فانتظمت
في (الشّام) كالعِقد يسنى فيه جوهرُهُ
وجاءتِ الطَّيْرُ تشدو في خمائله
وحطّتِ الوُرْقُ تُصْبِيه وتَبْهَرُهُ
ومال بالحمر من ترجيعها (بَرَدى)
فكلُّ قافية صهباءُ تُسْكِرُهُ
حتّى إذا نَعَقَت في الأَيك أغربةٌ
رأيت أطياره والوُرْقَ تهجُرُهُ
وأقفر الرّوض من طيرٍ يُساجِعه
وصوَّحَ الغصنُ من زهرٍ يعطّرُهُ
وعاد ما كان يُصبي الليل من نغم
هذا النشيج الذي دمعاً يُقَطِّرُهُ
وأرهف الليل في (بغداد) مِسْمَعَهُ
والوِتْرُ يومي له ، والثّأر ينظُرُهُ
فأطلعَ الشَّمْسَ ، شمسَ الغيظ ، صاعقةً
هوت على (هُبَلٍ) صبحاً تُدَمِّرُهُ
حتى إذا عاد ليلٌ رائقٌ ألِقٌ
يسامر النّجمَ فيه مَنْ يُنَوِّرُهُ
نادى بِ (بغدادَ) : هاكِ الشعر ، فاحتفلي
كما يموج به في البيد عبقرُهُ

فطافَ بالنَّهر حُلمٌ من (رُصافته)
ومن عُيون المَها والجسْرُ يسهرُهُ

ومن مجالسَ بالسُّمّار حالية
في (الكَرْخِ)، والفجرُ يدعوها فتَنْهرُهُ

وطافَ بالنَّهْر حُلْمٌ من هَوىً عبقٍ
ضاعت به قافياتُ الشّعر تنشرُهُ

كأنّ صاحبَ (فَوْزٍ) حينَ أرسلها
أزجى بقلبٍ ، قوافيهِ تُؤَطِّرُهُ

وطاف بالنهر مفتونٌ يذوب جوًى
بـ (عُتْبَةٍ) ، وَهْيَ تجفوه وتهجرُهُ

وما تنكّرَ للدّنيا وبهجتها
لو لم تكن (عتبة) دنياه تُنكِرُهُ

وطاف بالنّهر غصن غير منقصف
وإن يكن دقّ واستوفى مخصّرُهُ

بينا يتيه دلالاً ينثني مرحاً
إذا (صريعُ الغواني) قام يهصرُهُ

وطاف بالنّهر كَرْمٌ عندَ منقطع
في (دير كُلواذَ) تجنيه ويعصرُهُ

فإنْ أفاق النّدامَى من مُعَتَّقه
مالَ (ابنُ هاني) وَتلَّ الزّقَّ ينحرُهُ

وطاف (هارون) ، والدُّنيا تطوف به
في موكبٍ يَبْهَرُ التّاريخَ منظرُهُ

يسعى إلى (البيت) أو يغزو ، تحف به
راياته ومواضيهِ وعسكرُهُ

يُعشي السَّماءَ بريقٌ من سوابغه
وبيضِهِ ، وترجُّ الأرضَ ضُمَّرُهُ
فإن سعى ، فندَى كفَّيْهِ مستبق
إلى (العتيق) ، وخوفُ اللهِ يعمرُهُ
وإن غزا ، فالحتوف السُّودُ تَسْبِقُهُ
إلى العِدا ، والفتوحُ البيضُ تحضرُهُ
أو عاد ، فالبُشْرَيات الغُرُّ سابقة
بالنّصرِ يخفق تَيّاهاً مؤزَّرُهُ
وإن أقام ، أقام الشّعر محفله
وبادر (المَوْصِليُّ) العُودَ يُوتِرُهُ
وأقبلت طُرَفُ الأعرابِ لائذةً
بِـ (الأصمعيّ) تسلّيهِ وتسحَرُهُ
ولألأت حكمة الدُّنيا بمجلسه
من أنجمٍ عبقريّاتٍ تُنَوِّرُهُ
سَلِ الغمامةَ ، إذْ ضَنَّت بمُزْنَتِها :
أأبصرت غيرَهُ في الأرض تُمطِرُهُ ؟
وسل (زبيدةَ) عن (هارونَ) معتكفاً
يتلو الكتاب : ألم يَخْضَلَّ مِئزَرُهُ ؟
خليفة الله . . عُرس الدّهْر مُدّتُهُ ،
لم يُعرِسِ الدّهْر (كِسْراهُ) و (قيصرُهُ)
وأخذُ النَّهْرَ من أحلامه سِنَةٌ
ويَرجعُ الليلَ بالأحلام يغمرُهُ
ويُرْجِف الماءَ صوتٌ من (عَمُّورِيَّة)
لبّى نَجيدُ (بني العبّاس) يُثْئِرُهُ

فكانَ للخيل في الميدان عِشْيَرُها
عندَ اللقاءِ ، وللطّائيِّ عِشْيَرُهُ
وانسابَ والموجُ لحنٌ هاجَ غيرتَهُ
يُغازِلُ (البِرْكَةَ الحسناءَ) مِزْهَرُهُ
وكاد يَعتِبُ لولا أنْ بكى حَزَناً
(للجَعْفريّ) عشاء ارتاع َجُؤْذَرُهُ
ويرهص النَّهْر بالبشرى ، وقد أَزِفت
نُبُوءَةُ الشِعْرِ إرهاصاً يحيّرُهُ
أُحِسُّهُ عند حوضي قائماً،وله
حوض سواي يرويّه ويُصْدِرُهُ . .
ما للشَّقيق (الفراتِ) العَذْب مكتتماً
أمراً بشَطّيْهِ يُخْفيهِ ويُضْمِرُهُ ؟
وتسبق (الكوفة) السَّمْراء ضَرّتَها
وتُهْرَعُ الجِنّ للوادي تبشّرُهُ
فقد أطَلّ على الدّنيا ليملأها
ويشغَلَ النّاسَ بادي الوجه أسمرُهُ
وترقص (الخيل) عاصيها وطَيّعُها
ويضحك (الليل) داجيهِ ومُقْمِرُهُ
وتهزج (البِيد) حاديها وأينُقُها
ويكتسي (الشّعب) أفوافاً تُنَضّرُهُ
وترقُبُ (الحَدَثُ الحمراء) معجزة
إذا الرَّدى هَدَرت بالموج أبحرُهُ
ويستحيل أسىً (بغدادَ) مفخرة
وقد رأت (حلب الشّهباء) تُكْبِرُهُ
وتستطيلُ على الدّنيا به (حَلَبٌ)
وبالّذي ألهمَ الإعجازَ مفخَرُهُ

سيفـان : هذا (بنو حمـدان) تشهـره

على الأعادي ، وذاك (الشّعْـرُ) يشهرُهُ

يا مودعَ الحكمة العليا شواردَهُ !

نَـمْ مِـلْءَ جَـفْـنَـيْكَ . نحنُ الليلَ نسهرُهُ

ويفغم الشّـطَّ من أرضِ الحجاز هَـوًى

مُـهَـذَّبُ البَـثّ ، صافيهِ ، معـطّرُهُ

تضوع ريح الخُـزامَى وَهْـيَ تحمـلُـهُ

عن (الرّضيّ) ، وتَـنْـدَى وَهْـيَ تنشرُهُ

ويحلم النّـهْـرُ . . حتّى الفجر ، مُـدَّكِـراً

ويقبل الصّبْـحُ ، مَـزْهُـوّاً ، يذكّـرُهُ

اليوم . . يوم القوافي . . فاستعِـدَّ لـه

ويمسح النّـهْـرُ جَـفْـنَـيْـهِ ، ويذكُرُهُ

*

أهـلاً ، وفودَ القوافي ، في (مُـدَوَّرَة)

يُـطْـوَى القريضُ فتُـحْـيِـيهِ وتنشرُهُ

لا يظمأُ الشّـعْـرُ في أرضٍ ويقصدها

إلّا ويُـرْويـه في (بغدادَ) كَـوثَـرُهُ

فالشّعرُ (دِجْـلَـتُـنا) السّـلْسالُ موردُهُ

والشّـعْـرُ (دِجْلَتُنا) المختالُ مَـصْـدَرُهُ

يا إخوةَ الشّـعْـر . . هل تمّت مناسكه

وثَـمَّ (كعبتُـهُ) الأولى و(مَـشْـعَرُهُ) ؟

وَثَـمةَ (الحُـرَمُ) اللائي يراد لهـا

أن تستبـاح ، وبيتٌ كان يخـفـرُهُ ؟

اليومَ ، والقَـدَرُ الأعلى يُـهيب بـه

لـوحدة ، وجـلالُ الصّوْت يغمُـرُهُ

تفيض بالدّعْـوة المُـثْلَى مقـاطِـعُهُ

وبالجـهـادِ قـوافِـيـهِ وأبحـرُهُ

آعراس بغداد :

للشاعر نعمان ماهر الكنعاني :

أَقبِلَ الضّادُ بآمال اللقـــاء
فالْبَسِي (بغدادُ) ثوبَ الخُيَلاء
وارفعي الفجرَ خِياماً ، فلقد
جاءك الرَّكْبُ بمرفوع اللواء
واسمعي العلياءَ في موكبها
تحمِلُ الشَّوْق على راح الحُداء
سعت الرّيح به مزهُوَّةً
تنظُرُ البِيدَ بعينِ الغُلَواء
لم يعد للبيد عِيسٌ ومدى
يسألانِ الشِّعْرَ عن ظِلٍّ وماء
غلب الجوّ على أطلاحها
بنُسُور أدركت سِرَّ الفضاء
لا الوَجَى يقرب من أخفافها
لا ، ولا تعرِفُ ماكَدُّ الحَفاء
وإذا النَّوْءُ دهاها صَرْصَراً
خفقتهُ بجَناحٍ من دَهاء
وإذا طال السُّرَى طالت لها
صولة تَطْوِي السُّرى طَيَّ الرِّداء
أعفت الشّاعر من أوصافها
ما كثيبُ الرَّمْل ، ما وَحْشُ الظِباء ؟
لو درى عنها (عُكاظٌ) خبراً
قال : مَهْلاً يادعاوى الشّعراء

واذكُرُوا لي غيرَ ماجوّدتُمُ
وصِفُوا لي كيف أرجاءُ السّماء
أو سَلُوا (بغدادَ) عن موسمها
فلقد أَلْوَى بأيّامِ احتفائي
ما أراني غير تَلْماح سهى
عارضَ الشّمسَ ، ودفّاق الضّياء

*

إيهِ (بغداد) ، وقد هَزّ اللقا
ألف سرّ ضاقَ دهراً بالخباء
هاهُمُ فيك كما شئتِ ، وما
حُلُمُ المجد بأيّام وِضاء ؟
هاهُمُ في حلبة الشّوق وفي
كُلّ صدرٍ نشوةٌ من كبرياء
حملوا أُمّ اللغى مكسوةً
من سنا الإيمانِ من عَرْف الإباء
تتهادى بين رأي طالع
طلعةَ النَّصْر وعزمِ الإنتخاء
نتساقاها رَحيقاً كلّما
أَوْمَأَتْ يوماً بكأس الخُلَصاء
فسلي الأيّامَ عن تَسْكابها
والليالي باخلاتٌ بالسّقاء
هل نأت حوضاً وجفّت منبعاً ؟
لا ومن نادى بها صادى حِراء ؟
هيَ نجوى الله فينا ، وَهْيَ في
صلّوات الكونِ ملهوف الدُّعاء

تمحَلُ الدّنيا ومن سَلْسالها
تكتسي الدُّنيا بأبرادِ العطاءِ
أيّ سّرٍ إن تقصّيت سوى
سِرِّها المحجوب في نور البقاءِ
ضمّت (الخُلْد) فإن مُنيّتَه
ناشد (الفُرْقان) آياً للرَّجاءِ
واسْلُ منه معجزاً إلّا لها
تَرَ ما أهونَ مجدَ الحكماءِ
يا تعالت سورٌ كم شامَها
شامخُ الفكر فخليّ للغَباءِ
وَهيَ بنت الوَحْيِ إمّا فُصّلَتْ ،
وَهْيَ أمُّ الوَحْيِ عندَ الاجتلاءِ
هاهُم كم قَبَسُوا من لمحها
جذوةَ النّصْرِ وآلاءَ العلاءِ

•

جَلَّ شأنُ الضّاد ! كم وقّى الحمى
حيثُ لا مِنْ داريٍ أو من وِقاء !
كلّما جاشَ عداةٌ نحوَنا
صرخَ (الضّادُ) بجيّاشِ العداءِ
وأثار النَّخْوَةَ الكُبرى على
طالعِ الزّخْمِ وصَخّابِ البلاءِ
وتلاها سُوراً باعثةً
راقد العزم فلبّى للفناء
فإذا العِثْيَرُ زهوٌ وشذاً
وإذا العيشُ اغتباطُ الشُّهداءِ

وإذا الآمــالُ في أطيــافــهــا
حـومــةٌ تسـألُ عـن درب الفِــداءِ
إنّـهـا (الفُــصْحَـى) ، وهــذا عـهـدهـا
جَـلَّ عـن مَـيـن وخَـتْـلٍ ورياءِ
نسبٌ مـارَتَّ يـومـاً ، أو ســـــلا
رَحِـمـاً في حـالِ جَـهْـدٍ أو عناءِ
آهـةُ (الفُـسْطاطِ) إنْ فـاه بـهــا
أسمعت (كُـوفانَ) صوتَ البُرَحاءِ
ورُبا (صنعاء) إن جفّـت ، سعت
نحـوَهـا (وهرانُ) بالوَبْـلِ الزَّكاءِ
نسبُ (الفُـصْحَى) ، ومـا غـاظَ العدا
غيرُهُ في يـومِ عُـسْرٍ أو رخـاءِ

★

الى اهل المربد :

للدكتور نوري حمودي القيسي :

أ (بغدادُ) ! مـاعـزّت عـلـيـك المفاخرُ
ولا روّعـتـنــا في حِـمـاكِ القـواهـرُ
ولا ضـاق يـومـاً في رؤاك مسـامــرٌ
تـنـاهـت الى سمعيـه منكِ مـآثــرُ
ولا كابـدُ الشَّوْقَ المبرِّحَ عـاشـقٌ
بسحـر ليـاليـك الحسـانِ يـجـاهرُ
ولا سكـنـت عـنـدَ الصَّبـاحِ خـوافـقٌ
بـهــا كُـلُّ مـوصـولِ التّـجـار يـناظرُ
ولا ازدهـرتْ إلّا بعـزّك نـفـحــةٌ
مـكارمُـهـا عـنـدَ الـنـزّال بـشـائــرُ

عشقناك عشقَ الوالهين أعِزَّةً
ورُحنا بما تطوي الليالي نحاورُ

*

أ (بغدادُ) ! والأبناءُ شدُّوا رحالهم
الى كُلِّ وادٍ ، والرُّبُوعُ زواهِرُ
يُغنُّون عُرسَ النصر زهوَ قصائد
ويروون أيّاماً بها العزُّ غامرُ
طَوَوْا في هواك الدَّرْبَ كلَّ حكاية
تذوبُ عليها من رؤاك خواطرُ
وفي كُلِّ ركْبٍ تستفيقُ مَلاحمٌ
وفي كلِّ عين تستطابُ نواضرُ
مشوا والهوى يَخْتَضرُّ عند خُطاهُمُ
وصوت اللقا تلوى اليه المحاجرُ
يشقُّون دربَ الليل تعلو وجوههم
لحاظ ليالٍ في رُباكِ سواحرُ

*

أ (بغدادُ) ! حَلَّ العاشقون رحابنا
تشدُّهم عند الدِّيار أواصرُ
يطوفون دربَ (الكرخ) وَالْهَى وقد مشتْ
على خطوات (الجسر) منهم حرائرُ
يجوبون دربَ (الأحنف) الشهم والهوى
على كُلِّ ثغر من لياليك حاضرُ
وضاقت على أنصارهم كُلُّ حيلةٍ
ودارت عليهم باليمين الدَّوائرُ

فكانت لهم سُودُ الصَّحائف صورةً
يجدِّدُها منهم دَعيٌّ وغادرُ

*

هواك هوى كُلِّ الأحبةِ إن زها
وعزُّك يومَ الرَّوْعِ صِيدٌ كواسرُ
مشى ظالماً يبغي حِماكَ مُضلِّلٌ
ينوء به حظٌّ من اليأس عاثرُ
فساق الى الموت الزُّؤام سوائماً
تضيقُ بها عند اللقاء «المشاور»
وتعلَمُ أنّ الموت حتفٌ مُقَدَّرٌ
وأنّ الذي تخشاهُ لابُدَّ صائرُ
وتعلَمُ أنّ الموت يطوي زحوفها
إذا حانَ حَيْنٌ ، أو تحامت مساعرُ
يُمَنّي بها نفساً طوى الغدرُ ذُلَّها
ويأمُلُ حُلماً أثقلتهُ الجرائرُ
فكانَ على حدٍّ (العراق) فناؤها
مُرَوِّعها سُمرُ القنا والهواجرُ
وتتركهم نهباً لكل طريدةٍ
تعيث بهم كفُّ الرَّدَى وتعاورُ
وتنشرهم في كُلِّ وادٍ أذِلَّةً
جوانبهم لاالمتقي والخواصرُ

*

أ (بغدادُ) ! عادت من لياليك ومضةُ
بها كُلُّ ميمونِ النَّقيبةِ ظافرُ

حبتك يدُ (المنصور) نصراً مؤزَراً
وعـَزّت بـ (صَـدام) ليالٍ سوافرُ
يباركُـهـا صـوتُ البطولةِ إن مشى
ويُـسعدها بالنَّـصْـر إن جـار جائرُ
ويَـحسِمُ إن عزَّ الفـدا صـولـة الوغى
بكـفٍّ براهـا ناصرُ الحـقِّ قـادرُ
بـه تستعادُ الذّكريات عـزيـزة
وأيّامـهُ بـالعـزّ غُـرٌّ حـرائـرُ
تذكرهم («فوزَ» العراق) عيونهـا
ويُـسلمهم (جذمرَ) من الشَّوْق حائرُ
جبن الهـوى من كُـلِّ ربع مُـحبَّـبٍ
وطفـنَ بـه عند اللقـا وَهْـوَ سـادرُ
و (دجلـة) في سِفْـر الزّمان حكاية
لهـا أوَّلٌ يـروى ومـاجَـدٌ آخِـرُ

*

أ (بغـدادُ) دارَ الاكرمين ، ولـم نـزل
بعـزّ بنيـك الأكـرمين نـكاثـرُ
على جانِبَـيْ مجـديك رفّتْ نواظرٌ
ورقّ عـلى (جَسْرِ الرُّصافة) ناظرُ
وعـاشت على رقراق (دجلة) بسمـةٌ
تطوفُ بها من رَقَتَيْـكِ المشاعرُ
تهدهدهـا عيـن المهـا وَهْـيَ صبـوةٌ
وَيأْمرُها صوتُ الهوى وَهْـوَ صابِرُ
وتنشُرُها زَهْـواً على (الكَرخِ) مُقْلَةٌ
بها من رُؤًى ماضيكِ ترقى أواصِرُ

فتغفو على حكم الليالي مكارمٌ
وتحنو لعصر الخالدين البصائرُ
على كُلِّ دربٍ من حماكِ حكاية
وفي كُلِّ قلبٍ من هواك مشاعرُ

*

يمُرُّ بك التّاريخ (بغدادُ) حائراً
بأيّ غوالي الحادثات يُحاورُ
ومن أيِّ عزٍ يرتجيك مُحَدِّثٌ
ومن أيّ زهوٍ يبتديكِ المبادرُ
تباركتِ أرضَ الله سيدةَ الدّنا
ودارَ سلامٍ لايَريبُك جائرُ
تعالى بك (المنصور) صوتاً على المدى
فكانَ له من عزّ مجدَيْكِ ناصرُ
وشيدتْ بأيّام (الرّشيدِ) مآثرٌ
أوائلها لاتلتقي والأواخرُ
بها جُذَّ أصلُ (البرمكيّين) بعدما
تمادى بفضل الأوفياء (الأكاسرُ)
يُشدُّ بها عزمُ الرِّجال ويحتمي
بقبضتها يومَ النّزال النّوافرُ
بكل فتىً تهفو المنايا اذا رمى
وتعلو به عند الفخار المآثرُ
بهم ترتجى عندَ الشّدائد صولةٌ
ويعنو لهم هولُ الرّدَى وَهْوَ صاغرُ .

*

أ (بغدادُ) ! ياعِزَّ الليالي ، ألتَقي
فـفيك من الشَّوقِ الدَّفين زَواخِرُ
ذُرا المجد في فخرَيْك تروي ملاحمٌ
وعزّ المُنى في معْصَمَيْك أساورُ

★

بغــداد :

للشاعر سليم الزركلي :

أحقّاً ترى (بغدادَ) ، أمْ أنت حالمُ ؟
و (بغدادُ) ، ياقلبي ، الهوى والمعالمُ
معالمُ أمجادٍ ، ودنيا حضارةٍ
أضاءَ بها دهرُ العلا ، والمحارمُ
تغنيّتُ ، والبيداءُ تفصِلُ بيننا ،
فهات ، وأنت اليومَ جذلانُ ناعمُ
أدِرْها كؤوساً ، بارك الله نفحها
من الوُدّ ، والأمشاجُ نَشْوَى تناغمُ
فكم لك في أظلالها من مَناعمٍ !
وكم طاب في الذِّكْرَى هَوىً ومناعمُ !
أناجيك ، ياأمَّ المدائن ، والرُّؤى
تَهشُّ لها أرواحُنا والمباسمُ
رُؤىً في طريق المجد تُزْهَى روائعاً
وخيرُ جديدٍ ما بنته العزائمُ
وأرجع للماضي ، فأسجد خاشعاً
وحُقَّ لماضيك الرُّقَى والتمائمُ
زمانَ شدا بالشِّعْر في كل منبر
أخو (عبقر) ، والشِّعرُ بالمجد هائمُ

وغنّى هَزارُ الشِّعْرِ في كلِّ روضة
وطرّبتِ الأفلاكَ فيها الحمائمُ
وطَوَّفَ في سُوح الفتوحات أعصر
تُساق إلى جنّاتهنّ الغمائمُ
ودنياك – يا (بغداد) – والدّهرُ طيّعٌ
تَشيدُ وتَبْني ، والحظوظُ كرائم

*

أ (بغدادُ) ! عُرْسٌ في رِحابك قائمٌ
وهذي بناتُ الفكر فيك نواظمُ
تحيّيك ، والآمالُ خفق حروفها
وتُنشد للأزمات ، والرُّوحُ باسمُ
وترقُبُ للفجر الأنيقِ مطالعاً
بِهِنَّ فُصولٌ للعُلا ومواسمٌ
عسى يلتقي ماضٍ وآتٍ ، فتشتفي
قلوبٌ لها خلفَ الضّلوع مآتمُ
تَحَيَّفها جورُ الحوادثِ ، فانبرت
تُصارع أفواجَ الأذى وتخاصمُ
وتستصرخ الدُّنيا : لعلّ فيالقاً
تحسّ ، فتشتاق الصيّالَ صَوارِمُ
أضاعت على الأقصى عهود كرامة
وهيهات أن يُنْسَى الأسى والمظالمُ
وللوجدِ في أحناثهنّ مجامرٌ
ومَنْ لعميدٍ أثقلته المغارِمُ ؟

*

نشدتك للوُدّ القديم ، وللهوى
وبين ضُلُوعي من هواك عوالمُ
أدغدغها ، والفجرُ بعد ملثّمٌ
وأوقظها والذكرياتُ حوالمُ
و (دجلةُ) يَسْري ، والنّخيلَ مُهوّمٌ
وللسِّحر في أعطافهنّ نَواسمُ
وفوقَ خدودِ النّهر راقص شعلة
خواطرُها تحتَ العُبابِ بواسمُ
وقلبيَ ، في أشواقه ، نِضْوُ صَبْوَتي
وهَلْ تستريح الطَّيرُ ، وَهْيَ جوائم ؟
تحيَّةُ أعراق وعِطرُ أواصرٍ
أُسَقّيكِ ، يا (بغداد) ،والوجدُ عارمُ
ففي (بردى) و (الغوطتين) مشاعرٌ
تَرِفُّ ، فما تقوى عليها السَّمائمُ
تحنّ لأيام خلتْ من عهودها
وأنتِ نَجاواها ، وأنت الدّعائمُ
وليس سبيلَ الحُبّ هجرٌ وفرقة
وليس شِعارَ الأكرمينَ سَخائمُ
هَبِي للعلا دهراً يضوع أريجه
تَطِيبُ به أجيالُنا والعواصمُ
وخَلّي الجوى يَحْرِقْ كُبُودَ عواذلٍ
وتُشْرق بالغيظ الدّفين نوائمُ
ونحن على حال من الوُدّ تستقي
نوافحه أنجادُنا والتّهائمُ

فقــد تعـظُـمُ الأشيـاء ، وهي صغـائرٌ
وقـد تـصغـُـرُ الأَرْزاء وَهـْيَ عظـائمُ
ومـا الحـزمُ إلاّ أن نضُـمَّ شتاتَـنـا
فتَـسْـعَـدَ أوطـانٌ بنــا ومشـائـمُ

★

الى بغــداد :

للشاعر احمد رامي :

في هوى (بابلٍ) وحـُبّ (النُّـواسِـي)
جئتُ أَسْرِي على هـُـدَى إحساسي
أملأ العينَ من مباهـجِ (بغــدا
د) ، وأسعى إلى حـِمى (العبّـاسِ)
وأرى (دجلـة) الّـذي فـاض بالخيـ
ـر عليهــا ، ومـاج بالإينـــاسِ
ورفـاقـاً إلى فـــؤادي أحبّــــا
ءَ ، على العين وُدُّهـُمْ والـرّاسِ
جمعتـني بهـم ديـاري ، فكانـوا
في مَـراح الصِّـبـا أعـزَّ النّـاسِ
فيـهـمُ حـافـظُ الجميـلِ ، وفيـهـم
صادح فـوقَ غـُصْـنِـه الميّـــاسِ
ذاك يلقـى البيان سحـراً ، وهـذا
يَـزِنُ المشجيــات بالقِـسطـــاسِ
لم أزركم مـن قبـلِ هـذي ، ولـكـنْ
سبقتني إليـكُـمُ أنـفـاسـي
رَدَّدَتْـهـا صـدّاحـةُ الشرق أنغــا
مـاً عـِـذاباً نـديّــةَ الأَجْـراسِ

هيَ قلبي يذوب في اللحن وَجْداً
ودموعي تجرَتْ على قِرطاسي
أنا أودعتها حنيني إلى (بغـ
ـدّاد) ، في عهدها الجليل الماسي
حيث (هارون) في سَنيّ علاه
سيّد الشَّرْق في النَّدَى والباسِ
و (دنانير) في المقاصير تشدو
بالنَّسيب الشَّهيّ من (عبّاسٍ)
والجواري يُرْسِلْنَ وسوسةَ الحَـ
ـلْي ، ويرفُلْنَ في بَهيّ اللباسِ
يتهادين في الغلائل أطيـا
فاً تراءى لسابح في نُعاسِ
ويُرَدّدْنَ ساحراتِ الأغاريـ
ـد على وَقع مِزْهَرٍ ونُحاسِ
هنّ في الرَّوْض بلبلٌ يبعث الشَّجْـ
ـوَ ، وفي الخِدْرِ شادِنٌ في كِناسِ
إيهِ (بغداد) ، والليالي كتابٌ
ضَمّ أفراحنا ، وضَمّ المآسي
عَبَثَ الدَّهْرُ في بساتينك الغَنّا
ء ، والدَّهْرُ حينَ يعبَثُ قاسِ
ودهاكِ (المغُولُ) بالطّلعة النّكْـ
ـراء يبغون قطفَ ذاك الغِراسِ
فتصدَّيْتِ للغزاة ، وجابهـ
ـتِ أذاهُمْ مثلَ الجبال الرواسي

ثُمَّ نافحتِ عن حِمَى الحق والشَّرْ
قِ ، وأصبحتِ شعلة النِّبْراسِ
يقبس القابسونَ منكِ سَنا العِلْـ
ـمِ ، فَتُعْطِيهُمُ بلا مقياسِ
وتُديرين في الوجود مَناراً
ثابتَ الرُّكْنِ مُسْتَقِرَّ الأواسي

*

يا بني العمِّ ! آنَ أن نجمع الشَّمْـ
ـلَ ، ونبني على متين الأساسِ
فاصنَعُوا المعجزات من عزمنا الما
ضي ، ومن صبرنا وطُول المِراسِ
وصِلُوا واستقلّوا سفين النَّـ
ـصْر نبلُغْ بها أمينَ المَراسي
ثم نعلي للعُرْب أعلام مجدٍ
ونحيي معالمَ الأعراسِ
وأنا بينكُمْ أردّدُ شعري
وعلى ذِكْرِكُمْ أُشَعْشِعُ كاسي !

★

ليلي :

للشاعر صالح جودت

وحقّ الّذي عقدَ الآصِرهْ
ووحّد (بغدادَ) و(القاهرهْ)
دعاني إليكم بني (الرّافديْـ
ـن) حنينٌ لكأسهما العاطرهْ

ويا طالما كان حلمي (العراق)
وأمنيتي هذه الحاضره
فلمّا قضاها لي المهرجان
رَكِبْتُ لها الفرحة الطّائره
أسائل : أين ليالي (الرّشيد) ؟
وأينَ ملاعبُهُ الزّاهِرَهْ ؟
وأين النّدامى ؟ وأين العبيـ
ـدُ يطوفون بالكأس والنّادره ؟
وأين (زبيدةُ) فوقَ البساط
تجرّرُ أذيالهَا الفاخره ؟
وأين (دنانيرُ) في سحرها
كأنّي بها (سُومة القاهره)؟
وأين الجواري يَلِدْنَ الفُتونَ
ويُرْقِصْنَها كالمَها النّافره
وهن المدافىء في الزّمْهَرير
وهنّ المراوحُ في الهاجِرَهْ

*

سهرت أسامر هذا الخيالَ
وأحلُمُ بالصّورة الباهِرَهْ
إلى أن غزا الفجرُ ليلَ (العِراقِ)
وأطلع أنواره الباكِرَهْ
ومن خلفه أقبلت (شهر زاد)
كأجملِ ما تُقْبِلُ الزّائره

وراحت تحدّثُنا بالجديد
وخلّت أساطيرَها الغابرَهْ
وقالت : لقد راح عهد (الرّشيد)
وفضّت طلائعنا سامرَهْ
فإنّا نفضنا زمانَ العبيدِ
ودارت على ليلهِ الدّائرَهْ
وإنّا زَرَعْنا المُنىَ والكرامـ
ـة والعزم في الهِمَم الحائرَهْ

*

أطِيلي الرّوايةَ يا (شهر زاد)
وزُفّي البشائرَ يا قادره
وقُصّي علينا حديثَ الجلالِ
وأُنشودةَ الثّورةِ الحاضرَهْ
ولا تسكُتي إن أطلّ الصّباحُ
وأطفأ مِشكاتَكِ السّاهرَهْ
أطِيلي ، ولا تَرْهَبي (شهر يار)
ولا بَأْسَ أسيافه الباترَهْ
فإنّا طَوَيْنا زمانَ الطغاة
ودُسْنا رُؤوسَهُمُ الفاجرَهْ
فإن تسألي : مَنْ ولاة الأمورَ ؟
فإنّ الشّعُوبَ هيَ الآمِرَهْ

بغـداد :

للشاعر محمد التهامي :

هـذا الجمـال . . عرَفْـتُـهُ وأَلِـفْـتُـهُ
ورأيتُ أكثرَهُ بـ (مِصْرَ) وذُقْتُهُ
لـولم أَرِدْ هـذا الحِمى ، وسألتَني
عمّا احتواه من الجمال ، وَصَفْتُهُ
أو جيء لي يومـاً ببعض تُرابــه
وأنـا البعيدُ ، شممتـه ، فعَـرَفْـتُه
لـو لم يقولـوا : أنت فيه لَـهَـزّني
رُغْـمَ البِعـادِ أريجُـهُ فَـلَـثَـمْـتُه
(بغـداد) مـا طـول الطريـق ، وفي دمي
شيء – بمغنـاك الحبيب – وجَدْتُهُ
فلأنت (قاهرتي) وحُبُّك قاهرٌ
في كلِّ خفـقةِ نابضٍ أحسستُـهُ

*

بلدي ، ولو رفع العَـدُوُّ جِـدارَهُ
بيني وبينك للسَّماء عَـبَـرْتُـــهُ
وفتـاك يا (بغـداد) بين جـوانحي
لـو كنت أدعـوه الشّـقِـيقَ ظلمتُهُ
بل إنّـهُ بعضي وإنيّ بعضُـــهُ
قـد كان في هـذا الـوجـود وكُـنْتُهُ

*

مـا كان ماقد كان غيرَ تمَـزُّقٍ
في أَضلـعي أحسسته وبكَـيْـتُـهُ

إن بعثروا جسدي ، فغايةُ جهدهم
فالقلبُ ، رغمَ أنوفِهم، وحدَتُهُ
وطحنت أشواطَ الحدود بواحد
ما خُنْتُه يوماً ولا قَسَّمْتُهُ
من فوق أمواج (الخليج) وصخره
حتىّ انطلاقات (المحيط) بسطتُهُ
يسعى لوحدته فيخمد صوته
فيَصيح في كلّ المسامع صَمْتُهُ
أصغي إليه بكل حِسّ نابض
وإذا أصخت إلى القبور سَمِعْتُهُ
هذي حقيقتنا تجلجل حولَنا
كالرّعد يجتاح المُكابرَ صوتُهُ
من كان فينا ، لا يُحسُّ نداءنا
سيّانِ منه حياتُهُ أو موتُهُ
والسّارقون لنا يُجَنُّ جُنونُهم
ويُقِضّ مضجعَ أَمْنِهِم ما قلتُهُ
هم موقنون بأنّ غايةَ أمرهم
موتٌ يَحين مع التّوحّدِ وقتُهُ
ولذاك ، كل مُضَلّلِ بسمومهم
يبدو لوحدتنا قِلاه وَمَقْتُهُ

*

النّاهبون تسيلُ في أنيابهم
حرّيّةُ الشّعبِ الكريم وقوتُهُ
الدّائبون على الصّراع يحيطنا
وَيهزّ كلَّ حياتنا جَبَروتُهُ

إِمّا حياتُهمُ ، وإمّا عيشُنا
ياويلَ مَنْ رَكْبُ الحياة يفوتُه !
عاشوا على دَمِنا السِّنينَ ، وفاتَهم
أنَّ المؤدّب لن يطولَ سكوتُه
والحقّ مهما زلزلت أركانه
لا بُدَّ – يوماً – أن يَحِينَ ثبوتُه
وصياحُ أبواق الضّلال ، مصيرُهُ
مهما استمرّ به الصُّراخُ ، خُفُوتُه
هذي طبيعة كلِّ حقٍ ، حكمة الـ
ديّان ما يجرى به ملكوتُه
لاتفزَعَن من العواصف إنها
زَيْفٌ ، عَرَفْتُ خِداعهَ فكشفتُه
هم يكذِبونَ ، فلا تصدِّقْ قولَهُمْ
ما كنت جئت ، لو انّني صدّقتُه
هم يسرِقون ، فلا يَغُرَّك مالهُمْ
كم قَدَّمُوه لنا ، وقد حَرَمْتُه
لا ترهَبَنَّهُمُ وتخشى جيشَهم
هذا الدعيّ ، صدمته فصرَعْتُه

*

إنّ القويّ هُوَ اتّحادُ كيانِنا
فأنا وأنت ، صنعتَه ، وصنعتُه
من نور أحلامي ، وطول تطلّعي
وحَصادِ أيّامي الطِّوال جمَعْتُه
من كلِّ ساعةِ شدةٍ قَضَّيْتُها
من كلِّ ومضةِ مخرج أُلْهِمْتُه

من قبضة السَّجّان ، من جَبَرُوته
من قسوة الطّغيان قد أخرجتُهُ

من خيرِ أوطاني يَسيلُ لغيرها
ولها الجفاف ، عصرتُهُ وشربتُهُ

من لهفةِ الظّمآنِ في وَهَجِ اللظى
من صرخة الجَوْعان ، يُسْرَقُ قُوتُهُ

من لاجيءِ نهَشَ الذّئابُ عظامَهُ
لمّا غدا نَهْبَ الضّياع مبيتُهُ

خطّت وصيَّتَهُ الدّماءُ ليّتقي
هذي النّهايةَ مَنْ تأخَّرَ موتُهُ

★

بغداد :

للشاعر احمد اللغماني:

عرفتك (بغدادُ) منذُ اكتشفـ
ـتُ بأنّي منكِ ، وأنّكِ منيّ

فعشت بأخْيِلَتي واقعاً
وإن لم يكحّل بمرآك جَفْني

وما كنتِ أسطورةً في خيالي
ولا كنتِ وَهْماً يخامر ظنّي

فإنيّ بنيَتُكِ في خاطري
وأفرغت فيكِ روائعَ فنّي

بنيتُكِ من لَبِنات الهوى
ودعّمت من صبوتي كُلَّ ركنِ

وخطّطت في خطرتي كلَّ حتّى
وهندستُ في وحدتي كُلَّ حِصْنِ
ومدّدتُ بين المباني الدروب
وظلّلتها بالوريفِ الأغَنِّ
حملتُك في منطوى فكرتي
وضمّك من خافقي خيرُ حِصْنِ
حملْتُك كُلّاً بأجزائه
فما غاب جزءٌ ولا ندَّ عنّي
أراك إذا ما تسربلت ليلي
وإمّا تلحّفَ بالصّمْت كَوْني
وأُغْمِضُ عيني ، فأبصِرُ ما فيـ
ـك ، ما في مغانيك من كلِّ حُسْنِ
وأعْرِفُ كلَّ طريق أرودُ
وأعْرِفُ ما ضمّه كلُّ سكنِ
رأيتك (بغداد) رُؤْيا اليقينِ
ورؤيايَ صادقةٌ لم تَخُنّي
فَتَيَّمْتِني ، وفتنت الجوا
نِحَ ، من قبل أن تفتني المقلتينِ
عرفتك (بغداد) منذ اكتشفت
بأنّيَ منك ، وأنّك منّيَ

*

أتيتك (بغداد) أركَبُ شوقي
أخفَّ جَناح ، وأمرعَ مَتْنِ
يَدِفُّ بركبي غرامٌ مُلِحٌّ
ويدفَعُني لك حُبٌّ مُعَنّي

تحيّرتُ لمّـا اعتزمت الرّحيلَ
وساءلتُ نفسي ، فما أسعفتني
بماذا أجيء ؟ وأيُّ الطّرائـ
ـف تُرْضِي ؟ وأيّ النّفائس تُغني؟
أأحمل من رمل شُطْآننا
دُمراحَ النُّضارِ، ومَحْضَ اللُّجَيْنِ؟
وأذرو على ضَفّتَيْ (دجلة)
فأجمع ما بين خِدْنٍ وخِدْنِ
وهل أنتقي لك أنضَرَ زهـر
تفتّحَ في غصنه المُتَثَنّي
من الورد ، والفُلّ ، والياسمـ
ـن ، فأنثُرُ في كلّ سهلٍ وحَزْنِ؟
وهل أغتدى « للعتابا » بلحن
هو السِّحرُ في نَبَرات المغنّي
بنغمة « مأاوفنا » المغربيّ
بهمس الحمائل في الجنّتَيْنِ
لقد ظلّ دهراً يناجي فراديـ
ـس (أندلس) بين نَبْعٍ وغُصْنِ
وحطّت على الرّوض ذات صباحٍ
مناقيرُ نحسٍ ، وغِرْبانُ بَيْنِ
فَفَرّ مَهيضَ الجَناحِ طريداً
وحطّ بـ (تُونُسَ) جنّة عَدْنِ
وهل لك (بغدادُ) في نور فجر
تبلّج بين قَتامٍ ودَجْنِ
وأشرقَ من جبهة حُرّةٍ
فأعظِمْ بهِ هيبَةً دونَ مَنِّ

جبينٌ أشَمُّ ، عطاءٌ عريضٌ
يجود الزّمان به بعد ضَنِّ
يفدّيه منّي أعزُّ عزيزٍ
بقايا شبابي ، وإنسانُ عيني
هو الفجر (بغدادُ) سِرْنا عليه
بعزمٍ جديدٍ نَشِيدُ ونَبْني
هديّتُنا لك – يا أخت (تُو
نُس) – من كدِّ (تونُس) لهثة أيْنِ
وإيمان (تونس) أنّ المطامـ
ـح تُدْرَك بالجَهْد لا بالتّمَنّي
مصير ابن آدم رهنٌ يديه
وما الحظّ إلا أباطيل مَيْنِ
هو « القَدَرُ الحَتْمُ » قال القَنُوعُ
بلقمةِ ذُلٍ وجُرْعةِ غَبْنِ
عقيدةُ مَنْ خرَّبُوا دورهم
بأيديهمُ فقَضَوْا مَرَّتَيْنِ
عقيدة عجزٍ ، وشرعة ذُلٍّ ،
وتقوى نِفاقٍ ، وإيمان جُبْنِ
أساطير قد خدّرت عَزْمَنا
رمتنا بضَعْفٍ ، دَهَتْنا بوَهْنِ
فأقدار ربّي – وسُبْحانَ ربّي –
ليست قضاءً يُبيدُ ويُفْني
ولكنّما هي أعمالنا
عليها نكافأ وَزْناً بوزنِ

★

بغـداد :

للشاعر احمد السقاف :

(١)

(بغـدادُ) يا أزكى من المَـلابْ
ياحُـلْوةً كأنهـّا في فمِ عاشقٍ رُضابْ
لاتسألي الفُـؤادْ !
إنّي حملتُ الحُبَّ قبلمولدِ الشّبابْ
وكنتُ مفتوناً بسحرِكِ الغريبْ
والنّـفسُ يا (بغـدادُ) في عذابْ
سلي الرفـاقَ والصّحـابْ
واللهِ ما نسيتُ (شارعَ الرّشيدْ)
و(الكـرخَ) و (الصُّلَـيْـخْ)
ولا نَسِيت التّوتَ والأزهارَ والنّخيل
و (دجلـةَ) الأصيـل
لاتسألي الفُـؤادْ

(٢)

(بغـدادُ) ياساحرةَ الأزمانِ والدُّهُورْ
ياقِـصـّةً تُروَى على مدى العصورْ
لقـد حـللتِ في الفـؤادْ
حروفُكِ الخمسةُ يا (بغدادُ)في الضّميرْ
مغروسةً تُـثيرُ في الأعماق ما تُثيرَ
يا وِجْـهَـةَ العِـبادْ !

يا حُلْوةً كأنّها في فمِ عاشقٍ رُضابْ
مهمـا تحـكّـمَ القَـدَرْ
وطال ليلُ البُـعْـدِ والأشواقِ والسَّهَرْ
فأنتِ يا (بغدادُ) في العيونْ
هيهاتَ أنسى الحُبَّ والنّضالَ والشُّجُونْ
والشَّفَقَ الآسرَ والقِـبابْ !

(٣)

(بغدادُ) يا عاصمةَ (المنصورِ) و (الرّشيد)
ياكعبةَ العلومِ والفنونِ والأدَبْ
(بغدادُ) يا أنْشودةَ العَرَبْ
أقْسِمُ يا (بغدادُ) بالأنفالِ والفَلَقْ
إنَّ جَمالَ المُدُنِ المزخرفَةْ
أصبحَ يا (بغدادُ) في قَلَقْ
والكعبةِ المُشَرَّفَةْ
فأنتِ أحلى ألفَ مرةٍ من الجَمالْ
فحسنُكِ الإعجازُ والخَيالْ
وصيتُكِ العاطرُ في فمِ الخُلودْ
يزهو بكلِّ مُدْهشٍ تليدْ
وينشُرُ الطَّريفَ والجديدْ

(*) شارك الشـاعر بهذه القصيدة في أمسية شـعرية أقيمت في نادي كلية الآداب مساء ١٦/١١/١٩٨٥ وقد راس وفد الرابطة الأدبية الكويتية ، وبثها « تلفزيون » بغداد مساء اليوم التالي .

(٤)

(بغدادُ) يا رفيعةَ الأُصُولْ
يا ضجّةً عظيمةً في مِسْمَعِ الزّمَنْ
من الّذي يجهَلُ ما قَدَّمْتِ مَنْ؟!
أبناؤك الأبطالُ كالسُّدُودْ !
يحُطّمونَ الحِقدَ والأطماعَ والفِتَنْ
ويرفعون رايةَ العرَبْ
شامخةً منصورةً على الحدود
نُسُورُهُمْ إن حلّقُوا صواعقُ الغَضَبْ
صولاتُهم تزلزلُ الجبالْ
ويكتُبُ التّاريخُ في ذُهُولْ !
أسطورةً خلّدها (العراق) في القتالْ!
بقائدٍ لا يَعْرِفُ المُحالْ !

(٥)

العفوَ يا (بغدادُ) إن تَنكّرَ الشّقيقْ
وأغمض العينينِ في جحودْ
وأنكَرَ الوحدةَ والإخاءْ
واختار في الهيجاءِ خندقَ العِدا
فالعُرْبُ يا (بغدادُ) تعرِفُ الطّريقْ
وتكشفُ التّخريبَ والغَباءْ
والخُطَبَ التي يمجُّها السّماعْ
فكم شبِعنا خُطَباً هي الوَباءْ !
مُثْقَلَةً بالكِذْبِ والتّزييفِ والخِداعْ
نَعْصِرُها فيصرُخُ الهُزالْ
ويخجَلُ السّائلُ والسّؤالْ
ويضحَكُ العَدُوُّ والصّدِيقْ !

(٦)

يا أيُّها اللاهون بالنّشيدْ
والمنطِقِ المشوّهِ البليدْ !
لو لم تَقِفْ (بغدادُ) موقفَ الفِداء
لكانتِ الأيّامُ كلُّها سوادْ !
وانتحر الإباءُ والرّجاءْ !
وراحت الأمجادُ تُعْلِنُ الحِدادْ
ومات في (الكويتِ) و (القطيفِ) و (الرِّفاعْ)
غناءُ بحّارٍ يهدهدُ الشّراعْ
فليس عندَ المخلصينَ موقِفانْ
وليس عند الثّائرينَ خَنْدَقانْ
لو لم تكنْ (بغدادُ) قلعةَ الدِّفاعْ
لضاعتِ الأمّةُ في الضَّياعْ !

(٧)

(بغدادُ) إنْ تطاولَ الظّلامْ
وحاربت رموزُهُ مساعيَ السّلامْ
فالنّصْرُ يا (بغدادُ) قد ظَهَرْ
يُطِلُّ يا (بغدادُ) من (مَيْسانَ) كالقَمَرْ
لن تسقُطَ (البصرةُ) في يدِ الغُزاةْ

ولنْ تمُوتَ في عيوننا الحياهْ
فالحربُ إن جُنَّتْ فهم لها حَطَبْ
هم الّذين كَدَّرُوا الجِوارْ
ومَزّقُوا وسائلَ الحِوارْ
وطنطنــوا بالدِّينِ تمويهاً لنُصْبحَ
السَّلَبْ !
أهُمْ بُناةُ الدِّينِ أم نحنُ العَرَبْ ؟!
عَجَبْ عَجَبْ !!

(٨)

(بغدادُ) يا شموخَ أمَّةِ العَرَبْ
يا مجدَها الخالدَ في الدّهورْ
قُصّي علينا كيفَ مُزِّقَ الغُزاهْ
وكيف صالَتْ في المعاركِ الأُسُودْ
حينَ تغَطَّى «الهورُ» باللَّهَبْ
واحترقت مطامعُ الهجومِ والعُبُورْ
بصولةٍ نَفَّذَها الأُباهْ
وصارتِ الفُلولُ خارجَ الحُدودْ
وزغردَتْ (دجلةُ) في سرورْ !
وطأطأ الغُزاةُ في انكسارْ
لأنّهم ليلٌ يُحاربُ النّهارْ
لأنّهم ليلٌ يُحاربُ النّهارْ !

بغداد في الشعر

كتاب جمعت موادُّه من مصادر متعددة ليصدر في احتفالات « بغداد والكندي » سنة ١٩٦٣ م ، وقررت لجنة الاحتفالات نشره • لكن تأخر طبعه لظروف خاصة ، وقد حذفت منه فصولاً وقصائدَ ، وأضفت اليه أخباراً وقصائدَ أكثرَ موضوعية •

وستظل بغداد عروساً ملهمة للشعراء والكُتاب المؤرخين •

وفي مطلع المئة الخامسة عشرة ، اقترح الأستاذ العلامة محمد بهجة الأثري أن يتولى المجمع العلمي العراقي نشره في جملة الكتب التي قـرر نشرها بمناسبة قراره الاحتفال بـ (بغـداد ومؤرخها الخطيب البغـدادي) ، وقد أقر المجمع اقتراحه • وأنجز طبع الكتاب باشرافه واخراجه •

فالى الأديب الكبير الصديق أقدم جزيل الشكر وصادق الحمد ، والى المجمع ورئيسه الشكر والامتنان ، ومعذرةً للشعراء الذين لم أختر لهـم لأسباب الطبع •

جمال الدين الألوسي

مضامين الكتاب

(١)

تقديم

(٢)

تمهيد المؤلف

(٣)

الباب الأول ــ بغداد في الشعر العباسي

(٢١ ــ ١٥٣)

(٤)

الباب الثاني

بغداد في شعر شعراء العصر العثماني

(١٥٧ ـ ٢١١)

الباب الثالث

بغداد في الشعر المعاصر « بعد عصر الدولة العثمانية »

(٢١٥ – ٣٢٣)

(اصلاح الأغلاط المطبعية)

الصفحة ـ السطر	الخطأ	الصواب
٣٦ — ١٢	نأخـذ	نأخـذ
٣٧ — ١٤	قول أحـد القاضي	قول القاضي
٣٩ — ٠٥	حلِـلتُ	حَـلَـلْـتُ
٥٧ — ٠٥	مؤنس عمران	—
٧٤ — ٢٥	احتار	حار
٧٧ — ٢١	شطـَآنه	شُـطْـآنه
١٣٥ — ١٤	فـلك	فَـتِـلْـكَ
١٤٠ — ١٥	لَـلْـمُـرُءَة	لَـلْـمُـرُوءَة
١٤٣ — ١٨	النـار	لنـار
١٤٤ — ٠٩	كُـلـُّـنا	كُـلّـنا
١٤٤ — ١٧	الإسلامُ	الإسلامِ
١٤٩ — ١٦	خَـيمـّـوا	خَـيَّـمُـوا
١٥٢ — ٧	آذر	آذُر
١٥٢ — ٧	والضعيف	وضعيف
١٥٢ — ١٢	الموكب	المواكب
١٥٢ — ١٣	مُحمل	محمل
١٥٢ — ١٧	شهود	مشهـّر
١٧٠ — ١٩	تخميسه	تخميسة
١٧١ — ١٩	سأرحـْلُ	سَـأَرْحَـلُ
١٧٢ — ٠٨	عبد للحميد	عبد الحميد

الصواب	الخطأ	س — ص
غِـرَّةٌ	عِـزَّةٌ	١٧٧ — ١٢
وضَيَّـعَـنِـي	وضَيَّعنيَ	١٩١ — ٢٠
هـل	وهـل	١٩٣ — ١٨
البيروتي	البيروني	١٩٤ — ٠٣
انتـشى	نتشى	١٩٤ — ١٠
الحَـمْـآتُ	الحَـمْـأَتُ	١٩٨ — ٢١
المُـعَـلَّـى	المُـعَـلَـىَّ	٢٠٠ — ٠٣
عليهِ	عليه	٢٠٠ — ٠٨
كنتَ مُقَـرَّناً	مُـقَـرَّناً	٢٠٠ — ١٣
التِّـبْـن	التبر	٢٠٠ — ٢٤
حَفَـرَهـا	حضرها	٢٠٠ — ٢٨
« العِـراق »	« الطرق »	٢٠٢ — ٢١
يَـتَـبْـعُـدُونَ	يـتْـعدون	٢١٦ — ١٧
يَـعْـلَـمُـونَ	يعلموَنَّ	٢١٦ — ١٩
شارعَ	بشارعَ	٢١٨ — ٠٢
رَكِـبْـتَ	نكَـبْـتَ	٢١٨ — ٠٦
عَـبَّـدُوها	عَـبَّـدُّوها	٢١٩ — ١٣
فآوِنـةٌ	فأَونةٌ	٢٢٠ — ٢٢
السماعيـة	الشماعية	٢٢١ — ٢٦
شُـطْـآنُ	شُـطْـانُ	٢٢٦ — ١٤
حَـياتَـهُـمْ	حيَـاُـهمْ	٢٢٨ — ١٩
تَـبْـيِـيضِ	تبيضِ	٢٣٤ — ١٩
البُـرْدَة	البرودة	٢٤١ — ٠٨

س – ص	الخطأ	الصواب
٢٤١ – ١٨	والتُّؤَمُ	و التُّؤَمِ
٢٤٢ – ٠٢	عَدمَ	عَدَمِ
٢٤٧ – ٠٣	(العَرَبَ)	(العَرَبِ)
٢٤٨ – ١٥	يكادُ	يكادَ
٢٥٠ – ٠٥	ورْبَّ	ورُبَّ
٢٥٦ – ١٠	إخلاّء	أخلاّء
٢٥٧ – ٠٥	يَتَمُسِي	سَيُمْسِي
٢٥٨ – ٠٤	تَبغَي	تَبْغِي
٢٥٨ – ٠٦	المَثلهم	ألمِثْلِهِمْ
٢٦٧ – ١٣	تَبْقِين	تَبْقَيْنَ
٢٦٩ – ١٠	ظَمْأنَ	ظَمْآنَ
٢٦٩ – ٢٣	التماحة	التماحُهُ
٢٧٢ – ١٧	٩١٥٣ م	١٩٥٣ م
٢٧٥ – ١٠	أصداءَ	أصداءُ
٢٧٧ – ١٤	لَمفْرِقِكِ	لِمَفْرِقِكِ
٢٨٠ – ٢١	النفسِ	النَّفْسَ
٢٨٨ – ٠٥	الكلمة	الكلمهْ

كمية الطبع ٢٠٠٠ نسخة

تاريخ أنتهاء الطبع ١٩٨٧/٣/٣١

رقم الأيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٣٢٢
لسنة ١٩٨٧

السعر

ثلاثة دنانير ونصف